نور الدين فارح

هدايا



ترجمة: خالد الجبيلي

منشورات الجمل

رواية

نور الدين فارح

هدايا

ترجمة: خالد الجبيلي



منشورات الجمل

نور الدين فارح : هدايا

ولد نور الدين فارح في عام ١٩٤٥ في ما يعرف حالياً الصومال (التي كانت آنذاك صومالي لاند الإيطالية) في بيدوا، ونشأ في كالافو، تحت الحكم الإثيوبي في أوغادين. وقد ساهم هذا المزيج العرقي واللغوي في المنطقة التي أمضى فيها طفولته بولعه المبكر بالأدب. وفي البيت كان يتكلم اللغة الصومالية، وتعلم في المدرسة اللغة الأمهرية والإيطالية والعربية والإنكليزية. وعمل فارح في وزارة التعليم في الصومال قبل أن يغادر إلى الهند لدراسة الفلسفة والأدب. وقد نشر أول رواية له **«من ضلع أعوج»** في عام١٩٧٠، حظيت بإعجاب عالمي لأنها تصور المرأة الصومالية التي تكافح العادات والتقاليد في المجتمع الصومالي، وتبعتها رواية **«إبرة عارية»**. وتشكل روايات فارح الثلاث: **«حليب حلو وحامض»** (١٩٧٩)، و**«سردين»** (١٩٨١) و**«أغلق يا سمسم»** (١٩٨٣) الثلاثية المعروفة بتنويعات على موضوع الدكتاتورية الأفريقية. وعندما نشرت رواية **«حليب حلو وحامض»**، التي فازت بجائزة الاتحاد الأدبي للناطقين باللغة الإنكليزية، أصبح فارح شخصاً غير مرغوب فيه في بلده الصومال. وفي المنفى بدأ فارح ما أصبح مشروعاً أدبياً مدى حياته: **«لكي يظل بلدي حياً بالكتابة عنه»**. وأعقب ثلاثية التنويعات ثلاثية بعنوان **«دم في الشمس»**، التي تتألف من **«خرائط»** (١٩٨٦) و**«هدايا»** (١٩٩٢) و**«أسرار»** (١٩٩٨). ويعيش فارح في كيب تاون في جنوب أفريقيا مع زوجته وطفليه.

نور الدين فارح، **هدايا، رواية**، ترجمة: خالد الجبيلي
الطبعة الأولى،
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان
تلفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ٠١ (٠٠٩٦١)

Noureddine Farah: **Gifts, roman**

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: info@al-kamel.de

إلى

مونيك لورتي

وأكسماد سر وعائلته

وإحياء لذكرى

أمي وأنجيلا كارتر

مع الحب

بكتابة هذه الرواية، أشعر بأني مدين إلى مارسيل موس، مؤلف «هدايا» التي ترجمها إلى اللغة الإنكليزية إي. كونيسون. كما أدين إلى العديد من الأصدقاء، بمن فيهم بول دورنوبس، والبروفسور محمد عمر بشير من جامعة الخرطوم، والدكتور ميشثيلد ريه: الذين أشكرهم جميعهم

الجزء الأول
ولادة قصة

[1]

وفيه ترى دنيا ملامح قصة تنبثق من السديم الذي يغلّفها، بينما العالم الخارجي يقتحم فضاءها وأفكارها

لم يكن قد مضى وقت طويل على استيقاظ دنيا عندما أدركت أن بزوغ الفجر قد أضحى وشيكاً. وتذكّرت أنها حلمت بفراشة ترفرف بجناحيها، وبقطّة تنتظر متحفزة لتنقضّ على الحشرة المشاكسة. وبعد قليل، أضاء الغرفة المعتمة بريق حشرة سراج الليل، وسُمع صوت لهاث ناعم وهادئ كالرغوة. فراحت دنيا، التي كادت تغيب عن الوعي بسبب الحرارة الخانقة، تراقب ما يجري وهي لا تزال مستلقية. كانت الفراشة تحوم في أرجاء الغرفة، وتقوم بحركات فاتنة في شكل دائرة من ألوان قوس قزح. وكما لو كانت منوّمة مغناطيسياً، أغمضت القطّة عينيها ببطء، على نحو مثير، وغطت في النوم.

غادرت دنيا السرير بعد أن شعرت بأنها أفاقت تماماً. ولما كانت تعرف أنها يجب أن تغادر البيت وتذهب إلى عملها سيراً على القدمين، فقد غادرت البيت قبل أن يستيقظ أطفالها بفترة طويلة. كانت تعرف أنها يجب أن تغادر البيت في وقت مبكر لأن رحلتها تستغرق خمساً وأربعين دقيقة، ما عدا الوقت الذي تستغرقه في تبادل تحيات الصباح والثرثرة حول ما جرى البارحة من أحداث مع أيّ من جاراتها أو زميلاتها اللاتي قد تلتقي بهن.

وعندما كانت تكتفي بالإيماء برأسها، فإن ذلك يعني أنها ترد على التحيّات الموجهة إليها دون أن تتوقف، وكأنها لا تعرف من يوجّه لها التحية. وكانت

تشيح بوجهها عن الرجال الذين يسيرون في الشارع الجانبي والذين يضعون مآزر، ويلفّون مناشف حول صدورهم العارية. إنهم رجال لا يكفون عن الثرثرة، ومضغ أعواد «المسواك» لتنظيف أسنانهم. لَم تكن دنيا بحاجة لأن يذكّرها أحد بأن البيوت المبني نصفها من الطين ونصفها الآخر من الطوب، التي يقف أمامها هؤلاء الرجال، لا توجد فيها مياه جارية، ولا أحواض للغسيل، ولا مراحيض ملائمة. وهي نفسها تقيم في واحد من تلك البيوت القليلة في هذا الحي من مقديشو التي تفتخر بوجود مثل هذه الأشياء.

أينما التفت المرء، رأى أناساً يخرجون من أبواب مفتوحة. كانت الشوارع تعجّ بالحركة وتضج بالحيوية: فقد كانت النسوة يتحدثن بطلاقة مع جاراتهن، وأسراب من الأطفال يرتدون زيهم المدرسي متجهين إلى مدارسهم، أما الأطفال الصغار الذين لا يستطيعون حمل حقائبهم، فقد كانت أمهاتهم تقودهم إلى رياض الأطفال. وبوسع المرء أن يرى هنا وهناك شخصاً منهمكاً في نقل بنزين من سيارة إلى أخرى. تلك السيارات التي غالباً ما تكون قديمة ومهترئة، ويكون غطاؤها مرفوعاً لتبريد محرّكاتها. وكانت تمر بين الحين والآخر سيارة، فيلتفت إليها الجميع ويحدقون فيها: في البداية يحدّقون في السيارة وكأنهم يرون معجزة، ثم يحدّقون في السائق، لعله يوصلهم إلى المكان الذي ينشدونه. وما إن كانت إحدى سيارات الأجرة تتوقف، حتى ترى جمهرة من الناس يهرعون باتجاهها، ويتدافعون بالمناكب ويتشاجرون، وعندها ينطلق السائق مسرعاً، شاعراً بالأمان داخل سيارته التي أحكم إغلاق أبوابها.

وبخلاف التوقعات، كانت مسحة من الفرح تملأ الهواء، حيث كان بعض الغرباء يرغبون في أن يتحدثوا عن أيّ شيء، مع أن الحديث الرئيسي الذي يشغل الجميع كان شح الوقود وانقطاع الكهرباء على نحو متكرّر ومتزايد. أما الأشخاص ذوو الاطلاع الجيد، فكانوا يتحدثون عن السياسة التي تقبع وراء شح السلع، ويخمّن كل منهم إلى متى سيدوم ذلك. ويقول رجل يدّعي أنه

جيد الاطلاع إن وفداً حكومياً سيزور البلدان العربية المنتجة للنفط، ويأمل في أن يعود محملاً بخزانات من البترول.

عبرت دنيا الطريق المعبّد الذي يفصل بين حييّن اثنين، رغم عدم وجود يافطة تشير إلى ذلك: الحيّ الفقير الذي تقيم فيه هي نفسها، والحيّ الآخر الذي تعيش فيه الطبقة المتوسطة والميسورة. ومن طبيعة الأحاديث واللكنات، عرفت دنيا أنها أصبحت في هودان، وراحت تسلك درباً ترابياً يربط بين شارعين مسفلتين، درباً واسعاً هادئاً وكأنه طريق مسدود. واعتراها بغتة شعور بانزعاج شديد، فقد أزعجها الصمت المطبق الذي يكتنف المنطقة، فراحت تلهث متقطعة الأنفاس. وتملّكها ذعر لا مبرر له، وأحسّت بالبرد يغلف عظامها، وكأنها غامرت ودخلت أرضاً خطرة. توقفت ولم تعد ترغب في التقدم خطوة أخرى.

ثم رأت قطّة تشبه القطّة التي رأتها في منامها، تجثم أمامها غير خائفة، تنتظر أحداً يحملها ويحضنها. لكن دنيا لم تفعل أياً من ذلك، وراحت هي والقطّة تحدّق إحداهما في الأخرى مما زاد إحساسها بالتعب الداخلي.

وما هي إلا بضع ثوان، حتى رأت من مسافة تغلّفها مسحة من الضباب شيئاً بدا لها في البداية فراشة ذات أجنحة ملوّنة، ولكن لدهشتها تبين لها أنها سيارة أجرة حمراء ذات خطوط صفراء، فارغة.

صعدت إلى السيارة دون أن تنبس بكلمة، وجلست في المقعد الخلفي. ثمة شيء في داخلها قال لها أن لا تسائل حظّها كي لا يفلت منها، لكنها تساءلت إن كان ركوبها سيارة الأجرة سيكلفها كثيراً في يوم كهذا. واطمأنت عندما اختلست نظرة إلى محفظتها. لكن لماذا لم يتحرّك السائق؟ هل رأى ركاباً آخرين يرغبون في الركوب معها أيضاً؟ ثم أدركت أنها لم تغلق باب السيارة. وعندما أغلقته، بدأت السيارة تتحرك.

لمس السائق أعلى قبعة الغولف التي يعتمرها، وسألها: «إلى أين تريدين أن تذهبي يا سيدتي؟».

«إلى مستشفى بنادير للتوليد، من فضلك».

«في خدمتك يا سيدتي».

حاولت دنيا أن تبعد عنها الشك الذي بدأ يلوح لها: فلم يكن الرجل يتحدث أو يتصرّف مثل سائق سيارة أجرة. فعبارات مثل في خدمتك يا سيدتي، ضاغطاً على لسانه كما يضغط حذاء جديد على أصابع قدم المرء بشدة، لا تصدر عن سائق سيارة أجرة. كان متردداً وحذراً في استخدام المفاتيح، وكأنه معتاد على قيادة سيارة أتوماتيك أكثر من قيادته سيارة ذات ناقل سرعة يدوي. وقد شبّهت ذلك بفارس عديم الخبرة لا يستطيع أن يسيطر على الحصان غير المروض الذي يمتطيه. توقفت السيارة مرات عديدة، وكان يخرج عندها، معتذراً، ليفتح الغطاء، ويعبث بأسلاكها، ثم يصعد ثانية إلى السيارة، ويكرر العملية. لم يكن القلق بادياً عليه، ولم يكن يتصرف مثل سائق محترف يعتمد في قوته على عمل السيارة، بل كان أشبه برجل تكرّم عليك وأعدّ لك طعاماً عندما لم تكن خادمته وزوجته في البيت: فهو لا يريد أن يذكر النتيجة التي لم يكن مهيئاً لها، بل التواضع الذي خدمك به ، الجهد الذي بذله للقيام بذلك.

انطلق بسرعة، ثم قال: «كما يمكن أن تكوني قد خمنتِ، فأنا لست معتاداً على قيادة سيارة الأجرة هذه».

ثم رأت دنيا وجهها ووجهه مؤطّرين في المرآة، وكأنهما ينتظران طوال حياتهما هذه اللحظة عندما يلتقي وجهاهما ويتشاركان في فضاء واحد، ويصبح مصيرهما مشتركاً. ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة. كان فكّه قوياً، ووجهه حليقاً ناعماً مثل صفيحة من المشمّع، مشرقاً بابتسامة وديّة. لكن ذلك منحها شعوراً غريباً مخيفاً، وكأنّ الأرض قد انشقت من تحتها وابتلعتها. وبغتة، أحست بأنها لا ترغب في أن تكون وحدها معه. وفي الوقت نفسه، اعتراها شعور بأنها تعرف هذا الرجل، تعرف اسمه.

«لماذا تدّعي أنك شخص ليس أنت، يا بوساسو؟» سألته.

«لا أعرف عما تتحدّثين»، أجاب.

«إنكم تتنكرون أيها الرجال بعد أن تستنفدوا جميع أقنعتكم الطبيعية. معشر الرجال»، قالت ذلك وكأنها تصف بهذه العبارة نوعاً لا تكنّ له سوى مشاعر الاحتقار.

رفعت عينيها إلى السماء. بدا لها أن الشمس تحملها طبقات من الشطآن، وبدا لها أن الشمس مثبتة بخيوط رقيقة من السحب، بيضاء مثل غصن يتهدل من شجرة لا تكسوها طبقة من اللحاء، وتحت الشمس ثمة غيمتان داكنتان صغيرتان تشبهان مسندي قدمين.

إنها تعرف بوساسو جيداً، ويعرفها هو جيداً أيضاً. فقد كانت تعمل في النوبة الليلية عندما أمضت زوجته الراحلة بضعة أيام مضنية في قسم العناية المشددة في مستشفى التوليد الذي تعمل فيه دنيا رئيسة للممرضات، كما كان لهما صديق مشترك هو الدكتور ماير، رئيس قسم التوليد في المستشفى، وصديق بوساسو منذ نعومة أظفارهما.

قالت: «لو كنت أعرف أن هذه ليست سيارة أجرة لما استقليتها، صدقني».

فقال بوساسو: «لكنها ليست سيارة أجرة عندما أقودها أنا».

«إذًا لماذا تقودها؟».

«لأن سيارتي الخاصة في ورشة التصليح».

«كل هذا غير مقنع بالنسبة لي».

حاول بوساسو أن يشرح لها: «لقد اشتريت سيارة الأجرة هذه لأحد أبناء عمي الفقراء، لكي يكسب منها بعض المال. إنه يأخذ كل النقود التي يحصّلها من العمل على السيارة، لكن السيارة لي وهي مسجلة باسمي».

«في هذه الحالة، أريد أن أدفع لك الأجرة».

«تدفعين الأجرة؟» وكأنه أحس بإهانة.

«تستطيع أن تعطي المبلغ إلى ابن عمك»، توقّفت، ثم أضافت: «هل مائة وخمسون شلناً تكفي لهذه التوصيلة رغم الشح الذي تشهده البلد في البنزين هذه الأيام؟».

«بالتأكيد»، قال بوساسو.

شعرت أنه لم يأخذ كلامها بجدية. ولكي تكبت إحساسها بالإهانة، ضحكت ضحكة خافتة بطريقة مسرحية، متظاهرة بأنها سعيدة.

سألها: «ما المضحك في الأمر؟».

فأجابت: «الفكرة التي يربطها المرء بالمال».

أصغى إلى كلماتها مثل صياد سمك ينصت إلى صيد وفير. لكنه لم يتمكن من رؤية وجهها في مرآته، مع أنه حاول تعديلها. جلست في المقعد الخلفي صامتة. نظر من فوق كتفه اليسرى ثم من فوق كتفه اليمنى، لكنه لم ير دنيا. ودون أن يعبأ بما يمكن أن يحدث، أدار رأسه بقوة، لكنه لم ير سوى جزء صغير منها. كان جسدها منحنياً ـ ربما كانت تلتقط شيئاً من أرضية السيارة. ثم فقد القدرة على التحكم بالمقود. تأرجحت السيارة، وارتطمت عجلاتها بجانب الرصيف ثم بالرصيف الآخر، وكادت تصطدم بمقدمة سيارة مركونة إلى جانب الطريق. وأخيراً توقّف بسلام.

فجأة شعر كل منهما بوجود الآخر على نحو مبالغ به، وأدركا أنهما أصبحا قريبين جسدياً من بعضهما البعض للمرة الأولى.

متجاهلين حفنة قليلة من الأشخاص الذين تجمعوا حول السيارة بدافع الفضول، لمست دنيا وبوساسو أحدهما الآخر، مندهشين لمواجهتهما تجربة حياة وموت، بعد أن توقّف في الوقت المناسب.

ودون أن يقترح عليها ذلك، تركت دنيا المقعد الخلفي، ونزلت وجلست إلى جانبه في المقعد الأمامي. خلع قبعة الغولف من رأسه ورماها خارج النافذة، وانطلق ثانية.

لاحظت دنيا كيف أن ابتسامته أبرزت معالم وجهه الوسيم. كان معتاداً على إمالة رأسه إلى جانب وكأنه ينحني لتناول شيء ما. قطّب جبينه، مثل شخص وقع في ورطة.

تذكّرت دنيا تلك الليلة الطويلة التي كانت قد أمضتها مع بوساسو، عندما كانت زوجته، التي انتابها المخاض، نائمة في الجناح الخاص، وتسللا على أطراف أصابعهما ليتنشقا هواء نقياً. لم يقل آنذاك الشيء الكثير. وتذكرت أن رأسه كان يميل مثل برج بيزا.

سمعته يقول لها الآن: «بالنسبة لأجرة هذه التوصيلة، إذا كان من الممكن . . .»، وصمت.

«نعم؟» قالت، وانتظرت.

«هل تذهبين إلى السينما مع ابنتيك وابنك؟» سألها.

«أحيانًا»، كذبت بقولها ذلك.

«ما نوع الأفلام التي تحبين أن تشاهدينها؟».

قالت وهي تتساءل إلى أين سيؤدي بهما هذا الحديث: «أفلام إيطالية عن رعاة البقر، أو أفلام هندية أو أفلام كونغ فو. لا توجد أفلام كثيرة يمكن للمرء أن يختار منها. لماذا تسأل؟».

لم يقل شيئاً على الفور، بل راح يركّز انتباهه على القيادة بعد أن انعطف إلى أحد الأزقة. كان ضوء الإشارة معطلاً، فمدّ ذراعه من النافذة مشيراً للسائقين الآخرين أنه يريد أن ينعطف إلى اليمين، لكنه ضغط على الفرامل فجأة ليدع أحد المشاة يتجاوز الطريق. لاحظت دنيا أنه رجل حذر، ويراعي مشاعر الآخرين أيضاً.

بدّل السرعة بيسر وقال: «أقترح أن تسمحي لي أن أرافقك أنت وأطفالك لنشاهد فيلماً، بدلاً من أن تدفعي شيئاً اليوم».

قالت: «لكني لا أعرف متى سأذهب إلى السينما ثانية».

أجاب: «لا لست في عجلة من أمري».

هل هذا فخ يستحيل الفكاك منه لاحقاً، مثل حلقات في سلسلة غير مرئية؟

ثم قال: «ربما لا يوجد لديك وقت، وخاصة مع طفليك التوأمين البالغين والفتاة الصغيرة»، ثم استدرك قائلاً: «وعملك في المستشفى. لا بد أنه عمل متعب للغاية. بالإضافة إلى الارتباطات الأخرى، إني واثق من ذلك».

لكنه فوجئ بقولها: «لديّ وقت كثير».

صمت لوهلة، ثم قال: «ربما لا أفهم بسرعة. أم أن هناك فخاً؟ هل لديك شيء لم تخبريني به بعد؟».

«لكي أكون صريحة، لست واثقة إن كنت أريد أن أصطحب أحداً لمشاهدة فيلم».

«حسنًا»، قال وهو ينعطف عند ركن الشارع.

كانت ترجو أن لا تكون قد نفّرته بشكل غير ضروري. ومن طرف عينها، راحت تراقبه وهو يشعل ضوء مؤشر «الخطر» في السيارة الذي أخذ يومض باللون الأحمر، متصادفاً مع دقات قلبها. نظر إليها ملياً، متسائلاً إن كان قد تجرأ على قطع سلسلة أفكارها.

تكلّمت هي أولاً: «أرجو أني لم أكن فظة».

فقال: «سأغفر لك ذلك عندما توجهين لي دعوة».

«لا أعرف كيف أتصل بك، على أي حال».

فقال: «على العكس، إنك امرأة ذكية، وتعرفين كيف تتّصلين بي إن أردت».

كانت متوترة إلى درجة أنها لم تستطع أن تفكر بوضوح، ظلت صامتة.

وتابع قائلاً: «يمكنك الاتصال بي عن طريق الدكتور ماير في المستشفى الذي تعملين فيه. إني أراه كثيراً، كل يوم تقريباً».

«ألن ينزعج إذا طلبت منه أن ينقل رسائل بيننا؟».

«سيكون في غاية السرور، أؤكد لك ذلك»، ابتسم ابتسامة عريضة، ووزع انتباهه بالتساوي بين وجه دنيا وبين الطريق المليء بالحفر والمشاة.

أوقف السيارة فجأة. «أظن أنه لا يمكنني أن أتجاوز هذه النقطة. هناك يافطة تقول «ممنوع دخول سيارات الأجرة». لقد نسيت أنني لا أقود سيارتي الخاصة. أنا آسف».

استوت في جلستها، وتهيأت للمهمّة الصعبة لقول شيء متزن أو محايد، «كنتَ في غاية اللطف».

«بكل سرور»، كان كلّ ما قاله.

دمدمت شيئاً بين «شكراً» و«إلى اللقاء»، ونزلت من السيارة، واثقة بأنهما سيلتقيان ثانية. أغلقت باب السيارة دون أن تنظر إليه.

عندما وصلت في وقت مبكر، راحت دنيا تحادث عاملات التنظيف الثلاث، بل إنها عرضت عليهن أن تساعدهن في تنظيف العيادة الخارجية حيث ستعمل في ذلك اليوم، لكنهن رفضن عرضها. كانت تبذل كل ما بوسعها لتبقي عقلها مشغولاً.

وعندما غادرت عاملات التنظيف وظلت وحدها في القاعة التي يتردد الصدى فيها، ظل عقلها يستعيد المشاهد من لقائها مصادفة مع بوساسو. ولإزجاء الوقت، أخرجت صحيفة قديمة وجدت فيها مقالة لفتت انتباهها، وراحت تقرأ:

مقديشو (وكالة الأنباء الوطنية الصومالية، الثلاثاء)

حذّر وزير الزراعة والثروة الحيوانية اليوم من وقوع كارثة ومجاعة في الصومال إذا لم تتخذ إجراءات فورية لوضع حد لدورة تكاثر جرادة الصحراء، فقد شهد سكّان مقديشو مؤخراً أسراباً ضخمة، يبلغ عرضها ٢٥ كم وطولها

٧٠ كم. وقال إن الحكومة بدأت حملة للقضاء على هذه الحشرة، إلا أن ذلك لا يمكن أن يتم إلا إذا استخدمت مبيدات للحشرات وطائرات رش خفيفة للقيام بذلك، وهي ليست متوفرة. وقد وعدت حكومتا الولايات المتحدة الأمريكية وهولندا بتقديم منحة للقيام بهذه الحملة. وبالرغم من ذلك، فإن هذا لا يكفي.

ووجّه رئيس الدولة، الجنرال محمد سياد برّي، الدعوة إلى سفراء كل من جمهورية ألمانيا الاتحادية وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا للنظر في المساعدة التي يمكن أن تقدمها حكوماتهم لكي تتمكن الصومال من مواجهة الكارثة. وحطّت ليلة البارحة خمس طائرات خفيفة تابعة لمنظمة مكافحة الجراد من أفريقيا الشرقية في أديس أبابا بسبب عدم توفر قطع الغيار والوقود.

ومستشهداً بما قاله أحد كبار المسؤولين في منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة، قال وزير الزراعة والثروة الحيوانية إن الجهود الرامية للقضاء على هذا الوباء في أنحاء أفريقيا سيكلّف ما لا يقل عن ١٠٠ مليون دولار أمريكي وإن مبلغاً إضافياً قدره ١٤٥ مليون دولار سيتوجب في السنة القادمة.

[٢]

وفيه تلتقي دنيا بزميلاتها في العمل وخاصة هيبو، رئيسة الممرضات، والدكتور ماير. ويجلب لها هذا الصباح بعض المشاكل وبهجة، وتلتقي دنيا بيوساسو وهي عائدة إلى البيت

بعد مضي ساعة ونصف، خرجت دنيا من الفناء تمسك ورقة مجعّدة سُجِّلت عليها أسماء النساء اللاتي سيزرن العيادة الخارجية، واللاتي أعطيت كلّ منهن رقمًا كُتب على قصاصة من الورق. ثم وقفت في الرواق، نصفها في الظلّ، ونصفها الآخر في الشمس، مبدية إعجابها بتلك النسوة اللاتي ربما كن قد استيقظن في الرابعة صباحاً كي يتمكنّ من الوصول إلى المستشفى؛ ولكنها مع ذلك، لم تستطع أن تبعد بوساسو عن تفكيرها.

وما إن رأت المريضات دنيا، حتى بدأن يتحركن ويتنهدن كما يفعل الجمهور في المسرح عندما تبدأ الستارة ترتفع؛ فقد كنّ متلهفات لأن يسمعن صوت دنيا وهي تنادي أسماءهن من القائمة. رفعن أبصارهن ورحن يحدقن في دنيا وكأنهن يحاولن قراءة أفكارها. تساءلت كم امرأة من تلك النسوة لاحظت ارتعاشة طفيفة على وجهها، مثلما يختلج جلد حصان يُتوقّع أن تلدغه ذبابة، ثم نادت: «الرقم خمسة عشر، من فضلك».

نهضت امرأة تتربع على الأرض، وبدأت ترفع وزن حملها الثقيل عن الأرض. أفسحت لها النساء الأخريات طريقاً، وفتحن لها باباً لتجتازه، ورحن يرمقنها بعيون حاسدة وهي تمدّ يدها وتقدم قصاصة الورق التي سُجّل عليها

رقمها إلى دنيا التي راحت تقارنه بالقائمة التي تحملها. وعندما طلبت من المرأة الدخول إلى قاعة الانتظار، استدارت دنيا إلى النساء الأخريات وصاحت: «الرقم ستة عشر».

بدأت بعض النسوة يحثثن المرأة التي تحمل الرقم ستة عشر على الإسراع، لأنهن جئن إلى هنا منذ الصباح الباكر، سيراً على أقدام مرهقة، وهن يعرفن أنه لن تتوفر لديهن فرصة ولا واحد في المليون في العثور على وسيلة نقل تعيدهن إلى بيوتهن. ظللت المرأة التي تحمل الرقم ستة عشر عينيها من وميض شمس الصباح، واستوت واقفة على قدميها ببطء شديد، ثم بدأت تسير بخطى وئيدة باتجاه دنيا. وعندما طلبت منها المريضات الأخريات أن تستعجل، همهمت المرأة شيئاً فُهم منه أنه بما أن الطبيب لم يصل بعد، فما الداعي للعجلة. هل يريدونها أن تفقد طفلها في بطنها؟ أبدت الكثيرات منهن انزعاجهن، ورحن يهززن رؤوسهن ويقلن أشياء غير مستحبة عن المنطقة التي جاءت منها المرأة، وقلن إن أهالي تلك المنطقة لا يفارق النعاس أجفانهم. أما دنيا، فكانت تنظر بابتسامة، وهي تشرح للمرأة التي تحمل الرقم ستة عشر المكان الذي يجب أن تتوجه إليه، ثم نادت: «الرقم سبعة عشر».

ساد صمت، ثم سُمعت همهمات قلقة، وأخذت بعض النسوة الحسيرات النظر يحدقن في الأرقام التي أعطيت لهن، أما اللاتي لم يكنَّ يُجِدن القراءة، فقد طلبن من اللاتي يعرفن القراءة أن يقرأن لهن أرقامهن.

كررت دنيا مناداة الرقم ثانية وثالثة، وعندها قالت امرأة تجلس القرفصاء عند قدميها: «لماذا لا تنادين رقماً آخر إذا كانت صاحبة الرقم سبعة عشر صماء أو غير موجودة؟».

«يجب أن نعطيها فرصة»، قالت دنيا بإصرار. وراحت تنادي الرقم وكأن كلّ شيء هنا يتوقف عليه، وراحت عيناها تتنقلان من وجه بليد إلى وجه آخر. كانت أشبه بمعلّمة في فصل دراسي كبير، رفعت نصف طالباته أيديهن للإجابة على سؤال سهل.

كانت دنيا تنظر بإمعان شديد في بقعة ما، أصبحت فارغة الآن، حيث كانت تملأها امرأة شابّة، لم تستطع أن تمنحها اسماً، لكنها كانت واثقة من أنها تعرفها ـ أم هل كانت تهذي؟

نفد صبر النسوة وبدأن يتململن. نهضت امرأة ضخمة جداً وشقت طريقها إلى الأمام وقالت لدنيا: «لقد ذهبت المرأة التي تحمل الرقم سبعة عشر. لقد رأيتها تذهب في سيارة أجرة. لماذا لا تنادين الرقم التالي؟».

«لا بد أن رقمها ثمانية عشر»، قالت امرأة أخرى ساخرة.

جالت عينا دنيا في المنطقة أمامها، إلى اليسار، ثم إلى اليمين، ثم إلى الوسط، حتى انتهتا أخيراً في المكان الذي كانت تجلس فيه الشابّة المراوغة. وحتى قبل أن تتكلم، عرفت دنيا أنه سؤال غبي، لكنها مع ذلك سألت: «لكن لماذا ذهبت؟».

حصل هرج ومرج. فقد رفعت النسوة اللاتي ينتظرن في العيادة الخارجية أصواتهن متذمرات، ووقفت بعضهن على أقدامهن، وحاولت أخريات تهدئة الأمور، وطلبن منهن الجلوس ثانية. وفي لحظة سادها الهدوء، طلبت إحداهن من امرأة أخرى أن تأتي وتساعدها للإسراع في مناداة الأرقام، بما أن رأس هذه المرأة (وتقصد دنيا) يحلّق في السحاب.

خرجت هيبو، رئيسة الممرضات، برفقة ممرضة أخرى إلى الرواق وتكلمت بسرعة مع دنيا، التي نظرت إليهما في بادئ الأمر دون أن تفهم سبب تصرفها بهذه الطريقة، واعترتها الحيرة، وكان كلّ ما استطاعت أن تقوله: «نعم، أرجوكما».

أخذت الأسئلة تنبض في جبهتها حيث انتفخت عروقها بسرعة، وسرعان ما استعادت هدوءها، وراحت تنظر إلى المريضات وهن يتدافعن، تركل إحداهن الأخرى في محاولة للاقتراب من هيبو والممرضة الأخرى. كانت المرأة الضخمة هي التي تحمل الرقم ثمانية عشر. تمالكت دنيا نفسها لكي لا يدفعها

فضولها لأن تسألها أن تصف لها الشابّة التي تحمل الرقم سبعة عشر. وعندما طلبت الممرضتان اللتان أخذتا مكان دنيا من المرأة الضخمة التوجه إلى المكان المحدد وتنتظر، راحتا تناشدان النساء الهائجات أن يلتزمن الهدوء.

عندما أنهت الممرضتان عملهما، سألت إحداهما الأخرى: «ما خطب دنيا اليوم؟» فقد جلست هناك وحدها وغرقت في أحلام يقظة الظهيرة، ولا تريد أن تكلم أحداً.

كانت في القاعة المجاورة لعيادة كبير أخصائي الولادة ثماني ممرضات: ستّ ممرضات مبتدئات، وممرضتان رئيسيتان، وهما دنيا وهيبو. وكانت كل ممرضتين تتقاسمان طاولة صغيرة واحدة، في حين كان لكل ممرضة من الممرضتين الرئيسيتين طاولة. كنّ يتكلمن وهنّ يسجلن التفاصيل التي تقدمها لهن المريضات، ثم ينسحبن بعد حصولهن على المعلومات المطلوبة. وبعد ملء البطاقة بالمعلومات المطلوبة، كنّ يأخذنها إلى دنيا أو إلى هيبو لتوقع عليها بالأحرف الأولى.

جلست دنيا التي غار خداها وحيدة. كان يبدو أن تغييرات عديدة قد طرأت على جسمها منذ الصباح، مثل امرأة اكتشفت أنها حامل وبدأت تتأقلم مع وضعها الجديد. كانت ساهمة، شاردة، ولم تكن تسمع جيداً أصوات الممرضات الأخريات. كانت تسمع بين الحين والآخر كلمات مألوفة لها بوضوح مثل اسمها، لكنها لم تكن تسمع معظم الأحاديث التي تدور حولها. وكانت الممرضات يتكلمن بصوت خفيض، وكانت حركات أيديهن حادّة ومسعورة على نحو غريب، مع أنهن كن يقمن بعمل من المفترض أن تقوم به خمس عشرة ممرضة.

سألت الممرضات دنيا بلطف عما يشغل بالها، وسألنها إن كان بوسعهن أن يقدمن لها أي مساعدة، لكنها أكدت لهن أن كل شيء على ما يرام، وأنها بخير؛ وعندما كان بعضهن يلححن عليها في السؤال، كانت تخبرهن، وكأنه يحق لهن

أن يعرفن، بأنها تشعر بتوعك طفيف، وهو أمر لا يدعو إلى القلق. صادقة. لم يقلن أكثر من ذلك كي لا يزعجنها. فقد كن يحببنها ويقدّرنها كثيراً.

وبعيداً عن سمعها، توصلت الممرضات إلى أنه لا بد أن تكون لمشكلة دنيا علاقة بأحد أطفالها، أو لأن شعوراً بالإحباط يتملكها لأنها، رغم اقترابها من الخامسة والثلاثين من العمر، ورغم زواجها مرتين، لم تعد توجد لديها فرصة العثور على رجل آخر، بل يتعين عليها أن تربي أطفالها الثلاثة وحدها. وأجمعت الممرضات على أن دنيا تريد أن تعطي الانطباع بأن الاحتفاظ بالسرّ ترف، وهي مستعدة لأن تدفع ثمن ذلك غالياً. وباستثناء هيبو، كانت الممرضات الأخريات يحافظن على مسافة من الاحترام.

اقتربت هيبو وقالت شيئاً لم تسمعه دنيا جيداً. فقد كان من عادة هيبو أن تتكلم بطريقة تآمرية، وكأنها تخطط للإطاحة بدكتاتور أفريقي. أخذت شفتاها الآن ترتعشان، الشفة العليا أولاً، ثم الشفة السفلى، وراحت تحكّهما، الواحدة تلو الأخرى، وكأن حشرة قد لسعتهما.

وبعد قليل، سألتها دنيا أن تكرر ما كانت قد قالته، لأن دنيا تعرف جيداً أنه بوسع عقل هيبو الزئبقي أن يخترع شيئاً جديداً تماماً بدلاً من تكرار ما قالته، بل حتى يمكنها أن ترفض أن تقول شيئاً، وانتهى الأمر.

لفظت هيبو كل حرف بدقة وكأنها تتخلى عن جزء من سريتها، فقالت بتردد: «هل لنسيبة علاقة بما يشغل بالك؟».

«لماذا تشغل بالي؟» سألتها دنيا، وقالت لنفسها إنه من السخف أن تكون ابنتها تسبب لها أيّ قلق.

«إني أسأل فقط»، قالت هيبو بشيء من الخجل.

«لا»، قالت دنيا بحزم.

تجللت عينا هيبو بظلّ بني داكن وهي تفكر بما ستقوله لها، ثم أضافت: «كنت أقصد أن أسأل إن كانت نسيبة على ما يرام؟».

تنهدت دنيا نصف تنهيدة، وانتابها شعور بالقلق وبالانزعاج أيضاً، «على حد علمي، نعم». لكنها لم تكن راضية عن ردّها.

سألتها هيبو: «متى رأيت أو تكلّمت مع نسيبة آخر مرة؟» كانت نبرتها تشي بأهمية سرّ لا يعرفه أحد غيرها.

انزعجت دنيا من السؤال. فقد أصيبت بالذعر عندما فكرت أن هيبو قد تعرف شيئاً عن نسيبة، بينما هي، أمّ الفتاة، لا تعرفه. فقالت: «أخبريني ماذا تعرفين عن أشياء لا أعرفها أنا».

ارتعشت شفتا هيبو ثانية. كان الانزعاج يتراقص على حافتيّ شفتيها. وبعد أن استعادت الثقة في نفسها، قالت: «جاءت نسيبة إلى بيتنا بعد ظهر البارحة، وكانت شاحبة وكأنها مريضة. سألتها عن سبب مرضها، فرفضت أن تقول شيئاً، لكنها قالت بعد ذلك لابنتي إنها ذهبت إلى بنك الدم في منطقتنا وتبرعت بالدم».

«لماذا؟» كان ذلك كل ما تمكنت دنيا من التفكير بقوله. هزّت هيبو رأسها.

تصلّبت قسمات وجه دنيا، وفتحت فمها دون أن تنبس بكلمة واحدة. ثم تذكّرت أنها انزعجت لأن نسيبة كانت قد عادت إلى البيت في وقت متأخر من الليلة الماضية، متعبة. كانت تتثاءب وقالت لأخيها ماتان أن يدعها بسلام.

كانت دنيا على وشك أن تقول شيئاً عندما هبط صمت وجل على القاعة. ومن حركات هيبو، استنتجت أن الدكتور ماير قد وصل أخيراً.

لم يكد الدكتور ماير، كبير أخصائيّي التوليد في مستشفى بينادير للتوليد، يصل إلى الردهة، حتى لاحظ قسمات وجه دنيا. لبث في مكانه وقال لنفسه بعد أن ألقى عليها نظرة ثانية إن ممرضته الرئيسية المفضّلة ليست على طبيعتها. لبث واقفاً في مكانه. كان طويلاً، نحيفاً وخجولاً برادئه الأبيض الذي ينقصه زرّ. وبصمت، لاحظ التغيرات التي طرأت عليها، فظة مثل أمسية من أمسيات المناطق الاستوائية.

استوت دنيا واقفة، وقد أدركت أن الجميع يحدقون فيها. كافحت بابتسامة مصطنعة؛ واستطاعت في نهاية الأمر أن ترسم ابتسامة تظهر فيها نضارتها الأصلية للدكتور ماير. بدا أنه سعيد وكأنه كان متواطئاً في إخراجها. لقد علمته غريزته ألا يسألها عما يشغل بالها اليوم.

حيّا الممرضات الأخريات ذاكراً أسماءهن واحدة واحدة، وقال إنه مستعدّ لمباشرة العمل على الفور. اتجه نحو عيادته، تسير هيبو ودنيا إلى جانبيه، وكانت ممرضة أخرى تسير وراءهم.

كان الدكتور ماير رجلاً شديد التمسك بالعادات والتقاليد. وكان يحب أن يقيم علاقة حميمية مع الطقوس أكثر مما يقيمها مع الناس. وكان سريع الغضب إذا لم تسر الأمور الصغيرة بحسب ما يشتهي، تلك الأمور التي تحدث بشكل متكرر في مكان مثل الصومال. وعندما يغضب بشدة، كان يقع فريسة للاكتئاب. ولكي يضمن ألا ينهار العالم من حوله، كان الدكتور ماير يعتمد على دنيا، التي لم تكن تتمسك بشدة بهذه الطقوس. ولم يكن يتصور أن يعمل في مقديشو إذا لم تكن إلى جانبه؛ فهي التي ساعدته على أن يفهم عيوبه الشخصية، وهي التي علّمته أن يكون رحب الصدر، متسامحاً، سمحاً.

«كم مريضة لدينا اليوم؟» سأل، عندما كانت الممرضة تسلّمه بطاقة المريضة.

كانت تملأ غرفته الصغيرة خمس مريضات، وكان من الواضح أنها لم تعد تتسع لأي شيء. كانت دنيا تقف بعيدة عن الجميع، تدير ظهرها لطاولة مكتبه، بينما كانت هيبو والممرضة المساعدة تقفان حوله، تنصتان باهتمام شديد إلى كلّ كلمة يقولها. وبعد أن أنهى دراسة حمل المرأة، استدار إلى المريضة ليسألها عدداً من الأسئلة، فانتصبت في جلستها لتجيبه عليها، ربما دلالة على الاحترام.

ثم وقع الأمر.

فقد ارتطمت يدها بقنينة تضم أقلام حبر وأقلام رصاص وترمومترات احتياطية، فوقعت على الأرض، وانبعث منها صوت صاخب. انحنت هيبو والممرضة مع دنيا وبدأن يجمعن الأشياء المبعثرة. وعندما انتهين من جمعها، انتحت دنيا جانباً، ولاذت بالصمت، ولم تأتِ بأي حركة.

وبشيء من الاضطراب، استأنف الدكتور ماير طرح أسئلته الروتينية. وثار غضبه عندما اكتشف أن ردود المرأة تأتي بعكس ما دُوِّن في البطاقة، وأراد أن يعرف من استجوبت المريضة ودوّنت المعلومات في البطاقة. فتبين أنها دنيا. مضى الدكتور ماير ليفحص مريضته. وعندما انحنى ليفحصها بدا مستريحاً. كان جسده منحنياً مثل عابد ينحني فوق ضريح. كان للنساء الحوامل ذلك التأثير عليه.

وفي الحال رفع رأسه، وسوّى ظهره. كانت سماعته تتأرجح وترتطم بإبزيم حزام بنطاله. أخرج نظارة القراءة من جيبه، ومدّ يده فناولته الممرضة المساعدة قلم حبر. نظر إلى دنيا ثم إلى المريضة، ثم نقل بصره من المريضة إلى دنيا، وكأنه يتردد من سيخاطب أولاً.

قالت المرأة: «أنا السبب يا دكتور، وليست الممرضة. لقد كذبت عليها».

«أليست هذه هي بطاقتك أيضاً؟».

«هذا صحيح».

انتظر الدكتور ماير المرأة أن تشرح له الأمر.

قالت المرأة: «أعرف أنني مصابة بالسيلان يا دكتور». كان صوتها يشي بأنها ستبكي مع أن عينيها كانتا جافتين، ثم أضافت: «لقد كذبت لأنني لم أتمكن من قول الحقيقة أمام النساء الأخريات في الخارج».

لبث الدكتور ماير صامتاً.

قالت: «لقد أتيت إلى هنا من أجل طفلي يا دكتور».

استعاد الدكتور ماير هدوءه. بدا أن المزاج السيئ لن يفرض نفسه عليه، مع أن نيران الغضب لمعت في عينيه، تلك النيران التي خيّل للممرضات الأخريات أنها ستشعل جسده كله.

«وماذا عن طفلك؟» سأل المريضة.

كان صوت المرأة متصدعاً عندما قالت: «إن زوجي الشرعي هو الذي نقل لي العدوى بالسيلان، يا دكتور. فأنا لم أعرف رجلاً آخر يا دكتور، أقسم لك. لقد صُدمت حتى النخاع عندما اكتشفت البقع غير الصحية على ثيابه الداخلية».

بدت هيبو محرجة وهي تنظر إلى المرأة؛ أما دنيا، فقد غشت وجهها تعابير من اللامبالاة وكأنها تريد أن تقول إن لديها ما يكفيها من هموم؛ وغامت عينا الممرضة المساعدة، وأحس الدكتور ماير بالغضب من نفسه، لأنه لم ير المرأة من قبل.

وقالت: «كما ترى يا دكتور إن زوجي هو الذي يجلب الأشياء إلى بيتنا، الأشياء الجيدة والسيئة معاً. أرجوك ساعدني أنا وطفلي».

هزّ الدكتور ماير رأسه.

«هل سيصاب طفلي بالعمى يا دكتور؟» وأجهشت في البكاء.

أسكتها الدكتور ماير. أسند نظارته في شكل هلال فوق جسر أنفه، وبعد هنيهة من التفكير دوّن على ورقة مطبوع عليها اسم وشعار المستشفى باللغة الصومالية والصينية والعربية والإنكليزية بهذا الترتيب. كتب في الحاشية ملاحظاته ووقّع عليها بالحرف M.

ثم حدث ذلك مرة أخرى.

كانت الجلبة صاخبة هذه المرة. كانت أشبه بارتطام شيء ثقيل على الأرض تهشم على الفور. التفت الجميع، وتركّزت العيون جميعها على دنيا، التي

دلت ابتسامتها العريضة البريئة على أنها هي المذنبة. فقد سقطت ثقّالة ورق زجاجية سميكة، وكأس مليئة بالماء، وأخذ الماء يسيل في كلّ اتجاه مثل نمل يهرب مذعوراً في كل ناحية. وبسرعة أبعدت هيبو والممرضة المساعدة أوراق الدكتور ماير، وساعدتهما دنيا وكأنها لم ترتكب شيئاً. لم تكن عينا الدكتور ماير تشيان بأي انزعاج، فقد كان يعاملها وكأنها فرد من أفراد أسرته. ولم يكن غضبه يكفي لملء كشتبان.

وبعد أن ساعدت الممرضة وهيبو المرأة الحامل على الوقوف على قدميها، وبعد أن أعطاها الدكتور ماير الوصفة، غادرتا الغرفة بهدوء لأنهما كانتا متأكدتين أن الطبيب يريد أن يتكلم مع دنيا على انفراد.

عندما أصبحا وحدهما، قال الدكتور ماير: «دنيا، هل تفضّلين أن تأخذي إجازة اليوم؟».

ارتعشت شفتاها عندما سألته: «لماذا؟».

رفع ماير عينيه، ثم دفع نظارته إلى حيث بدأ خط شعره يخّف. كان يبدو أنه أكبر من سنه الحقيقية، في الخامسة والأربعين، ولم يعد يمتلك أي طاقة. فقد عاد إلى الصومال بعد عشرين سنة من إقامته في الخارج، وخاصة في ألمانيا الغربية حيث درس وتدرّب، وفي أمريكا حيث حصل على درجة الدكتوراه، ثم أدار صيدلية وعيادة خاصتين به، ثم عاد إلى وطنه لكي يقدم خدماته إلى حكومة بلده وشعبه، ولم يقبل أن يتقاضى راتباً، بل رضي بالحصول على شقّة تقع في حي ملائم، ومؤثثة بتواضع. كان صديق بوساسو في طفولته، وكان يقال إن الرجلين قدما شروط الخدمة ذاتها إلى الوزارتين اللتين يعملان فيهما، وهما وزارة الصحة ووزارة التخطيط الاقتصادي.

قالت دنيا: «لماذا يسألني الجميع إن كنت على ما يرام؟».

«عندما يسألك عدد من الأشخاص إن كنت على ما يرام، فربما كان ذلك أسلوباً موارباً لإخبارك أنك لست ما يرام».

فقالت: «لكني على ما يرام».

خلال الثمانية عشر شهراً التي عرف فيها دنيا، لا يتذكر الدكتور ماير أنه شعر بالاستياء ولو لمرة واحدة من أدائها لواجباتها، أو من سلوكها العام. لقد كان يفضّلها على جميع الممرضات الأخريات، وكان على ثقة من أنها تتمتع بإرادة تجعلها تفعل ما يمليه عليها ضميرها. فقد كان بإمكانها أن تعالج الحالات الطارئة بشكل جيد، ومثل هيبو، كانت تعمل بهدوء في حالات العمل الكثيف؛ وكان بوسعه أن يعتمد عليها كي يحافظ على هدوئه ويعمل بمهنية عالية. وسواء اعترف بذلك لنفسه أم لا، فقد كانت لصداقته مع أخ دنيا الأكبر الذي يعيش في روما حالياً، علاقة إيجابية للعمل معها.

قالت له: «كن مرآتي لكي أتغير، وأخبرني بما لا أستطيع أن أراه».

فقال: «إنك سريعة الإثارة اليوم».

«وكيف ترى ذلك؟».

أضاف: «وأشعر وكأنه توجد جروح ناكئة في جسدك كله».

ابتسمت وقالت: «بالعكس، لا أشعر اليوم بأي جرح على الإطلاق».

قال: «سأكون أكثر تحديداً».

لم تكن عيناها تركّزان، وقالت: «هل ستقوم بتحليلي نفسياً؟».

«لماذا لم ترتدي الرداء الرسمي مثلاً؟» لم تكن دنيا في مزاج يجعلها تواجه أحداً، بل انزعجت من زميلاتها. «لكن لماذا لم يخبرني أحد؟».

«هل تحتاجين عادة إلى شخص لكي يخبرك؟».

صمتت دنيا. لم تشأ أن تتحدّث عن حلمها، أو عن لقائها صدفة مع بوساسو الذي أوصلها بسيارته إلى العمل.

من الواضح أن الدكتور ماير يسيء فهم النظرة الساهمة في عينيها. ثم أضاف: «لا أريدك أن تسيئي فهمي بشأن الرداء الرسمي. إني أدرك تماماً طبيعة

الطبقية، بالإضافة إلى السياسة المتعلقة بالفروق بين النساء والرجال في المستشفيات التي يشكل فيها الرداء الرسمي أهمية تراتبية، وخاصة في المستشفيات التي يكون فيها الأطباء جميعهم من الذكور، وجميع الممرضات من الإناث. ألم تكوني تلمّحين إلى هذا الأمر؟».

فكّرت لوهلة وتلألأت عيناها عندما تذكّرت لقائها مع بوساسو، فقالت: «ربما».

«هل نتحدّث عن ذلك الآن أم في وقت آخر؟».

فقالت: «في وقت آخر»، ثم قالت لنفسها مبتسمة: «يوجد متسع من الوقت باتساع العالم، أليس كذلك؟».

«في هذه الحالة، هل نستأنف عملنا؟ وأرجو أن تنتبهي ولا تدعي يدك تُسقِط كل الأشياء في الكون؟».

خرجت دون أن يطلب منها ذلك، وقالت لهيبو وللممرضة المساعدة أن الدكتور ماير يحتاج إلى مساعدة كي يواصل استشاراته الطبية. لكنها لم ترتدي الرداء الرسمي. وأقسمت لنفسها أن يدها لن تُسقط شيئاً بعد الآن. فبعد أن أكدت للدكتور ماير أن كلّ شيء على ما يرام، كان عليها أن تبذل ما بوسعها لتثبت ذلك.

كان عدم التفكير ببوساسو مسؤولية شاقة، بعد أن ذكّرها الدكتور ماير به. ووجدت أنه من شبه المستحيل أيضاً ألا تطرح على نفسها أسئلة تلوم بها نفسها عندما ترى هيبو. وبما أن شيئاً أدّى إلى شيء آخر، فقد تذكرت دنيا المريضة التي تحدثت عن زوجها الذي نقل إليها العدوى بمرض السيلان، الزوج الذي يجلب إلى البيت أشياء جيدة وأشياء سيئة، على حد قول المرأة.

وبإلحاح وعناد، بدأ بوساسو يلوح لها، متخذاً أشكالاً مختلفة، ومتنكراً على نحو غامض في أشكال عديدة. لم تعد يدها ترتعش، وبدأت تعمل إلى جانب الدكتور ماير وزميلاتها ولم تُسقط شيئاً آخر على الأرض، لكنها ظلت مميّزة،

لأنها لم ترتدي ثوبها الرسمي. ولما كانت سريعة الحركة ومفعمة بالحيوية، فقد شبهتها إحدى الممرضات المساعدات بفراشة مُستثارة، تنتقل من زهرة إلى زهرة. وجاء اسم بوساسو على رأس لسانها عندما سألتها إحدى صديقاتها كيف ستعود إلى البيت مساء ذلك اليوم، عندما تنقطع المواصلات العامة. لكنها ما إن لفظت شفتاها المقطع الأول من اسمه، حتى أغلقت فمها على الفور، وسكتت.

واصلت عملها الروتيني: نساء حوامل يستفسرن عن صحة أجنّتهن، فهذه تشكو من الأرق، وتلك تشكو من فقدان الشهية. وكان الدكتور ماير يمعن النظر في البطاقة، ثم في المريضة، مزيناً جبهته بنظارة القراءة كما تزيّن ندبة الصلاة جبين مسلم ورع. وكان يسأل بين الحين والآخر عن حالة السرير إذا حدث طارئ ما. وكان يخلع نظارته وقفازيه حيناً، ويعيدها حيناً آخر، وكانت يداه لزجتين حيناً، وجافتين بسبب غسله ليديه بالصابون وبماء الصنبور المعالجة بمادة قلوية حيناً آخر. كان الدكتور ماير يتهيأ لرؤية مريضة أخرى، وكانت دنيا تتصرف مثل تلميذة هربت من المدرسة، ثم قدم لها المدير نصيحة حكيمة.

ومرة واحدة فقط كانت على وشك أن تُسقط شيئاً، عندما أحست بريح غضبها الحارة تعبر وجهها مثل ظلّ غيمة متنقلة. وكانت ترى ذلك لأن الدكتور ماير كان قد وبّخ مريضة وأصرّ عليها أن تعود في الأسبوع التالي برفقة زوجها أو أمّها أو حماتها، «شخص مسؤول»، على حد قوله. لماذا؟ لأنه تعاد خياطة فرج المرأة بعد كلّ ولادة، وماذا سيستفيد إذا تكلم مع زوجها؟ فقد جاءت المرأة المسكينة من تلقاء نفسها لتستشير الدكتور ماير بسبب المضاعفات التي أحدثتها هذه العملية. كانت في منتصف العشرينات من عمرها، وكانت قد تزوّجت ثلاث مرات، مرّتين إلى الرجل نفسه الذي كان يحب أن تُختن نساؤه وتخاط فروجهن. وقد جعل هذا العمل الهمجي فرج المرأة أشبه بمقلع حجارة متهالك. وبعد أن عبّرت دنيا عن رأيها بصراحة، عدّل الدكتور ماير تعليماته للمرأة وقال لها: «ارجعي في الأسبوع المقبل وحدك».

انتهى الدوام بسرعة، وأصبحت الممرضات وحدهن في القاعة، بعد أن غادر الدكتور ماير وجميع المريضات، ودارت أحاديثهن عن الأمور السيئة التي تجري، وعاد السؤال الفوري الذي يتكرر كل يوم: «كيف سنعود إلى البيت بسبب عدم توفر وسائل نقل؟».

قالت إحدى الممرضات: «لقد أصبحت مقديشو على ما أرى الأمر مدينة تتهيأ لفرض حظر التجول في وقت مبكر من المساء، مع هذا العدد القليل من السيارات في الشوارع، وأنهار من السابلة الذين يغمرون ضفافها، فيُغرقون الطرق الرئيسية أحياناً».

وقالت أخرى: «لا توجد كهرباء، ولا ماء، ولا خبز، ولا صحف».

وقالت ثالثة: «هل تتذكر أيّ منكن عندما كانت تنقطع الكهرباء في مقديشو أياماً عديدة متواصلة؟ كنت قد تخرجت في ذلك الأسبوع من مدرسة التمريض وعُيِّنت هنا، وانقطعت الكهرباء ونحن في منتصف عملية توليد. كنّا ممرضتين فقط، وكنا حديثتي التخرج، ولم يكن هناك طبيب. وكانت معجزة حقاً أن تعيش الأمّ ووليدها لأنني أنا وزميلتي سحبنا الوليد من الطرف الخاطئ».

خلال فترة الصمت التي أعقبت ذلك، أحست دنيا فجأة بأنها تتعاطف مع الصينيين، عندما تذكرت أن جمهورية الصين الشعبية هي التي شيدت مستشفى بنادير للتوليد وقدمته هدية إلى الشعب الصومالي. وكان تواضع الصينيين كحكومة متبرعة مثلاً يحتذى به حقاً، فلم تكن هناك أبهة، ولا أكاليل زهور تقول انظروا كم أننا عظماء. ففي مكان ما في الطابق الأرضي من المستشفى، توجد لوحة متواضعة كُتب عليها اليوم والشهر والسنة التي أُنجز فيها العمل ومن قام بإنجازه. وتلتقي بالأطباء الصينيين الذين قدموا كجزء من الهبة، والذين يقومون بجولاتهم، بأصواتهم الرقيقة، يلهثون وهم يتكلمون اللغة الصومالية، بعبارات متواضعة. وبعكس الأطباء الإيطاليين والهولنديين الذين أوفدتهم حكوماتهم كجزء من برنامج مساعدات باهظ الثمن قدمته المجموعة الأوروبية،

لم تكن لدى الصينيين سيارات. بل كانوا يصلون إلى العمل في عربة فان، ثم يعودون بها إلى مجمّعهم في المساء. وبخلاف الأطباء الآخرين (بمن فيهم الدكتور ماير) الذين كانوا يقودون سياراتهم الخاصة، كان الصينيون يوصلون الممرضات اللاتي يعملن في النوبات التي يعملون فيها بسياراتهم. لذلك اقترحت دنيا أن تجرّب الممرضات الأخريات حظهن مع الصينيين.

قالت ممرضة رابعة: «لا يمكن وصف عدم توفر البنزين وانقطاع الكهرباء أو عدم توفر المواصلات العامة إلا بأنه لعنة مزدوجة على المرأة».

وسألت الممرضة التي تكلّمت أولاً: «ماذا تقصدين؟».

«من ناحية، تمنح هذه الأشياء مزايا لا حصر لها للرجال الذين يضمرون نيات شرّيرة لنا، ومن الناحية الأخرى، إذا رفضت المرأة إغراء توصيلة بالسيارة، فإنها تعرّض نفسها لخطر الاغتصاب في زقاق معتم».

ارتفع حاجب دنيا الأيسر قليلاً ومال رأسها نحو هيبو التي أرادت أن تهمس شيئاً في أذن صديقتها، وسألتها: «هل ترغبين في أن يوصلك زوجي إلى البيت؟». فعندما تنقطع الكهرباء في مدينة مقديشو، كانت هيبو وزوجها يشغّلان مولّداً كهربائياً، ذلك الجهاز الخفيف والسهل الاستخدام الذي أصبح الآن دليلاً على المكانة الاجتماعية، والذي يساعد أيضًا في إبعاد اللصوص.

«هل تعرضين عليّ توصيلة؟» سألتها دنيا، فهزت هيبو رأسها.

«في هذه الحالة، شكراً»، قالت دنيا.

سمعت الممرضات والطالبات الممرضات الأخريات حديث دنيا وهيبو. ثم تكلمت إحدى الممرضات اللاتي يقمن في مكان قريب من المستشفى. في البداية، لم توجّه كلامها لأحد بالتحديد، ثم توجهت إلى الممرضات جميعهن ما عدا هيبو التي استثنتها عن قصد، قائلة إن جدتها ستكون في غاية السعادة إن هن أتين وأقمن معهما. فقالت: «إني أعرض هذه الضيافة على جميع اللاتي يقمن في مكان بعيد ولا يرغبن في الذهاب إلى البيت مشياً على الأقدام».

قبلت ثلاث ممرضات وطالبة عرضها بامتنان.

«وماذا عنك يا دنيا؟» سألتها المضيفة السعيدة.

«لا، أشكرك، أريد أن أمشي»، قالت دنيا بسرعة، ربما لأن جزءاً من أفكارها كان مشغولاً بذكريات لقائها مع بوساسو.

قالت ممرضتان إنهما ستجربان حظهما مع الأطباء الصينيين. هل ستنضم دنيا إليهما؟

«هذا لطف منكما، لكني أفضّل أن أمشي»، قالت مصرّة.

عندما ذهبت جميع الممرضات، ارتدت دنيا رداءها الرسمي. لم تعرف هي نفسها لماذا فعلت ذلك.

كانت الساعة تقارب الخامسة عندما خرجت من باب المستشفى. كانت أول من وصل إلى العيادة صباح اليوم، ومن الملائم أن تكون آخر من يغادر، قالت لنفسها. إلا أن سؤالاً عنيداً مثل أفكارها راح يراودها عن بوساسو: لماذا قررت أن ترتدي رداءها الرسمي وهي تغادر المستشفى؟ لم تكن دنيا بحاجة لأن يذكّرها أحد بأن الرجال الأفريقيين ينظرون إلى الممرضات في الغالب على أنهن فتيات سهلات المنال، وأنهن فتيات مسليات وطريفات يدعين إلى حفلات عربدة جماعية. أم أنها ظنت بسذاجة أن الرجال لن يضايقوا امرأة ترتدي زيّها في العمل؟

لم تكد تتجاوز ثلاثمائة متر وراء جدار المستشفى حتى سمعت صوت رجل يقود سيارة رياضية يقول لها: «أظن أننا ذاهبان في ذات الاتجاه».

من حسن حظها أن عدداً آخر من الناس كانوا متواجدين في المكان، ولم تكن في خطر أن يتعرض لها أحد. لكنها شعرت بالغضب، وأرادت أن تقول: «وأين سيكون ذلك؟» لكنها فضلت ألا تهبط إلى هذا المستوى من التفكير.

سأل: «لماذا لا تأتين معي؟».

«لماذا؟» سألت، واعتراها فضول بأن تسمع جوابه.

«لأني أريد أن أصنع لك معروفاً».

«لماذا؟».

«سأوصلك ثم أقدم لك هدايا أخرى».

«لكني لم أطلب منك أن تصنع لي معروفاً، أو توصلني أو أن تكافئني بالهدايا».

«ستكونين حمقاء إذا لم تفعلي ذلك»، قال.

«دعني أكن حمقاء»، قالت بصوت عدائي، فابتعد بسيارته.

كانت واحدة من عدد كبير من المشاة، تتجاوز الطرق، تتحاشى المنعطفات حيث يفضل السائقون أن يركنوا سياراتهم، يكمنون للنساء ويغتصبونهن.

ثم وجدت دنيا نفسها تحدّق في دوائر ونقاط بارزة، مثل مصابيح ملوّنة صغيرة تطلق نورها. هل كانت تتخيل أنها ترى رؤى ما؟ وقبل أن تتمكن من الإجابة، كان بوساسو هناك، يناديها باسمها ويفتح لها باب سيارة الأجرة. في بادئ الأمر لم تلحظ شيئاً، فقد كان جزء منها مقتنعاً بأنها تتخيّل كل ذلك، تستحضر هذه الرؤيا من رغبتها الجامحة بأن تكون مع بوساسو. ثم خرج الرجل من السيارة وانحنى لها. وقبل أن تصعد إلى السيارة، أحسّت بصلابة السيارة براحتيّ يديها المفتوحتين، تهيئ عقلها للحظة في المستقبل عندما تسأل نفسها إن كان بوساسو قد جاء من أجلها وإن كانت قد ذهبت معه حقاً. إن عقل الإنسان يعمل بشكل غريب. صعدت إلى السيارة.

قال: «كنت ماراً بالسيارة من هنا ورأيتك». كانت ترغب في أن تطرد أفكارها الغاضبة كما تطرد الحشرات في ساعات المساء المبكرة. سألته: «لماذا تكذب عليّ يا بوساسو؟».

أخذ يقود السيارة بصمت وبدقة شديدة، مثل مدرب سواقة يقدم مثالاً

لتلميذته. توقفت ابتسامة منه، لعلها كانت موجهة إليها، لكنها خفتت قبل أن تكتمل، ربما بسبب سؤالها غير المتوقّع، ثم أجاب: «لماذا تقولين إني أكذب عليك؟».

تلاشت دنيا في طبقة من الصمت العميق الذي غمرها لفترة طويلة. وعندما طفت إلى السطح ثانية قالت: «لماذا تعرض عليّ أن توصلني يا بوساسو؟ أرجوك، أصدقني القول».

«لماذا تقبلين أن أوصلك؟» سألها.

«إنه سؤال غبي، بما أن عرضك عليّ يسبق قبولي أو رفضي. إن قبولي هديتك بتوصيلي هو بحد ذاته هدية. لذلك هل لي أن أسألك الآن لماذا تقبل هديتي؟».

«لماذا ترددين بقبول أشياء من الآخرين؟».

«لأن السخاء الذي يقدم دون أن يطلبه أحد يجعل المرء يشعر بالامتنان. إنك تعرف هذه الأمور أكثر مني، لكننا ألم نفقد، نحن في العالم الثالث، كرامتنا في الاعتماد على ذاتنا وكبريائنا بسبب ما يسمّى بالمعونات التي نتلقاها دون تردد من الدول التي تدعى دول العالم الأول؟».

وأخيراً، ارتسمت على وجهه ابتسامة بسرعة بياض بيضة تتحرك، وكان كلّ ما قاله: «إني أشعر بالانجذاب إليك».

لم تدرك أنهما وصلا أمام بيتها إلا عندما ركن سيارته إلى جانب الطريق.

كيف عرف أين تسكن؟ لم تدعه للدخول إلى بيتها، ولم تقترح أن يلتقيا ثانية. قالت لنفسها إن القصص تلاحق مستمعيها إلى مخابئهم. لقد أصبح بوساسو قصتها.

«شكرا لك»، قالت.

أشعل المصباحين الأماميين إلى أقصى حد، فجذب عثّ بداية المساء الذي

بدأ يتراقص أمام الضوء بشكل مسعور، وراحت تلقي بنفسها بهياج مجنون أمامهما.

«تصبحين على خير»، قال، وعاد إلى الوراء بسيارته وغادر.

لم تلوّح له مودعة.

مقديشو (وكالة الأنباء الوطنية الصومالية، الخميس)

رفض أكثر من اثني عشر بلداً من بلدان العالم الثالث قبول منتجات الألبان التي قدمتها الجماعة الأوروبية كجزء من هبة إنمائية. وقد أعيدت هذه المنتجات، التي هي عبارة عن زبدة وحليب، إلى الدولة المانحة، لأنه يُشك في أنها ملوثة بإشعاعات نووية نتيجة الحادث الذي وقع في المنشأة النووية في تشيرنوبل. وانضمت جمهورية الصومال الديمقراطية إلى قائمة البلدان التي أعادت هذه المنتجات. إلا أن وزراء المجموعة الأوروبية كرّروا أن مستوى النشاط الإشعاعي في منتجات الألبان هذه منخفض للغاية ولا يسبب قلقاً أو خطراً على الحياة.

[3]

وفيه تتناول دنيا وجبة الطعام التي أعدّتها ابنتها نسيبة وهما تتذكران. تتذكّر الفتاة الشابة عندما كانت صغيرة، قبل أن تتزوج دنيا طارق، زوجها السابق؛ وتحكي دنيا عن زواجها من والد ابنتها الصغيرة.

يتردد صدى خفيف من صوت بوساسو في أذني دنيا التي تدفع الباب الأمامي وتفتحه. في تلك اللحظة يعود التيار الكهربائي فيسري في جسدها تيار من البهجة. لكنها تقف عند عتبة البيت، حذرة مثل عابر سبيل على وشك أن يجتاز طريقاً خطرة. ثم سمعت صوت الموسيقى يرتفع ويزداد صخباً بعد بداية مترددة. لا بد أن نسيبة في البيت. إذ إن رائحة الثوم المنبعثة من المطبخ أكّدت لها أن ابنتها هناك فعلاً، منهمكة في طهو الطعام.

في اندفاعها الحماسي، أخرجت دنيا إحدى قدميها من الحذاء، مما جعلها تسير بطريقة عرجاء مثل ضبع ساقاه الخلفيتان أقصر من ساقيه الأماميتين. أدارت قرص جهاز التسجيل وأطفأته، واثقة من أن السكون سيجعل نسيبة تهرع فوراً إلى الغرفة.

جلست، تنتظرها.

اندفعت نسيبة، التي بدا وكأنها مصابة بفقر الدم لشدة نحافتها، كما قالت دنيا في نفسها، وكانت مستعدة لبدء شجار مع أخيها التوأم اعتقاداً منها أنه هو الذي أطفأ جهاز التسجيل. لكن النظرة في عينيها رقّت، وابتسمت ابتسامة عريضة

عندما رأت أن أمّها هي التي فعلت ذلك. كانت نسيبة ترتدي ثوباً فضفاضاً، واسعاً، يشبه الكيمونو. ورأت دنيا انحناءات نهديها وبطنها.

«إذن هذا أنتِ!» قالت الصبيّة.

افترّ وجه دنيا عن ابتسامة واسعة.

توجهت نسيبة إلى جهاز التسجيل لتدير القرص بعد أن عاد التيار الكهربائي. ثم أعادت الأسطوانة إلى داخل غلافها. كانت دنيا تعرف جيداً أن ابنتها تحرص على الحفاظ على الأشياء التي اشترتها من مدّخراتها، مثلما يحافظ أخوها التوأم على دراجته التي اشتراها ويفتخر بها كثيراً.

وكانت المرأتان تطلقان على الغرفة التي تجلسان فيها وتتقاسمانها اسم «غرفة النساء». كان فيها سريران لهما إطاران معدنيان كبيران بنوابض. وكان سرير نسيبة هو الأكبر ويقبع بجانب النافذة، وقد ألقي عليه مشط مسنّن، ووضعت تحته حقيبة تُحمل على الكتف كتب عليها اسم شركة الطيران الصومالية ورسم عليها شعارها. أما سرير دنيا، القريب إلى الباب، فكان مرتباً وقد مدّ عليه شرشف أبيض؛ ووضع تحته سرير قابل للطي تنام عليه ياري، ابنتها الأصغر، عندما تأتي لتمضي عطلة نهاية الأسبوع.

وكان لدى ماتان مفتاح الغرفة الأخرى، المركّب عليها قفل من ماركة يال. أما باب غرفة النساء فعليه قفل رخيص من النوع الذي يستطيع أي لصّ أن يفتحه بدبوس شعر؛ فقد كانت لنسيبة عادة لا تغتفر وهي إضاعة المفاتيح، فتعبت دنيا وملّت من كثرة تغيير الأقفال. لذلك، وضعت جميع أغراض الأسرة الثمينة ـ من وثائق ونقود ومجوهرات ـ في غرفة الصبي المجهزة بقفل يُفتح بأرقام سرية. لكن نسيبة لم تكن تدع جهاز التسجيل يغيب عن عينيها، ولم تكن تسمح بأن يمضي ليلة واحدة في غرفة أخيها.

راحت دنيا ونسيبة تحدّق إحداهما في وجه الأخرى مثل طفلين يتباريان من منهما يتمتع بإرادة أقوى. وشعرت دنيا أن لعينيّ ابنتها تأثير منوم مغناطيسي،

وتستطيعان إثارة الاضطراب والتوتر فيها. وتساءلت إن كانت قوة (بورتشي) لديها هي الأقوى، وبورتشي هي الكلمة الصوفية للدلالة على أن الشخص يتمتع بقوة مهيمنة على الشخص الآخر، حتى لو كانت قوة يمارسها طفل على شخص بالغ، أو ابن على أبيه أو أمه، أو زوجة على زوجها. في هذه المباراة، كانت قوة البورتشي لدى نسيبة أقوى مما هي لدى أمها.

هزّت نسيبة رأسها وأبعدت خصلات شعرها عن وجهها كما تبعد الفرس عرفها من مقدمة وجهها، فارتطمت الخرزات الملوّنة التي تضفر بها شعرها، وأصدرت صوتاً.

«هل تناولت طعامك يا أمي؟» سألتها نسيبة.

«لا، لم آكل بعد».

قالت نسيبة: «أراهن أنك لم تأكلي شيئاً طوال اليوم».

لم تتذكر دنيا شيئاً سوى أنها رأت بوساسو. لم يكن شرود دنيا شيئاً جيداً، وسألتها: «ماذا طهوت لنا؟».

فقالت نسيبة: «كبدة في صلصة الثوم، وبطاطا مشوية، ورزّ وسلطة. وأعدّ الآن حليباً مغلياً فيه قليل من القرفة والزنجبيل».

من أين أتيت بكل هذه الأطعمة؟ إذ لا تتوفر أي من هذه المواد في الأسواق المحلية. وعندما قررت أن تسألها هذا السؤال لاحقاً، قالت دنيا: «أحبّ أن أتناول الطعام معك يا حبيبتي».

لكن نسيبة اندفعت خارجة من الغرفة وهي تقول: «أرجو ألا أكون قد أحرقت الرزّ».

بعد بضع دقائق، عادت نسيبة تحمل صينية متوسطة الحجم عليها أطباق من الرزّ والبطاطا المشوية والكبدة مع كوبين من الحليب الدافئ المحلّى بالسكر. مدّت دنيا حصيرة على الأرض، في الحيّز الفاصل بين مكان الجلوس ومكان

النوم. (منذ عدة سنوات، عندما كان طارق يشغل الغرفة، أقام حاجزاً من الآجر مرتفعاً بعض الشيء ليفصل بين المكان الذي يوجد فيه السرير والمكان الذي توجد فيه الكراسي ذات المسند، والمنضدة الواطئة المكسوة بالزجاج والطاولة التي يكتب عليها). لاحظت نسيبة أنّ أمّها بدّلت ثيابها وارتدت رداء، وألقت ثياب التمريض على السرير.

تناولتا الطعام بصمت. كانت دنيا تستخدم أصابعها في الأكل، بينما كانت نسيبة تستخدم شوكة وسكيناً.

ثم سألتها دنيا: «من أين حصلت على كلّ هذا الطعام؟».

قالت نسيبة بطريقة مستفزة: «أحدهم قدمه لي».

«من؟».

كانت الابنة وأمّها معتادتين على أسلوب كل منهما. وإذا كان ثمة شيء لا تستطيع دنيا أن تحتمله، فهو أن يجلب أطفالها إلى البيت هدايا أو طعاماً غير مسموح به، أو نقوداً، أعطاه لهم العمّ فلان أو العمّة فلانة. كانت تصيح: «هل تحاولون إحراجي؟ ألا أعطيكم كلّ ما تحتاجونه؟ ألا أعطيكم ما يكفي؟ إذا كنتم بحاجة إلى المزيد، فلم لا تطلبون مني؟». وعندما كان ولداها التوأمان صغيرين، كان الصبي، لا نسيبة، هو الذي يعود محمّلاً بما كانت دنيا ترتاب في أنها هدايا ونقود لم تُجلب بطريقة شريفة، وكان يردّ: «لكنه دسّها في جيبي؛ لم أطلبها منه، أعطاني إياها، مطوية، من راحة يده المتعرّقة ـ العمّ فلان. ماذا كان بوسعي أن أفعل؟».

كان ينتاب دنيا شعور بالضيق عندما تأكل ما يُعرف بين أفراد أسرتها بـ «طعام الجيف»، وهو مصطلح سكّته لأنها كانت تردد دائماً على مسامع أولادها أنهم لا يستطيعون أن يتناولوا طعاماً يُقدم لهم هدية إلا بعد أن تموت، هي أمّهم، لا قبل ذلك. لكن من أين أحضرت نسيبة هذا الطعام؟

ثق بقدرة نسيبة على تغيير الموضوع لتحاشي الإجابة على سؤالها، وثق أيضاً بأنها تستطيع أن تفلت من الإجابة عن سؤالها.

قالت: «كنت أفكّر يا أمي بأننا يجب أن نجلب لك بعض الثياب الجديدة».

وثق بأن دنيا ستقع في الفخّ الذي نصبته لها ابنتها. فقالت: «وما المشكلة في الثياب المتوفرة لديّ؟». لكنها سبقت نسيبة خطوة، وفكّرت بيوم في المستقبل عندما ستحتاج إلى رداء جديد ترتديه خارج البيت، إذا دعاها بوساسو إلى مكان ما.

«إنها ليست جيدة». ولإثبات ذلك أشارت نسيبة إلى بقعة بنية في ثوب دنيا، لطخة تشبه البقعة التي قد تراها على ثوب أمّ ترضع طفلها.

كانت دنيا في مزاج مشاكس، فقالت: «ومن يهتمّ بذلك؟».

عادتا تتناولان طعامهما. قالت نسيبة: «عندما ترتدين ثوب الخروج في المرة القادمة، أقترح أن تتفحصي نفسك جيداً. لا نريد أن ينظر أقاربنا المحتملين في عينيك مباشرة».

«ماذا تقصدين بأقارب محتملين؟ من هم؟».

«أتقصدين أنك لا تعرفين؟».

فقالت دنيا محتارة إنها لا تعرف.

«لا يمكنني أن أصدق. أتقصدين أنك لا تعرفين ماذا ينوي ابنك أن يفعل؟».

«ماذا ينوي أن يفعل؟».

كانت نسيبة تستمتع بإطالة رواية قصتها المثيرة لكي لا تعود إلى موضوع الطعام. فقالت: «توجد لدى ماتان صديقة، معلّمة رياضيات، أصغر منك بثلاث سنوات يا أمي، ولم تتزوج من قبل. يقول الناس إن رجل أعمال غنياً يرعاها، ويدفع إيجار شقّتها المؤثّثة جيداً كما قدم لها سيارة صغيرة. أتقصدين أنك لا تعرفين؟».

«وكيف عرفت؟».

«ستفاجئين بالأشياء التي أعرفها لكنني لم أخبر أحداً عنها»، قالت نسيبة وكأنها تقول أمراً واقعاً.

«مثل أنه توجد لابني امرأة صديقة؟».

«إذا لم تصدقيني فاسأليه عندما يعود الليلة».

لم تلحّ دنيا لمتابعة الأمر؛ ووجدت نسيبة متعة في تحوير نصف الحقائق وتنميقها بخيالها، محوّلة كلّ حكاية إلى قصّة تريد أن تسمعها. ثم سألتها دنيا: «لماذا تبرّعت بالدم ولا يوجد لديك الكثير منه؟».

فوجئت بالسؤال، ارتبكت نسيبة في إيجاد كلمات لتجيبها. تنهّدت، ثم أجابتها: «شعرت بالرغبة في التبرع بالدم».

«ألا يوجد سبب آخر؟».

«كان بنك الدم بحاجة إليه، وبما أني كنت في مزاج يدعوني للقيام بذلك، فقد شعرت بالرغبة في أن أتبرّع بقليل من دمي»، توقّفت قليلاً ثم أردفت: «هل يوجد قانون في هذه الأسرة يمنع أفرادها من التبرّع بدم سليم جيد عندما يحتاج إليه الآخرون؟».

بدأ صبر دنيا ينفد. التفتت ببطء نحو نسيبة وقالت: «سأسألك سؤالين وألحّ على أن اسمع إجابات صريحة عليهما. إني أعني ذلك. لا تغيّري الموضوع، وأرجوك لا تلفي وتدوري وتعطيني إجابات طويلة. من أين جئت بهذا الطعام؟».

«أعطاني إياه العمّ طارق».

«لماذا أعطاك إياه؟».

«يوجد طعام كثير في بَرّاده الضخم. كان سيتخلص من نصف طنّ من الطعام بسبب انقطاع التيار الكهربائي مؤخراً».

«ولماذا تبرّعت بدم لا يوجد لديك الكثير منه؟».

«لا يمكنني إلا أن أكرّر الرد الذي قلته لك».

عادت دنيا تشعر بالضيق. لم يعد لأي منهما شهية في تناول الطعام الآن. كوّمت نسيبة الصحون، وتركت لدنيا مهمة جمع حبات الرزّ من فوق الحصيرة. غادرت نسيبة الغرفة، آخذة معها بعض التوّتر الذي نشأ بينهما.

دخل يعسوب إلى الغرفة وراح يطير بجسمه الرشيق وبحركته الأنيقة. تسمرت دنيا في مكانها وراحت تراقبه. خرج اليعسوب من النافذة قبل أن تعود الشابّة إلى الغرفة.

غيّرت نسيبة الموضوع مرة أخرى. فقد كان لديها أسلوب في مفاجأة أمّها بأشياء جديدة لا ريب أنها تمتلك قدرة السيطرة عليها. وبرغبة منها، بدا أن دنيا ستفقد سيطرتها عليها، بدافع من أمومتها.

«كما ترين يا أمي، لا نعرف نحن أطفالك سوى القليل عن ماضيك، وأنت لا تكادين تعرفين شيئاً عن حاضرنا. ألا تظنين أنه آن الأوان لكي يتعرف أحدنا على الآخر بشكل أفضل؟ تعالي معي ذات يوم لنسبح في النادي الرياضي لتتعرفي على صديقاتي؛ ويمكنك أن تمتطي دراجة ماتان، اطلبي منه أن يعلّمك، وأنا سأعلّمك السباحة. واسألي ماتان أن يحدثك عن صديقته التي لا أعرف اسمها».

ابتسمت دنيا ابتسامة واهية، وحدث اضطراب داخل رأسها، وراحت الضوضاء تضغط على دماغها. حاولت أن تتذكر الاسم الضبابي لوجه الشابة التي رأتها في العيادة، لكنها لم تستطع.

بدأت نسيبة تقول: «مثال على ذلك أنني التقيت بطارق اليوم. تحدثت معه طويلاً، مع أني أكره فكرة أنه كان زوج أمّي. لكن ماذا أعرف عنه عندما تزوّجتما، أو حتى قبل ذلك عندما كنت تستأجرين شقة عنده؟ لا أعرف شيئاً.

أريد أن نتحدّث عن هذه الأمور ـ كيف كنتِ معه، كيف كان ماتان معه. لكي نعرف حقيقة الأمور فقط، إذا فهمت قصدي».

«كيف حال طارق؟».

«في أحسن حال، إنه يبدو أصغر سناً بعشر سنوات»، قالت نسيبة.

«هذا جيد»، قالت بلطف.

«إنه يعمل في الصحافة. هل رأيت مقالته في صحيفة اليوم؟».

لم ترها دنيا.

«وهو يلتقي بامرأة ويقيم معها علاقة جدّية»، أضافت نسيبة.

ماتان على علاقة بامرأة تكبره في العمر؛ وزوجي السابق طارق، على علاقة جدّية مع امرأة. وماذا عني؟ من أرى؟

ذكّرت دنيا نفسها بأن تتحاشى الفخاخ التي تنصبها لها نسيبة.

«كيف كان طارق يا أمي؟».

لم تحبّ دنيا ما تذكّرته. مجالس الشراب والسكر، الأيام الكئيبة. تذكّرت تلك الليلة الحاسمة التي دخلت فيها إلى الغرفة عندما كان يملأ كاساً من الويسكي له ولماتان الصغير، الذي لم يكن قد تجاوز الثامنة من عمره آنذاك. لم يكد ماتان يرشف رشفة عندما دخلت دنيا. يا إلهي، لقد فقدت صوابها، واستشاطت غضباً، وطردت طارق من البيت.

«حدثيني يا أمّي. حدثيني عن طارق».

بدا لدنيا الآن أن من الغريب حقاً أنها لم تحدّث أطفالها عن والد أختهم الشقيقة على الإطلاق. لذلك وافقت على أن تخبر نسيبة قليلاً عنه. أخذت تتكلم بهدوء في البداية، ثم بدأت العقد التي كانت تمنعها من إخبارها تتفكك وتنحل. «كان طارق رائعاً مع أخيك التوأم، وليس معك أنت. لم تكونا على علاقة طيبة على الإطلاق. كان يجد أنك كثيرة الطلبات، طفلة أنانية. كان

صحافياً يكتب عموداً يومياً في الصحيفة، ويعمل من البيت، ولم يكن يغادر غرفته طوال النهار إلا في أوقات قليلة، كان يكتب ويكتب. ولأنه كان ينشد الكمال، كان يقدّم مقالاته في الدقيقة الأخيرة. وعندما كان يكتب، كان يشرب كثيراً، ويأكل قليلاً أو لم يكن يأكل شيئاً على الإطلاق؛ كان الشراب يمدّه بالطاقة، سبباً ليمارس نوعاً من قهر الذات؛ كانت ترتسم على وجهه علامات الألم عندما يكتب؛ وكانت كلّ كلمة تترك آثارها في مكان ما في جسده».

«ثم ماذا حدث؟» سألتها نسيبة.

«كنت أحرص على الاهتمام به ورعايته»، واصلت دنيا، «لأنه كان يعامل ماتان بشكل رائع، كان بمثابة أب له». كنت أطهو كمية كبيرة من الطعام وأدعوه إلى بيتنا. كان يقبل الطعام، لكنه يوضح أنه يفضل أن يتناول طعامه وحده، «مثل كلب وعظمته» على حد تعبيره. «كان يتمتع بحس من الفكاهة، وقدرة غريبة على السخرية من نفسه، ولا يحب الكثير من الصوماليين أن يفعلوا ذلك».

«لا أتذكّر أياً من ذلك»، قالت نسيبة بأسف.

عادت دنيا إلى موضوعها وقالت: «كنت أعمل في نوبة ليلية ذات ليلة، ولأنني طلبت منه ذلك، كان طارق يحاول أن يضعك في السرير. كنت تغضبين لمجرد الفكرة بأنه يلمسك، كنت تشتمينه وتطلقين عليه كل أنواع السباب والأوصاف الشريرة، وخاصة تلك التي لم يكن يحبها وهي: «سكير». كان من الواضح أنك كنت تكرهينه، تكرهينه إلى درجة أنك كنت تستيقظين إذا ما دخل الغرفة التي كنت تنامين فيها، وكأنك كنت تشمين رائحته. كانت كراهيتك له مرضية».

قالت نسيبة: «يجب أن أعتذر له ذات يوم».

«ولكي يدخل السرور إلى نفسك، بدأ طارق يخفف من شرابه»، قالت دنيا، «وأحضر فتاتين من عمرك، ابنتا أخته، لتلعبا معك. كان يفعل كلّ ذلك بصبر أبوي، ولأنه كان مولعاً بك. كان سعيداً لأنك صادقت ابنتي أخته».

«وماذا عن ماتان؟».

«لم أكن أرى ابني أكثر سعادة منه عندما يكون في رفقة طارق. كان يقوم بأعمال من أجله، يسلّم نسخة متأخرة من الشخص الذي يعتبره قدوة إلى المحرّر شخصياً. وأصبح طارق يعتمد على ماتان كثيراً إلى درجة أنه أصبح يأتمنه على رسائله الشخصية».

«ماذا تقصدين؟».

«كانت لدى طارق صديقة يعرفها منذ سنوات، وكان شديد الصلة بها. وربما لأن ماتان لم يكن يحبّ تلك المرأة، فقد قرّر أن ينقل لها أخباراً زائفة عن أماكن ومواعيد لقاءاتهما عندما كان طارق يطلب منه أن يسلم لها رسائله. حدث ذلك عدّة مرات، ولم يشك أي منهما بما كان يفعله ماتان. وعندما أدركا خدعه وألعابه، كان إصلاح الأمور قد تأخر كثيراً».

«كم كان ذلك عملاً شرّيراً من أخي».

«على أية حال»، توقفت دنيا، ثم تابعت: «خلال تلك الفترة، عدت إلى البيت ذات مساء بشكل غير متوقع، بعد أن بدّلت نوبتي مع ممرضة أخرى، لا أتذكّر الآن لماذا فعلت ذلك. كنتِ نائمة في السرير، خداك ملطخان بدموع جفت عليهما. كنت وحدك في السرير الذي كنا ننام عليه نحن الثلاثة. وأين كان ماتان؟ كان الضوء في غرفة طارق (الغرفة التي نحن فيها الآن) مناراً وبابها موارباً. ألقيت تحية من الفناء واعتذرت لأنني أزعجته، لكنه هل رأى ابني؟ قال: «إنه نائم هنا، على سريري». تحدثنا قليلاً ثم ذهبت لأحضر ماتان. حسناً، لا تكون الأشياء سهلة عندما تلد الحمير عجولاً، كما يقول الصوماليون».

«أعرف»، قالت نسيبة بحكمة.

بنظرة متوتّرة، سألتها دنيا: «هل ترين هذا الحاجز من الآجر؟ تعثّرت فيه وسقطت إلى الأمام، وكادت أسناني تسقط عندما أصيب رأسي بعمود السرير. كلّ ذلك لأنني لم أنتبه للآجر. كنت أتألم ألماً مبرحاً».

«ماذا فعلت آنئذ؟».

ضحكت دنيا ضحكة خفيفة، وقالت: «انهضت لأحضر ماتان عندما لم يعد إحساسي بالدوار يؤثر على ضعف رؤيتي. ثم إحزري ماذا حدث؟ عندما انحنيت لأحمله من السرير، جعلت رائحة بول ماتان رأسي يدور على نحو مخجل، سميها إثماً، أو أي شيء تريدين».

رفت ابتسامة على شفتي نسيبة، وقالت: «وبما أن ماتان قد بلّل فراشه، قرّرت أنت وطارق أن تشاركاني فراشي الذي لم أتبول فيه. وكانت النتيجة أن جثة الشخص الثقيل النوم، الذي هو أنا، قد نُقلت إلى الفراش الذي أفرغ أخوها فيه كمية السائل الذي تناوله أثناء النهار».

«كيف عرفت؟».

«لأني أتذكّر أنني استيقظت في سرير الرجل الذي كنت أكرهه»، قالت نسيبة.

«أتتذكّرين ذلك؟».

«نعم».

«لكنك لم تذكري ذلك أبداً».

«هناك مليون شيء لم أحدّث عنها أي مخلوق».

فقالت دنيا: «كيف يمكنك أن تتذكّري ذلك حتى الآن؟».

«لسبب واحد وهو أني كنت أكره طارق. ولسبب آخر، كان أخي هو الذي تبوّل في الفراش، لا أنا. فبول الشخص الآخر يختلف عن بول المرء دائماً، لكن هذا شيء جانبي. استيقظت. لم أكن متأكّدة من أنك ترغبين في سماع هذا».

استوت دنيا واقفة، متحفزة، وقالت: «ماذا؟»

«حسناً، سمعت أصواتكما، صوتك وصوت طارق وأنتما تتهامسان

بشهوانية. اقتربت أكثر لأتنصت، ثم رحت أراقبكما. رأيت كلّ شيء من خلال ثقب المفتاح، وسمعت كلّ شيء، كلّ آهة، كلّ كلمة لا وكلّ كلمة نعم».

«كلّ شيء؟».

هزّت نسيبة رأسها.

كانت هناك نبرة مرح في صوت دنيا، عندما قالت: «إن كنت قد رأيت وسمعت كلّ شيء، فما الفائدة من أن أخبرك بأيّ شيء؟ ربما كنت تتذكّرين أشياء أكثر مما أتذكر أنا وتعرفين أكثر مما أعرف».

هزّت نسيبة رأسها. انحنت إلى الأمام، وسألت: «كيف أصبحتِ مستأجرة عند طارق في المقام الأول؟».

لم تعد دنيا في مزاج يجعلها تحكي قصصاً، لكنها كانت تعرف أن نسيبة لن تتركها بسلام. لذلك قالت: «إحداهن في الحيّ، امرأة عجوز، ضلّلتني». بدت ضجرة ومتعبة.

«لم أفهم تماماً»، تملكت نسيبة رغبة في أن تسمع المزيد.

«إلى أن رآني طارق وسألته إن كانت عنده غرفة للإيجار، ولم تكن فكرة الإيجار قد خطرت بباله. لكنني عندما أصرّيت على أن إحدى الجارات كانت قد ذكرت أن لديه غرفة للإيجار، اضطرب في بادئ الأمر، وشعر بالإهانة قليلاً. لكن سوء الفهم سرعان ما زال واستدرت لأغادر. عندها غيّر رأيه».

«لماذا؟».

«لم أسأله على الإطلاق».

«ربما كان مقدراً عليكما أن تصبحا زوجاً وزوجة». تركت دنيا أفكارها تسرح قليلاً.

«استمري»، قالت نسيبة.

«بدا لي أنه فكّر بأننا، أنا وهو، روحان قريبتان. كان بإمكاني أن أرى ذلك،

وهو كذلك. على أي حال. بعد قراره التلقائي بتأجيري الغرفة، سألني متى يمكنني أن أنتقل إليها؟ قلت له إنه يوجد لديّ أطفال، فلعله يرفض. فقد رأيت أصحاب بيوت كثيرين لا يرغبون في تأجير امرأة تعيش وحدها ومعها أطفالها. سألني عن جنس طفلي وعن عمريهما وأخبرته». التوأم بركة، شعّ صوته بهجة وقال: «أحضريهما».

«هل انتقلتِ في اليوم نفسه؟».

«نعم. لقد جلبنا كلّ شيء كنا نمتلكه، فراش، وبضعة قدور محترقة كانت قد قدمت لي مستعملة وجميع ثيابنا في صندوق واحد. أعارنا سريراً، ثم عرفّني على صاحب المخزن العام المحلي الذي وافق على أن يبيعنا بالدين، ونسدد له النفقات آخر كلّ شهر. ولم أنظر إلى الوراء منذ ذلك الحين».

«كنتما على وفاق، أنتِ وطارق، أليس كذلك؟».

قالت دنيا: «ما عدا المشاجرة الكبيرة، التي سبقت الانفصال النهائي، فنادراً ما كنا نتشاجر في السنوات التي كنا نعيش فيها كمستأجرة وصاحب بيت، ثم كزوج وزوجة».

«من الجيد أنكما ظللتما صديقين»، قالت نسيبة، «لأن مثل هذه الصداقات نادرة بعد حدوث طلاق، وخاصة عندما يكون هناك أطفال».

«هذا صحيح»، قالت دنيا موافقة.

«إنه لا يزال يحبّك. قال لي ذلك اليوم»، قالت نسيبة. لم يكد يتاح الوقت لدنيا للردّ عليها عندما لاحظت أن نسيبة قد نهضت لترتدي بنطال الجينز وقميص تي شيرت مطبوع على صدره شعار «فرقة المساعدة».

«إلى أين أنت ذاهبة؟» سألتها.

«لن أتأخر كثيراً» قالت نسيبة، وهي تنظر في ساعتها.

«لقد تجاوزت الساعة التاسعة»، قالت دنيا، وكأن ذكر الوقت قد يردع ابنتها.

«لن أتأخر كثيراً».

«لقد تأخر الوقت»، قالت دنيا، باستسلام.

«قلت لن أتأخر طويلاً».

كان لدى دنيا القدرة على منعها، لكن ما الجدوى من ذلك؟

كان الناس العاديون يصفون أولاد دنيا بعبارة «هوويو ـ كوريس، أي أطفال ينشأون في بيت تعيله امرأة».

عندما خرجت نسيبة، صاحت، «أحبّك يا ماما»، من الواضح أنها كانت تقلد الفتيات الأمريكيات اللاتي شاهدتهن في الأفلام. لم تكن دنيا تشك أبداً بحبّ أطفالها لها.

نيويورك (رويترز)

مات الملايين من البشر في بلدان العالم النامي جوعاً بسبب سياسات الدول الغربية الدائنة، كما جاء على لسان الناطق الرسمي باسم برنامج الأمم المتحدة الإنمائي. وفي تقييم سنوي كئيب، قال الناطق الرسمي إن النسيج الاقتصادي المحاك جيداً قد يتفكك في أي لحظة، ويسبّب معاناة مأسوية ومفجعة في العالم الثالث؛ وأضاف أنه ليس من الإنصاف أن تعتمد البلدان الفقيرة تماماً على ما يحدث لاقتصادياتها فقط، بل على ما يحدث في تلك البلدان المتقدمة اقتصادياً، الأكثر غنى، التي لا تستطيع أن تعيد جدولة ديونها، ناهيك عن تسديدها.

[4]

وفيه تتذكر دنيا كيف أن أباها كان قد وعد بتزويجها إلى صديقه وهو على فراش الموت

سمعت دنيا صفيراً حاداً. تطلعت حولها. أسرّة؛ حواف نوافذ؛ عتبات أبواب. من المؤكد أنها رأته: طائر الرفراف مذعور، صدره بلون القرفة، وتوجد بقعة زرقاء داكنة على كل جانب من جانبي عنقه، ومنقاره أسود يلمع ويسطع مثل نور الكهرباء. ثم جثم الطير فوق ذراع مروحة السقف، وأطلق صفيراً حاداً مرة أخرى، ثم طار وخرج من النافذة التي دخل منها.

وفجأة انقطع التيار الكهربائي، وغرقت دنيا في الظلام.

تستحضر ذاكرتها زبير، زوجها الأول، والد توأميها نسيبة وماتان، في ذلك اليوم عندما كانت في الرابعة من عمرها؛ وكان أخوها أبشير قد سُجِل مؤخراً في أرقى مدرسة ثانوية في البلد كله، في مقديشو. وللاحتفال بهذه المناسبة، أخذ أخته الصغرى التي يحبّها كثيراً إلى مركز التسوق في غالكاسيو ليشتري لها هدية. وعندما لم يعجبها شيء، وعدها بأن يبعث لها هدية من مقديشو. لكنه اشترى لها بوظة، وهي كانت تُعتبر آنذاك ترفاً دخل حديثاً إلى البلد.

عندما كانت مارة هي وأبشير من أمام بيت زبير، صديق أبيهما وجاره منذ سنوات عديدة، شاهدا حصاناً جميلاً في حظيرة الرجل العجوز. وكان أحد أنسباء زبير قد قدّم له هذا الحصان العربي كجزء من مهر العروس الصبيّة التي

تزوجها. وكان زبير قد سمع أبشير يقول لدنيا إنه مستعد أن يفعل أيّ شيء لكي يُسمح له بامتطاء أجمل حصان رأته عيناه في حياته.

انتاب أبشير الخجول، البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً، شعور بالحرج، وقال متلعثماً: «إنها دنيا التي تريد أن تركب الحصان، لا أنا»، ولفظ اسم أخته بلطف كما يفعل غالباً، «كلّ ما كنت أريده هو أن ألقي نظرة، هذا كلّ ما في الأمر. أنا أعرف أنك لا تمانع في ذلك»، ثم أمسك أبشير بيد أخته الوحيدة مشجعاً إياها وقال لها: «هيا إلقي نظرة على الحصان، فربما كانت هذه هي المرة الوحيدة التي يمكنك أن ترينه فيها».

سألت: «هل أستطيع أن ألمسه؟» لوهلة لم يكن أبشير متأكداً إن كانت تقصد زبير أم الحصان. كرّرت طلبها: «أرجوك دعني ألمسه».

أدار زبير رأسه الذي لم يكن مرئياً ببطء شعاع منارة، وسألها: «هل ترغبين في أن تمتطي هذا الحصان الجميل يا دنيا؟».

«إذا قلت نعم، هل يمكنك أن تعطيه لي إلى الأبد يا عمّ زبير؟».

«بالتأكيد. لكن اطلبي من أخيك أن يستلم الحصان نيابة عنك».

«إنه يمزح معك»، قال أبشير، «لا أحد يعطي مثل هذا الحصان الرائع إلى طفلة في عمرك»، كانت نبرته تنم عن حسد واضح، «لكنك تستطيعين أن تلمسيه».

أومأت دنيا برأسها بقوة دون أن تنبس بكلمة.

«تعالي والمسيه»، قال أبشير مشجعاً، «لا تخافي».

ورفعها عن الأرض، فقاومت في البداية لأنها أحست بالخوف.

قالت دنيا وهي تلمس الحصان: «لقد أعطاني إياه العمّ زبير. قل لأبشير إن الحصان لي، يا عمّ زبير».

«إنه لكِ» أكّد لها الرجل العجوز الأعمى، الذي كان يغدق حباً غير متبادل على الحصان الجميل.

«إنه يمازحك»، أصرّ أبشير.

وبإصرار طفولي قالت: «الحصان لي».

«انتبهي من البوظة»، قال أبشير محذراً، «وتصرفي جيداً».

منزعجة، رمت البوظة على الأرض في لحظة غضب خارجة عن إرادتها.

«لا تهتمي»، قال أبشير مهدئاً إياها، «سأجلب لك واحدة أخرى، لكن انتبهي، لا توسّخي ثوبك».

«لا أريد بوظة»، قالت غاضبة، «أريد حصاني». أشار زبير بعصاه نحو المكان الذي توجد فيه عدّة الحصان، وقال: «خذه في جولة يا أبشير».

وعندما انحنى أبشير ليتناول السرج واللجام، ليضعهما على الحصان، سأله: «هل امتطيت حصاناً من قبل يا أبشير؟».

فقال أبشير: «لم أمتط حصاناً مثل هذا الملك».

«إني واثق من أنك ستمتطيه جيداً»، قال زبير مطمئناً.

«أريد أن أمتطيه أنا أيضاً»، قالت دنيا متوسلة.

«إذا أحسنت التصرف»، قال أخوها.

فقالت: «لكن هذا حصاني ويمكنني أن أفعل به ما أشاء». أطلق زبير قهقهة، ثم قال: «لقد أعطيتك هذا الحصان الرائع يا دنيا، ويبدو أنك قبلتيه. لكن ماذا تعطيني في المقابل يا صغيرتي؟».

فقالت: «أتزوّجك».

عندما كبرت دنيا قليلاً، سمعت قصّة كيف وقعت زوجة زبير السابقة في حبّ جنّي، وحملت منه عدّة أطفال. كان زبير زوجها منذ عشرين عاماً تقريباً، وله منها أبناء وبنات بالغين أنجبوا له أحفاداً آنذاك؛ ومع ذلك، أخذ يدغدغ مشاعر فتاة تصغره كثيراً وراح يطلب ودها. وعندما غابت زوجته بضعة أيام، ظنّ الجميع أنها كانت في زيارة لأولادها وأحفادها ـ في البداية، لم يكن أحد

يعرف أنها على علاقة بجني. لكن عندما اقترب موعد زفاف زبير الفخم من الفتاة الصغيرة، بدأ الناس يبدون اهتماماً بمعرفة رد فعل زوجته الأولى على ما يجري، واكتشفوا أنها لم تكن هناك لكي تجيبهم عن استفساراتهم. وعندما أذيعت قصّة عشيقها الجني، كان موقف أهالي البلدة المبدئي رافضاً، مبررين أن هذه الحكايات ترتبط بمشاعر امرأة غيورة، جُرحت.

وهكذا عاشت زوجة زبير الأولى حياتها دون أن يزعجها أحد، تختفي عندما تريد، وتظهر مرة أخرى دون تفسير. وذات يوم، قرر شابّان، أحدهما ابن عمها، والآخر ابن عم زبير، أن يعرفا حقيقة هذا السرّ، فتبعاها إلى الغابة. وقالا إنهما لم يريا أحداً، ذكراً كان أم أنثى، يمشي بالسرعة التي كانت تسير بها. وعندما وصلت إلى المكان الذي تبغيه، أوقدت ناراً وبدأت تعدّ وجبة طعام. وبينما كانت تفعل ذلك، راحت تكلم ما يُفترض أنهم الجنّ، الذين لم يرهما الشابان ولم يتمكنا من فهم اللغة التي كانت تتحدث بها. وعندما خلص الشابان إلى أن المرأة وعشيقها الجنّي كانا يتهيئان لممارسة الجنس، انسحبا بهدوء.

وهكذا تزوّج زبير المرأة الصغيرة، حلمه، عذراءه. كان رجلاً غنياً، يقال إنه يملك عشرة آلاف ناقة مقسّمة إلى قطعان عديدة، يرعاها أبناء عمومة بعيدين وعمال يدفع لهم أجراً. وفي وليمة الزفاف، ذبح زبير ما يقرب من عشرين ناقة للضيوف المدعوين والمتطفّلين.

وفي ليلته الأولى مع عذرائه الشابة، لم تسعف زبير رجولته. وكانت تتناهى إليه أصوات، وكأن سراباً من الجنّ يتحدث أحدهم إلى الآخر، داخل رأسه، بلغة غير مفهومة. وقبيل الفجر، ماتت عروسه الشابّة، لم يلمسها أحد، عذراء.

وعندما ظهرت زوجته ثانية بعد بضعة أيام، تكلّم زبير معها حديثاً جدياً على انفراد. وأخبرها بكلّ ما حدث.

قالت له: «لقد أنجبت لك خمسة أبناء وابنتين، فماذا تريد مني أكثر من ذلك؟ ولم أعرف في حياتي رجلاً ولا اشتهيت أحداً إلى أن رأيت عينيك الشهوانيتين تقعان على امرأة شابة، ذات نهدين جميلين، وبشرة مفعمة بالصحة وذات جسد رائع»، وتابعت، «تصوّر أنني بعد أقل من أسبوع، التقيت رجلاً وسيماً مثل ملاك، باح لي بحبه، ولم يكشف لي عن حقيقته إلا لاحقاً، وهو أنه ينتمي إلى عالم الجنّ، وأنه ليس من عالم البشر. لكني لم أعبأ بذلك، بل عزز ذلك علاقتي العاطفية به، وتطلب ذلك شجاعة أكثر؛ فأنجبت له أطفالاً، نصف جنّ، ونصف بشر، ونعيش الآن في سعادة معًا».

«هل قتل عشيقك الجنيّ عروستي في ليلة زفافنا؟».

«هل جننت؟».

«هل هو الذي حال دون انتصابي؟» سألها، شاعراً بذلّ شديد.

بدأت شفتاها تتحركان. بدا أنها تهمس لشخص آخر في الغرفة لم يكن زبير يراه، بل يحس به فقط. وبعد أن أنهت استشارتها بصوت خفي، التفتت إليه وقالت: «لعلك قتلت عروسك العذراء لتخفي عارك وخزيك».

فقال زبير: «هذا هراء».

وعادت زوجته مرة أخرى لتدخل همساً في نقاش مع أشخاص غير مرئيين. ضحكت، ثم قالت: «ربما سيحدث لك شيء فادح في المرة القادمة، فهل ستلقي باللوم على عشيقي الجنّي أيضًا».

ولم يمض وقت طويل على حديثه مع زوجته المجافية، وبينما كان زبير يصلي صلاة الفجر حتى أسدلت على عينيه ستارة من الظلام وغشيت بصره، وأعمته تماماً. ولم ترتفع هذه الستارة مهما بذل، ولم يكن بوسع أي شيء أن يعيد له بصره.

وعندما كان يسأل كيف يشعر، كان يجيب: «كأن جنيين اثنين صغيرين

عابثين شرّيرين امتطيا شعاع بؤبؤيّ غير المضاءين، وحرماني من نعمة البصر. وأرجو أن يتعبا ذات يوم من ألعابهما الحقودة ويهبطا».

لكنهما لم يهبطا. بل مرضت زوجته. وفي هذه الأثناء، توقّف زبير عن تلاوة صلواته تماماً. وماتت أخيراً زوجة زبير قبل ربع ساعة من ولادة دنيا.

بعد سبعة عشر عاماً تقريباً: بادرة عنف رحيمة!

كان والد دنيا راقداً في سريره، منتظراً ملاك الموت، وكان زبير يزوره باستمرار، ، زبير الذي ظلت عصاه تنقر على الحائط غير المرئي الذي يفصل بين بيتيهما، صوت نذير بالشؤوم. وعندما كانا يلتقيان، كان الصديقان يتحدثان عن الموت، واتفقا على أن لا أحد يعرف إلا الله من منهما سيلتحق به أولاً.

إن شعور والد دنيا بدنو أجله في ذلك اليوم جعله يقول كلماته المحمومة الأخيرة، فقد قرّر أن يعرض، على حد تعبيره، «بادرة عنف رحيمة» على صديق عمره زبير. هل تتفضّل دنيا وتقبل به زوجاً شرعياً؟

وكانت لعنة تلك اللحظة أنه لم يكن هناك أحد غير أمّ دنيا. ووافقت دنيا على ما أمرت به أمّها، لأن المرء، كما يقول الناس، لا يستطيع أن يجادل في رغبات الموتى ومن هم أكبر منه سناً. فإما أن ينفذ المرء ما قاله الموتى، وإما أن يتحمل عواقب أعماله إذا لم ينفذها. ولم ترغب دنيا في أن تنظر إلى الوراء لكي لا تأتي لحظة قد تكتشف فيها أن شرّ لعنة أبويها يحوم في كلّ مفاز، وفي كلّ وادٍ، أو في كلّ ظلّ. «لقد قبلت»، قالت دنيا بشجاعة. وقالت لزبير الذي لم يرها بعينيه مطلقاً، لكنه كان يعرفها طوال حياتها، دنيا، عروسه الجديدة وعذراؤه: «اذهب وهيئ نفسك لقدومي».

حاول أصدقاء الأسرة وأقاربها أن يثنوا دنيا عن تنفيذ «رغبة» أبيها وهو على فراش الموت. أما زبير، فقد خشي أن يُتهم بجرح كبريائها، فتظاهر بعدم المبالاة. لكن أمّ دنيا كررت بصوت عال لكي يسمع حتى أولئك الذين لا يسمعون جيداً، بأن زوجها المرحوم كان قد طلب من ابنتهما أن تتزوج من

زبير، وأن هذا أمر لا يمكن الجدال فيه، وأنها سمعت ذلك بأذنيها، ومن الأفضل للصغيرة أن تمتثل لرغبته.

ووصل بغتة شيري، أخو دنيا غير الشقيق، الملازم في الجيش. وعندما أخبروه بما جرى، أقسم بأنه سيضع حداً لهذه المهزلة، وقال إن أمّ دنيا صمّاء، لكنه سرعان ما غيّر رأيه في ذلك المساء. ولم يؤكد زبير أو ينفي الإشاعة بأنه قام بالملاطفات المألوفة التي يقوم بها عادة العريس تجاه شقيق عروسه. وغادر شيري بسرعة في صباح اليوم التالي.

وبعد مضي سنوات، كتبت دنيا لأخيها أبشير أن أخاهما غير الشقيق غادر غالكاسيو كما يغادر رجل لديه شيء يخفيه. والحقيقة أن شيري كان قد قبل سرّاً هدية قدمها له زبير.

«هل تتذكّر أنني عرضت أن أتزوجك عندما كنت في الرابعة من عمري، وقدمت لك نفسي مقابل حصان جميل؟» سألت دنيا زبير عندما انتهت مراسم عزاء أبيها.

«نعم، أتذكر»، أجاب.

«والآن أين هو ذلك الحصان؟».

فأجاب: «كانت الأوقات عصيبة».

«إذًا لنمض في الأمر، بدون أبهة ومظاهر، وبدون قرع طبل واحد، أو زغرودة واحدة».

«نعم، لنفعل ذلك».

«إذهب وهيئ نفسك للقدوم إليّ»، قالت دنيا.

وبعد عدّة ليالٍ، أدخلها زبير إلى الغرفة التي أُعدت لشهر عسلهما. إذ مُددت على الأرض فرشة كبيرة تناثرت فوقها وسادات كثيرة (وقد طرّز على إحداها اسم دنيا باللون الأخضر، لجلب الحظّ السعيد). وكان أبرز أثاث الغرفة،

الكرسي الهزاز، الهدية التي قدمها له ابن زبير البحّار، الذي هيمن على الغرفة من موقعه البارز. فقد كانا يجلسان عليه معاً، يضاجعها فوقه، وكانا ينامان عليه أحياناً، يحتضن كل منهما الآخر في عناق حبيبين.

وبسبب الفرق الكبير في العمر والمزاج، كانت العلاقة بين زبير ودنيا أفضل مما كانا يتخيلان. فقد كانت مسؤولية رعاية رجل عجوز أعمى بالنسبة للعروس الشابة، أمراً مخيفاً، ومهمّة شاقة ومتعبة، تماماً مثل أن يتعلّم المرء لغة جديدة لا يوجد لديه اهتِمام حقيقي بها. وتعيّن عليها أن تتقن بضع مفردات ولغة جسدية تكون فعالة ودقيقة. فقد اعتاد على أن يُعطى كلّ شيء، وتعوّد على الواقع بأنها لا تستطيع أن تطلب منه أن يناولها الملح أو السكّر، أو أن يطفئ النور، مع أنه ربما كان يفعل ذلك عند الضرورة القصوى.

وقد أدخل تعديلات عديدة ليجعل إقامتها مريحة. وعندما عاد يصلي، اتخذت دنيا وضعية بحيث أنها أصبحت نقطة مرجعه، فراح يسجد أمامها عندما يتعبد لله، مكرساً كلّ تفانيه وولائه لها.

كان رجلاً ضخم الجثة، محباً. وكان يغفو كثيراً، مما جعل دنيا تظن أنه طفل كبير ينهار منهكاً في وسط اللعب. كان فيه شيء يشبه الطفل، شيء يتعلق بفمه الذي يبدو أنه منشغل به إلى الأبد، مثل عجوز لا توجد لديه أسنان، يمضغ لعابه ويقضم باطن خديه. أما أسنان زبير فقد كانت موجودة جميعها، ويتمتع بصحة جيدة بالنسبة لعمره.

وأنجبت له دنيا توأمين، ماتان (وتعني التوأم) الذي كان شديد الشبه به، ونسيبة، التي كانت صورة طبق الأصل عن أبشير، أخو دنيا. (وفي إحدى المرات، سألت دنيا الدكتور ماير بلطف إن كان من المحتمل أن تحمل المرأة في رحمها بيضتين توأمين تنبثقان من مصدرين مختلفين، عندما لا يكون أحد الرجلين قد ضاجع هذه المرأة).

وذات مساء، أرادت دنيا أن تعرف إن كان الجنيّان القابعان في عيني زبير لا

يزالان يحرسان بوابة بصره. الجنيّان اللذان وصفهما زبير بأنهما كائنان ثابتان، لا يتحركان، معتقداً أن فقدانه لبصره كان نتيجة كيد زوجته وحقدها. وقال لدنيا إن الجنين، مع أنهما لا يزالان يحولان دون عودة بصره، يبدو أنهما قد تعبا وملا من خدعهما وأحابيلهما منذ زواجه منها.

مات زبير وهو نائم، في الستين من عمره، عندما كان توأما دنيا لا يزالان يرضعان من صدرها. فقد غمغم صوته الأجش السميك، شيئاً يشبه «هل تمانعين إذا أطفأنا النور؟» مباشرة قبل أن يستدعيه ملاك الموت. وعندما تفكرت بالأمر، ندمت لأنها لم تسأله إن كان الجنيّان قد تخليّا عن مكانهما لفترة وجيزة، وسمحا له بأن يرى؛ وإلا لماذا طلب منها أن تطفئ النور؟ كانت تجلس على الكرسي الهزاز، ترضع طفليها الجائعين من صدرها، وكان أيّ شيء تقوله يبدو سخيفاً. كانت غاضبة من النور الكهربائي المبهر الذي جعل نومها مستحيلاً، فاستدارت لتقول له شيئاً، لكنه أسلم الروح قبل أن تتمكن من قول ما تريد. وبعد أسبوعين كانت على متن طائرة متجهة إلى مقديشو.

وبعد سنوات عديدة في مقديشو، أخذت تتذكر!

قبل أن تتهيأ لتأوي إلى الفراش، وبعد أن استحمت ونظّفت أسنانها، عاد التيار الكهربائي وعاد كذلك طائر الرفراف. لم تتأكد دنيا إن كان هو الطير نفسه، الذي حلّق بعيداً في السماء. غادرت دنيا سريرها لتطفئ النور المضاء في المطبخ والحمام والفناء.

ما إن أطفأت دنيا النور وعادت إلى الغرفة المظلمة حتى سمعت صوت باب سيارة يفتح ثم يغلق. جثت وراء الستارة المسدلة جزئياً، وراحت تراقب ماتان، ابنها ذا السبعة عشر ربيعاً، وهو يخرج من سيارة تقودها امرأة. كانا يتكلمان بصوت خفيض، لا شك أنهما يرتبان لمستقبلهما. لكن أين هي دراجته؟ هل سُرقت؟ أم أنه لم يشعر بالأمان ليعود بها إلى البيت لعدم وجود ضوء فيها؟

ابتعدت المرأة بسيارتها قبل أن تتمكن دنيا من رؤية وجهها بوضوح، وراح

ماتان يلوّح لها بحماسة حتى غابت السيارة عن الأنظار عند المنعطف التالي.
ماذا يهم، قالت دنيا لنفسها، عندما تذكرت ما قالته نسيبة، ليس المهم أن تكبره المرأة في السن، بل أن يشعر أحدهما بالراحة تجاه الآخر.

اتجه ماتان نحو بوابة البيت. كان طويلاً، يمشي وظهره منتصباً، مثل رجل عائد إلى بيته وزوجته بانتظاره، رجل يجب أن يتخلص من آثار حياته الأخرى، تبرز فيها امرأة أخرى. جفف ماتان وجهه، وربت على شعره بلطف، لامساً شعره الممشّط حديثاً. عندما ازداد اقتراباً، رأت أمّه أنه يحمل سلسلة دراجته في يده اليسرى وكتابه في يده اليمنى.

عندما سمعت صوت المفتاح يفتح الباب الخارجي، ابتعدت دنيا على أطراف أصابعها من سرير نسيبة الجاثية عليه، وتساءلت: هل أناديه أم أنتظر حتى يعلّق سلسلة دراجته السحريّة على المسمار عند مدخل غرفته؟

لم تناده. تركته يستحم. تركته يزيل آثار ممارسته للجنس (يحرص الإسلام على نظافة جسد الرجل الذي يضاجع المرأة وعليهما الاغتسال بعد ممارستهما الجنس). لكنها عندما سمعت وقع خطواته اجتازت باب غرفة النساء، ونادته.

«من؟» سأل مجفلاً.

«أنا»، أجابت دنيا.

أوضح لها أنه لا يرغب في التكلم.

فقالت له: «إذًا تصبح على خير».

وردّ عليها: «أحلام هانئة يا أمّي».

لم تستيقظ دنيا عندما انسلت نسيبة إلى سريرها.

ما إن غطت في النوم، حتى جاء بوساسو إليها ليحكي لها قصته.

مقديشو (وكالات)

الخطط جارية للقيام بعملية إغاثة ضخمة في شمال جمهورية الصومال التي

مزقتها الحرب، والتي ضربها الجفاف، إذ لم تهطل الأمطار طوال السنوات الأربع الماضية. وسيبدأ الجسر الجوي لإرسال المساعدات الغذائية الطارئة في غضون أسبوع، كما جاء على لسان أحد كبار مسؤولي الحكومة. وأكّد مسؤول إقليمي إنه يموت يومياً بين ٣٠٠ و٥٠٠ شخص في بعض النواحي الكبيرة، وأنه سيموت المزيد من السكان جوعاً ما لم تصل المعونات الغذائية الطارئة جواً إلى المنطقة المنكوبة بسرعة.

[5]

وفيه يحلم بوساسو في البداية ثم يفيق ويروي جوانب من تاريخ حياته لدنيا التي كانت نائمة وربما كانت تحلم به أيضاً

استيقظ بوساسو منذ فترة قريبة، وراح يتقلب في سريره، منتظراً بزوغ الفجر. كان قد حلم بنسر ذي ألوان زاهية يحلّق عالياً، غير مستعد لأن يهبط ويحطّ فوق أيّ من أشجار اليوكاليبتوس الباسقة التي تملأ المكان. وفي الأسفل، حيث كان ينتظر الطير الجميل أن يهبط ويجثم فوق غصن ليتمكن من إطلاق النار عليه، كان طائر زقزاق أحمر ذا قائمتين طويلتين، مسقسقاً شتائمه المعروفة في أقبح نغمة يغرد بها طير.

ورأى في حلمه صبياً صغيراً يحمل كيلوغراماً من اللحم النيء في صحن كبير مكشوف، فانقض النسر المتحفز عليه بغتة، لكنه لم يتوجه إلى اللحم النيء الذي يقطر دماً، بل انقض على دماغ الطفل، فسقط الصبي على الأرض مذعوراً، ووقع صحن اللحم من يده. وبرزت عدّة نساء من وراء أشجار الخرنوب وشكّلن دائرة حزينة حول الصبي الجاثي. انتحت إحدى النساء جانباً، امرأة ترتدي ثوباً ملوناً بألوان الطاووس، وفي شعرها ريش. وسكتت الأخريات عندما أشارت لهن بأن يسكتن. أخرجت من ثنايا ثوبها رقية في شكل حصاة ووضعتها قرب فتحتي أنف الصبي. فارتجّ الطفل بتشنّجات أعادته إلى الحياة. ثم نهض، وابتغد غير خائف، والتقط صحن اللحم الذي امتلأ بالتراب.

أثار القلق في صدر بوساسو سعالاً مكسواً بالغبار، وعطس وهو لا يزال نائماً. وغيّر رأيه عندما قال لنفسه (ودنيا في حلمها الذي كان طرفاً فيه) قصة ابن وحيد لأم وحيدة. كان اسم الصبي محمود.

كان طفلاً محظوظاً للغاية، وكانت أمّه تجيد الغناء، لأنها وهبت صوتاً جميلاً، وكانت تطهو طعاماً لذيذاً، وخياطة ممتازة. وقد جعلتها هذه الميزات الثلاث ضيفة تتردد على حفلات الزفاف حيث كانت تُستقبل بترحاب شديد، وفي جميع المناسبات التي تتطلب خدماتها. كانت أمّ محمود قد أصبحت وحيدة بعد أن سافر أبوه على متن سفينة ـ كما يعتقد الجميع ـ ولم يعد يُسمع عنه ثانية.

عاش الصبي وأمّه في بلدة جي الصغيرة الساحلية، ليس بعيداً عن رأس غواردافوي، شرق شبه جزيرة الصومال. كانا مميّزين في القرية، لا يفارق أحدهما الآخر، متلألئين مثل الثياب الزاهية التي تخيطها لنفسها، كالغجر الرحّل، مستعدة لإدخال البهجة إلى نفوس الناس وتسليتهم. ومن المؤكد أنه كان ثمة شيء متناقض في موقف الصبي تجاه أمّه. فقد كان يحب الأغاني التي تغنيها، ويحبّ الطعام الذي تعدّه؛ لكن كان ينتابه إحساس بالمهانة لأنه يتعين عليه أن يرافقها أينما ذهبت، وهي تجري وراء الحفلات التي تحييها.

ولم يكن أجرها يُدفع لها في الغالب نقداً بل عيناً: لحم خروف، أو لحم جمل، أو لحم بقر، قطعة لحم تختارها لكي تطهوها في البيت لها ولابنها. كان محمود يكره أن يجتاز البلدة حاملاً اللحم النيء الملفوف في قطعة قماش سوداء الذي يجذب الذباب؛ وكان يكره الاقتراب من مكان الطهو الذي كان يقام على عجل، إذ تُصفّ ثلاث قطع من الحجارة لوضع القدرة عليها، وتشعل النار تحتها. وكان يشعر بالحرج أيضاً عندما كانت أمّه تناديه وتعطيه الطعام أمام النساء جميعهن، ولا يُطلب من الصبية الآخرين مشاركته. كان يسرع وينزوي في مكان بعيد، مثل كلب يبحث عن مكان هادئ يمضغ فيه قطعة من العظم

دون أن يراه أحد. كان يشعر بالحرج عندما يأكل ولا يفعل ذلك أحد سواه.

كان محمود يشعر بالارتياح عندما تضع أمّه قناع المطربة وتغني تلك الأغاني الشعبية التي تمتدح فيها مزايا العروس أو العريس في حفل زفاف ميمون. وكانت أمّه ترتدي أجمل وأزهى ما لديها من ثياب، ويتضوع منها شذى رائع من العود والصندل، الذي كان يحبه. وفي هذه المناسبات، لم يكن عليه أن يرافقها، بل كانت تجلب معها طعاماً مطهواً بعد أن تنهي غناءها.

كان لها صوت شجي مؤثر، وتتمتع بموهبة الارتجال. وكانت ترتدي ثياباً أنيقة، أكثر أناقة من أيّ امرأة في البلدة كلها، وكانت ترتدي عادة عباءة على الموضة تصممها وتخيطها بنفسها. وكان الجميع يجمعون على أن الخيّاط في البلدة ليس ماهراً مثلها، لذلك كانت النساء تجلبن لها الثياب التي كان قد خاطها لهن لتعيد تصميمها وخياطتها من جديد؛ ولما لم تكن تمتلك آلة خياطة (فلم يكن لديها النقود الكافية لشرائها)، كانت تخيط بيدها. واعتادت نساء البلدة على استشارتها وأخذ رأيها في ذوقها، وعندما كانت تقدمه لهن، كنّ يأخذنه بجدية. كانت حياتها حافلة، تستقبل الزائرات وتحرص على تسليتهن.

لم يكن سكان البلدة يعرفون الكثير عن ماضي هذه المرأة. فقد كان مسقط رأس زوجها، لا هي، من بلدية جي، وكانت قد جاءت معه عندما كانت حاملاً. جاءا على ظهر شاحنة، يكسوهما تراب بني من مصدر غامض. وعندما أنزلتهما الشاحنة، تركت أسئلة لم يتمكن أحد من التقاطها من ممرات البلدة المكسوة بالغبار. كانت زوجة ابن البلدة، ويكفي القول إنه كان للرجل تاريخ مشين، كمقامر ذائع الصيت. كان روحاً قلقة، من نسل ومزاج لا تبدي بلدة ناعسة تقبع في الصومال المتخلف أدنى اهتمام به، ولم يكن بالوسع إيجاد عمل له. ويشاع أن الخيّاط، الذي يكنّ كراهية شديدة للمرأة، يقول إن ابن البلدة أحضر معه ساحرة.

وبعد يوم من ولادة ابنها، غادر والد الصبي، وصعد على متن أول سفينة

رست على الشاطئ المهجور. وقام والدا الأب المهاجر برعاية المرأة المسكينة والصبي الذي سُميّ باسم جدّه. وحتى بلوغه الخامسة من العمر، كان محمود ينام بجانب أمّه، التي كان والد ووالدة زوجها يقدّرانها كثيراً، ويفتخران بالمواهب غير العادية التي تتمتع بها في بلدة مثل جي. ولم تكن تبدي أي اهتمام بالرجال الآخرين الذين كان معظمهم صيّادي سمك منكودي الحظ، ويعيشون على الحوالات المالية التي يرسلها لهم أقرباؤهم من البترودولار في الجزيرة العربية.

وكانت نساء البلدة يبدين لها مودّة وثقة غير محدودتين. ولكي تظهر لهن امتنانها، كانت تعلّم بناتهن الحياكة، وتنظم في بيت حميها في المساء فصولاً مجانية لتعليم النساء المسنات القراءة والكتابة. كان قلقها الذي أحسنت استخدامه، يذكّر الناس برحيا، والد الصبي، مما جعل حمواها حذرين، وكانا يخشيان أيضاً أن تأخذ ممتلكاتها القليلة وتختفي إلى الأبد مع حفيدهما، لكنها لم تكن تجعلهما يشكان في أنها قد تفعل ذلك.

كانت شهرة أمّه قد سبقت دخول محمود المدرسة، ولم يكفّ بعض الأشقياء ذوي الأجسام الأكثر ضخامة عن استفزازه، إذ وصفها صبي فظ اسمه علي بأنها «مطبخ متجوّل». وبعد تبادل الشتائم معه، قال محمود إن أمّ علي تعيش على التكافل الاجتماعي في البلدة، أي أنها شحادة تعيش على الصدقات. والآن من يستحقّ أن يشعر بالمهانة، امرأة تعمل وتكسب من عرق جبينها، أو امرأة تعيش على الصدقات؟ تعاركا وضرب الصبي المتنمّر محمود ضربة قوية فآلمته، لكن الصبي الآخر فقد إحدى أسنانه الأمامية. وبرزت إمكانية أن يُطرد محمود من المدرسة لولا شهادة أحد التلاميذ في الفصل يدعى ماير، الذي كان أبوه قاضي المنطقة، رجل يكنّ له مدير المدرسة احتراماً شديداً. وأنحى ماير باللائمة على علي، واتهمه بأنه استفز محمود منذ البداية، فطرد مدير المدرسة علياً، وتوطدت الصداقة بين ماير ومحمود.

أعطى ماير صديقه الجديد مجموعة من الثياب التي لم يعد يستعملها، والتي كانت أمّ الصبي تقوم بإصلاحها أو تعديلها. وكبادرة تقدير، كان محمود يجلب معه إلى المدرسة كعك بورسلايد الذي تعدّه أمّه، ويتقاسمه مع ماير. وكان الاثنان يأكلان معاً في غالب الأحيان: ماير بدافع من الشعور بالمغامرة، ومحمود بدافع من الولاء لصلتهما الوثيقة، ولأنه كان يكره أيضاً تناول الطعام وحده. وكان الصبية الآخرون يشترون كعكاً وخبزاً غير صالح للأكل، قاسياً كالصخر، من كشك مصنوع من الزنك عند ناصية الشارع حيث يلتقي درب المدرسة الترابي مع طريق البلدة الوحيد. وكان منزل والد ماير، واحداً من ثلاثة بيوت مبنية من الحجارة، في المنطقة التي شيدتها الحكومة، أما بيت جدّ محمود فكان آخر بيت يقع في نهاية زقاق مسدود. وبما أن ماير كان يقرأ كثيراً، فقد شجّع صديقه على استعارة الكتب.

وذات يوم وصلت شاحنة، وسلمت رسالة إلى أمّ محمود تتحدث عن أخبار تقول إن زوجها قد شوهد في مقديشو يمضي وقتاً ممتعاً مثل بحّار يقضي إجازة. وبعد أسبوع، وصلت برقية عليها اسمه ورسالة تطلب منها أن تذهب إلى العاصمة وتجلب معها الصبي. كانت الرسالة الأولى مرفقة بصورة رجل شفته السفلى مشوّهة؛ ولم يشكّ أحد في صحتها ومصدرها، بما أنها تحتوي على مقاطع من الثرثرة التي لا يعرفها إلا أفراد الأسرة. انتاب الجدّان الشك، ولم يعودا واثقين من أنهما سيريان حفيدهما ثانية. وكان توسط والد ماير هو الذي جعلهما يقبلان أن تأخذ الصبي معها.

وفي عشية مغادرتهما، جاء ماير وأبوه ليودعاهما ويتمنيا لهما رحلة موفقة وسالمة. ودبّر لهما والد ماير رحلة بسيارة لاند روفر حكومية عائدة إلى مقديشو. ولما لم تكن تعرف مدى المساعدة التي كانت ستحتاجها عندما تصل إلى العاصمة، أعطاها والد ماير رسائل تعريف إلى أصدقائه. وتطلع الصديقان الشابان بقلق لأن يلتقيا ثانية، وهو أمر بدا أنهما كانا واثقين من أنه سيحدث.

وأقام الصبي وأمّه مع أهلها في العاصمة؛ ولم تكن هناك أي دلالة على ظهور الرجل الذي أنجبه. كانت الشهور القليلة الأولى بائسة بالنسبة لمحمود الشاب الذي اشتاق إلى صديقه ماير، واشتاق إلى جدّه وجدّته، إلى هواء البلدة الصغيرة، والبيت الذي كان يعيش فيه. وبعد أن أقاما في مقديشو، لم يعد الصبي يشعر بأن ثمة شيئاً خاصاً يربطه بأمّه، لأنه كانت توجد آلاف النساء مثلها. ولم تكن تدعى كثيراً لتكون ضيفة الشرف، أو لأن تطهو في حفلات الزفاف، بل دخلت إلى المعهد وتخرجت معلّمة، ثم وجدت عملاً في إحدى المدارس.

وبعد سنتين، التقى ماير ومحمود في مقديشو، لكنهما كانا يقيمان في منطقتين بعيدتين في المدينة الممتدة، لذلك لم يستطع أحدهما زيارة الآخر كما كانا يرغبان. وعندما بدأ الفصل الدراسي ثانية، انتقل محمود إلى مدرسة ماير، بعد أن رضي أن يسير مسافة أربعة كيلومترات ذهاباً وإياباً كلّ يوم.

وحدث أنه كان هناك ثلاثة فتيان آخرين يحملون الاسم الأول والثاني والثالث مثل صديقنا محمود، مما سبب تشويشاً واضطراباً. وذات يوم بينما كان المعلّم يقرأ قائمة الأسماء، تساءل كيف يمكنه أن يميّز بينهم. وأطلق ماير في ذلك اليوم على صديقه لقب «بوساسو»، مع أن محمود أصرّ على أنه لم يأت من البلدة التي تحمل ذلك الاسم، بل من بلدة جي، فالتصق به هذا اللقب.

مع أن بوساسو كان واثقاً من أن دنيا كانت برفقته وتجد متعة في الاستماع إلى قصة طفولته، أجّل لحظة فتح عينيه. وفي مكان ما من البيت ذي الطابقين الذي يتردد فيه الصدى ويعيش فيه وحده، فُتح باب، ثم أُغلق بقوة، ثم تناهى إليه صوت جريان ماء في حوض الحمّام، وتدفق ماء في المرحاض. انكمش وجهه في توقّع حزين ليجدها قد ذهبت، أو أنها قد لا تسمعه أو تستجيب لندائه. وبالرغم من أن عينيه كانتا لا تزالان مغمضتين، فقد أعلمته يده الممتدة

بوجود انخفاض في سريره إلى يمينه، حيث كانت نائمة، وأحس بيديها تتحسسان خديه، تلمسهما بشفتيها، تقبلهما.

كان يبدو أنه رجل راض، سعيد، حتى عندما فتح عينيه ولم يرها في بيته، ولا في أيّ غرفة من غرفه. أجفل عندما سمع صوت صافرة حادة، ثم رأى طائر الرفراف ذا النصف رقبة في المطبخ، وجثم على الكرسي الذي قد تكون قد جلست عليه دنيا.

لكن طائر الرفراف، الذي يُعفى من تقديم أي تفسير، طار.

ارتسمت ابتسامة خجولة على وجهه، وراح بوساسو يجول بهدوء في مطبخه، وكأنه لا يريد أن يزعج ضيفاً لا يزال نائماً في مكان ما في البيت. انتظر الماء حتى يغلي في الإبريق؛ داعب فوهة إبريق الشاي، وكأنه يداعب حلمات بقرة لكي تدر مزيداً من الحليب. كانت حركات يده إلى الأعلى والأسفل لطيفة وأنيقة. وشيئاً فشيئاً استعادت ذاكرته مشهداً من الماضي، وتذكر العالم الذي كان يتقاسمه مع زوجته الراحلة. وانحشرت الهواجس الحالية في عقله عندما لاحظ أنه أعدّ مائدة الإفطار لشخصين، ووضع الصحون والأطباق والسكاكين أمام الكرسي الذي جلس عليه طائر الرفراف.

كان بوساسو قد اشترى طقم الأطباق الخزفية من امرأة دانمركية عندما كانت على وشك أن تعود إلى كوبنهاغن بعد أن عملت لمدة ثلاث سنوات في منظمة إغاثة طوعية اسكندينافية. وأصرّت المرأة على أنها رضيت بأن تبيع الطقم «برخص التراب»، وأنها تكاد «تقدمه مجاناً»، وأنه دفع ثمنه مبلغاً رمزياً، عشرة دولارات أمريكية، بعد أن طلبت إنغريد أن يدفع شيئاً، أيّ شيء. ولكونه أفريقياً، أحس بعدم الارتياح لأن يقدم مبلغاً ضئيلاً قدره خمسة دولارات لقاء طقم من الأطباق الخزفية ظلت تسع سنوات في مقديشو (كانت المرأة نفسها قد اشترته من امرأة إنكليزية كانت تعمل في منظمة طوعية للمعونة تدعى «الحرب على الفاقة»، ودفعت ثمنه بالجنيهات الإسترلينية).

في ذاكرته، عندما جلس لتناول طعام الفطور قبالة كرسي «دنيا»، كانت إنغريد، المرأة الدانماركية شاحبة، وتضع أحمر شفاه فاقعاً جداً. وكانت تتكلم بلهجة ثقيلة وبسرعة، ترشّ قذائف من اللعاب المنبعث من فمها بسرعة مقلقة. وكانت أسنانها الأمامية اصطناعية، نصفها الأعلى بيضاء، ونصفها الأسفل داكنة جداً.

كان بوساسو ويوسور، زوجته المرحومة، قد ذهبا إلى بيت إنغريد لرؤية الأشياء المستعملة التي تعرضها للبيع بأسعار منخفضة. وكانت يوسور هي التي أشارت عليه بأن يقوما بزيارة إنغريد، وحوّلت المرأتان الجلسة إلى حديث عن الجوانب الفلسفية والثقافية لتقديم الهدايا وتلقيها. وكان بوساسو ينصت بانبهار. وكانت إنغريد قد عمّمت مسألة تبادل الهدايا في أوروبا، وكان من الأشياء التي قالتها، إن المرء في قارتها يستطيع أن يعطي الأشياء المستعملة إلى صديق أو قريب فقير يمر في ظروف صعبة، لكن فكرة إعطائها لمجرد إعطائها هي فكرة غريبة، وليست كما هي العادة المتبعة في الصومال. وقالت إن المناسبات هي المهمة، لا الهدايا. فعيد الميلاد مناسبة يشارك فيها الجميع في طقوس عربدة من التقديم والتلقي.

كانت يوسور تنصت، وتهزّ رأسها، وكانت تزداد غضباً، عندما كانت إنغريد تبدي ملاحظة مهينة عن الأفريقيين. وجد بوساسو من الملائم أن يحلل التعميمات التي تطلقها هذه المرأة الدانمركية؛ وعندما بدأت تدخل في التفاصيل بدأ منطقها ينهار.

ففي لحظة ما قالت إنغريد: «لقد ظل طقم هذه الأطباق الخزفية مثلاً في أيدي الأوروبيين الحريصين الذين يعرفون كيف يقدّرون هذا الكنز لمدة تقارب عشر سنوات». ثم أدخلت نبرة من الاستياء في صوتها، وأضافت، «إن ما يحزنني أن أفكّر بأنك، يا يوسور، تتصرفين مثل هؤلاء الأفريقيين الذين لا يعرفون كيف يعتنون بالأدوات الحسّاسة ذات الأرواح، مثل السيارة أو

الحاسوب الذي يضم برمجيات حساسة أو طقم من الخزف هشّ كالطير. وأظن أن الأفريقيين لم يتعودوا على تقدير الهدايا الثقافية والتقنية التي تعطى لهم»، وابتسمت لبوساسو الذي كان خدّه الأيسر هدفاً لكرة طائرة من اللعاب.

مررت يوسور يدها وراحت تربّت على بطنها الحامل، وكأنها تشجع نفسها. ثم التفتت إلى إنغريد. لم يكن يبدو أن هذه الملاحظات الساخرة عن الأفريقيين قد أثارت حنقها، وسألت: «الآن، هل هذه الخزفيات التي بعتها لي ولزوجي، الرخيصة رخص التراب، هدية لنا تقريباً؟».

«هدية تقريباً، نعم».

«أخبريني يا إنغريد»، واصلت يوسور قولها، «إذا بعت هديتك بعشرة دولارات أمريكية، أي ما يعادل بالعملة المحليّة أكثر من راتب موظف حكومي كبير، فماذا تسمين بحق السماء التبرّعات التي تقدمها المنظمات الحكومية أو المنظمات الخيرية في بلدك إلى حكومة بلدي وإلى الجياع فيه الذين يتلقون الصدقات والهبات؟».

«إننا ندعوها «معونة». فقد تكون في شكل أغذية طارئة أو معونة تقنية أو منح يتم شطبها لاحقاً، أو قروض ميّسرة. هناك تعيينات مختلفة، هناك تسميات مختلفة وفق الحالة»، ظلت إنغريد واثقة من كلامها.

فقالت يوسور بوضوح شديد: «إننا نتلقى وأنتم تمنحون».

«بشكل عام، نعم. هذا صحيح».

«لماذا تعطوننا يا إنغريد؟»

صمتت إنغريد، تعتريها الحيرة، ثم سألتها يوسور، «ما الذي يهدف إليه شعبك عندما يتبرع إلى شعبي؟»

«لأنه توجد عندنا أشياء تحتاجونها أنتم الأفريقيون».

فقالت يوسور: «لكن هذا أمر سخيف».

جاء دور إنغريد لتشعر بالإهانة فقالت: «وما المضحك فيما قلته؟».

«بالتأكيد إنك لا تعطين شيئاً ذا قيمة بالنسبة لك لمجرد أن شخصاً آخر لا يملكه أو أنه بحاجة إليه؟».

ساد صمت. نظرت يوسور إلى بوساسو ولاحظت إيماءة تقدير برأسه. لكن كان في رأس إنغرد رأي مختلف: «إن المعونات هي المعونات، سواء كانت جيدة أم سيئة، سواء كانت هناك شروط ملحقة بها ومهما كانت صلاحيّاتها. إنكم تقولون شيئاً لكنكم تريدون شيئاً آخر، أيها الأفريقيون. لقد سئمت الاستماع إلى هذا الهراء. لماذا تطلبون المعونات إن لم تكن تعجبكم؟ إنّ العناوين البارزة في صحفكم مليئة بمناشدات من حكومتكم للحصول على مزيد من المعونات، مزيد من القروض. هراء».

شعرت يوسور بخدر في ساقيها. ولكي تجعل الدم يعود إليهما، وقفت، وراحت تتحرك جيئة وذهاباً وهي تتكلّم: «أخبرني زوجي مؤخراً أن الولايات المتحدة، أغنى بلد في العالم، قد تبرّعت خلال الفترة من ١٩٥٣ إلى ١٩٧١ بما تطلق عليه اسم مساعدات اقتصادية بما يعادل تسعين مليون دولار إلى الصومال، أحد أفقر بلاد العالم. وكان أكثر من ستين مليون دولار مما يسمى «برنامج المعونة» يهدف إلى تمويل خطط التنمية التي تشمل تدريب المعلّمين وشبكة تمديد المياه إلى مدينة مقديشو. لكن هل تعرفين أنّ عشرين مليون دولار تقريباً قيمة الغذاء الذي زرعه مزارعون أمريكيون في الولايات المتحدة، قدمت لنا في أكياس كتبت عليها عبارة «تبرّعت بها الولايات المتحدة إلى جمهورية الصومال»، وبالطبع يجب علينا أن نخصم منها رواتب الأمريكيين الذين يعملون هنا ويعيشون كأمراء في رفاهية وترف لم يعتادوا عليهما في بلدهم. لماذا يجب علينا أن نقبل هذا الهراء الذي لا يطاق؟».

«لا تسأليني»، أجابت إنغريد وهزت كتفيها.

«ومن أسأل؟».

«أنفسنا».

هزّ بوساسو رأسه مفكراً، ولم يقل شيئاً.

تابعت يوسور كلامها، وقد غيّرت نبرة صوتها، «منذ أيام قليلة كنت أذكّر بوساسو بمثل شعبي صومالي: Qeebiyaa qada هل تترجمه إلى الإنكليزية لإنغريد؟» فنظرت إليه المرأتان.

فكَّر قليلاً، ثم قال: «سأحاول أن أترجمه: إن من يوزّع الأضحية لا يتبقى له منها إلا القليل». مبتسماً، قال لنفسه إن هذه مساهمته الوحيدة في الحديث.

قالت يوسور: «إن ما أحاول أن أقوله يا عزيزتي إنغريد، أن اللغة هي نتاج موقف الناس إزاء العالم الذي يجدون فيه أنفسهم. والآن هل يمكنك أن تفهمي لماذا يزعجني سماعك وأنت تصفين الخزفيات التي دفعنا لقاءها عشرة دولارات أمريكية كهدية؟».

فأجابت إنغريد: «لك رأيك ولي رأيي». في تلك اللحظة، أحست يوسور بآلام المخاض وانقبضت تقاطيع وجهها ألماً، وتحرق جسمها بالآهات؛ وعندما حاولت الاقتراب من أحد الكراسي لتجلس عليه، استدار جسمها بسرعة، وكان من السخرية المأسوية، أنها في لحظة ألمها الذي جعلها تشعر بالدوار، كسرت أحد الفناجين الخزفية.

نقلها بوساسو بسرعة إلى المستشفى. كان مخاضاً صعباً، وظلت يوسور في المستشفى أياماً عديدة، وهناك تعرّف بوساسو على دنيا. وأنجبت يوسور صبياً مفعماً بالحيوية سُميّ على اسم الدكتور ماير، لكن صدرها لم يدرّ قدراً كافياً من الحليب وتعيّن عليها أن تكمل إرضاعه بحليب اصطناعي.

لم يكن ذلك ليضايقها لولا ذكرياتها المؤلمة لأنها فُطمت من صدر أمّها؛ فالحوادث التي كانت يوسوز قد نسيتها تماماً، عادت تطاردها بوضوح يثير الذعر، من ذلك أنها سمعت أمّها تسّر لجارتها أنها كانت تستمتع آنذاك بإرضاع

يوسور، التي كانت في الرابعة من عمرها، من ثدييها المثقلين بالحليب، أكثر مما كانت تستمتع بمضاجعتها لزوجها، والد الطفلة.

اعترى يوسور شعور بالكآبة، ولم يكن بوسعها أن تتحمل مخاوفها. لقد بالغت في هذا العيب الصغير، ولم تكن تتوقع شيئاً سوى مستقبل كئيب للطفلة الرضيعة التي تعبدها. لقد انتابها شعور بأن إحساسها الأمومي قد جُرح، وعندها أصبحت عابسة، مقطبة، عاجزة.

ولما كانت قدرة يوسور على التحمل ضعيفة، لم تعد ترغب في أن تلتقي بأحد، وطلبت من بوساسو أن يستشير الدكتور ماير، الذي وصف لها دواء ونصحها بأن ترقد في السرير لتستريح. وأحضر لها ماير طبيباً نفسانياً تحدث معها طويلاً. لقد ساعدتها جميع هذه الخطوات، ولفترة من الزمن، راحت تتصرّف مثل أي شخص له احتياجات عادية، وأحست بالسعادة لوجودها مع رضيعها وزوجها، وطلبت أن تغادر المستشفى حيث كانت تمكث في جناح خاص. وبما أن ماير لم يكن في مقديشو، وافق الأطباء الآخرون على طلبها ووقعوا على أوراق مغادرتها المستشفى.

لم يدرك أحد أن تصبح يوسور عرضة لمزاج كئيب كالموت. ولكي تتغلب على شعورها بالاكتئاب، كانت تحبس نفسها في غرفة النوم الرئيسية حيث تشعر بالأمان، وبدأت تبتعد كذلك عن أمّها وأختها الأصغر اللتين كانتا تأتيان لزيارتها في معظم الأحيان. فقد كانت أمّها لا تتوقف عن التكلم، تطرح أسئلة، وتقترح علاجات تافهة لأمراض يوسور، بعد أن تملكها القلق من أن تموت ابنتها التي تبيض البيضة الذهبية، أو أن يحدث شيء لطفلها الرضيع: فإذا حدث ذلك، سيتوقف بوساسو عن إعالة الأمّ والأخت. ولم تعد يوسور ترغب في رؤية أحد سوى طفلها الرضيع وزوجها بوساسو والخادمة.

وفي لحظة هدوء نادرة، أصبحت في حال أفضل من كآبتها، سألت يوسور بوساسو: «ألست منزعجاً لوجودك وحيداً معي أو مع الطفل في هذا البيت الضخم، بعيداً عن باقي العالم، يا بو؟».

فقال: «طبعًا لا».

«وألا تظن أني مجنونة؟».

«بالطبع لا».

وكانت الخادمة تعتني بيوسور وتلبي حاجات الطفل الرضيع بهدوء وبكفاءة عالية.

وبما أن الخادمة كانت أمّاً لعدة أطفال بالغين، فقد كانت تنصحها بحذر وبصوت لطيف، وتتصرّف معها بعقلانية عندما كانت يوسور توبّخها وتعاملها بفظاظة.

لم يكن جرس الباب يتوقف عن الرنين ليلاً ونهاراً، طوال الوقت. فقد كانت أمّ يوسور وأختها ترغبان في الدخول، وعندما لم يكن أحد يردّ على الجرس، كانت المرأتان تقرعان الباب بقوة حتى يخيّل للمرء أن رجال الشرطة على وشك أن يقتحموا المنزل. وعندما لم يكن يُسمح لهما بالدخول، كانتا تمكثان في الباحة الأمامية، تحت شجرة قريبة من البوابة.

عاد الدكتور ماير بعد يومين، وأُدخل على الفور لرؤية يوسور. وما هي إلا لحظات حتى خرج بوساسو برفقة ماير في سيارته. وعادا بعد ثلاث ساعات برفقة طبيب أعصاب، وانتابت الجميع الدهشة عندما وجدوا جميع الأبواب مفتوحة، وتناهى إليهم عويل نساء. قد كانت النساء الثلاثة يندبن موت يوسور والرضيع ماير.

واختلفت الرواية التي قدمتها الخادمة عن الرواية التي قدمتها أمّ يوسور في أمور جوهرية. إذ يبدو أن الخادمة، بدافع من الشفقة الأمومية، سمحت للمرأة العجوز والأخت بالدخول بعد أن خرج بوساسو في سيارة الطبيب.

وفي الروايتين هناك شرفة تطل على الحديقة، ويوسور تقف على الشرفة. وفي كلتا الروايتين، ضمتْ يوسور الطفل بقوة وقالت: «هل ستكون صبياً محباً وتحضر لي تلك الزهرة الوحيدة في حديقتنا وتعطيني إياها؟».

لكن من هذه النقطة تختلف الروايتان. ففي رواية الأمّ، عادت يوسور، وانحنت لتضع الطفل في مهده، ثم غيرت رأيها وعادت إلى مكانها في الشرفة حيث طلبت من طفلها الرضيع أن يجلب لها الزهرة. وهنا تنتهي قصّة الأمّ. أما في رواية الخادمة، فلم يكن هناك وقت بين اللحظة التي طلبت فيها يوسور هذا الطلب غير العادي من طفل رضيع لم يبلغ أسبوعًا من عمره وبين اللحظة التي ألقت به من الشرفة ليجلب لها الزهرة الوحيدة. وتحدثت الخادمة عن وميض من الجنون برق في عيني يوسور بين قولها كلمة «أعطني» وموتها بعد سقوطها. لكن أين كانت أخت يوسور الصغرى؟ حسناً، كانت قد ذهبت إلى خزانة أختها لتجرب ثوباً لأنها كانت مدعوة إلى حفلة ـ ولم تتمكن من الذهاب إليها.

واتفقت الروايتان على حقيقة واحدة: لقد ماتت يوسور والطفل الرضيع ماير.

مقديشو (وكالة الأنباء الصومالية، ١ آب/ أغسطس)

عُيّنت ليف أولمان مؤخراً سفيرة خاصة لليونيسف، وبصفتها الجديدة هذه زارت عدّة بلدان في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى.

وكجزء من التزامها، ستسافر السيدة أولمان في طائرة لنقل حبوب وأدوية ومعونات طارئة أخرى إلى المناطق التي ضربتها المجاعة والأمراض وسوء التغذية. وقالت السيدة أولمان إنها تشعر بالسعادة عندما ترى ابتسامة تنكسر، ثم تعود وترتسم على وجوه هؤلاء الأطفال، وتشعر بالسعادة عندما تلاحظ أنهم يستعيدون الأمل في بقائهم على قيد الحياة.

وفي مهمّتها الإنسانية هذه، ستزور السيدة أولمان عدداً مختاراً من مراكز التغذية والمشاريع المتعلقة باللاجئين في القارة، التي يقال إنها تحتوي على أكبر عدد من السكان الذين شردتهم الحروب في العالم.

[6]

وفيه تستيقظ دنيا من حلم كان بوساسو يروي لها فيه حكاية. وفي الصباح تجاذبت أطراف الحديث مع نسيبة وماتان. وكانت قد قرأت مقالة في صحيفة وطنية من البارحة

استيقظت دنيا لدى سماعها صوت الباب وهو يفتح بصوت مرتفع. وبعد قليل، سمعت صوت تثاؤب عالياً، ثم وقع خطوات تقترب ثم تبتعد؛ ثم فُتحت النافذة التي تطل على الطريق على مصراعيها، وتسللت حرارة شمس الصباح إلى الغرفة، ولعق انفجار الدفء الجزء المكشوف من وجه دنيا، ولسعه.

«حان وقت الاستيقاظ يا ماما»، قالت نسيبة.

لماذا استيقظت نسيبة في هذا الوقت المبكر، أبكر من أخيها الذي كان يلقب بـ «ساعة منبّه البيت»؟ ولماذا تصرّ على أن يستيقظ جميع سكان الأرض؟

«انفضي عنك كسل النوم يا ماما. هيا استيقظي»، قالت نسيبة، لكن دنيا لم تتحرّك.

«ما خطبكم جميعكم اليوم؟».

أصبحت الشمس، التي لم تعد في مرحلة طفولتها، حارة. وكانت دنيا راغبة في أن تتمسك براحة النوم أطول مدة ممكنة وأن تستأنف حلمها الذي قطعته عليها. لكن ذلك لم يتم. فقد كانت نسيبة تثير بصخب مسألة أنها استيقظت

قبل أمّها أو أخيها، مع أنها كانت آخر من آوى إلى الفراش. وتساءلت دنيا هل هناك شيء يشغل بال ابنتها ـ هل هذا هو السبب؟

«ماما؟».

«لا»، أجابت دنيا. خرجت الكلمة من تلقاء نفسها.

«عما تتحدّثين؟ لا ماذا؟» سألت نسيبة.

يا لرعونة الصغار لأنهم لا يفكرون إلا بأنفسهم، قالت دنيا لنفسها. وتذكّرت المثل الصومالي الذي يقول إن أولادك ليسوا أبويك ـ فتفكير الأطفال وتبصّرهم أشبه ببئر ضحلة ينضب معينها بسرعة.

«أريد أن أخبرك بشيء»، قالت نسيبة، وفي صوتها نبرة من الأهمية.

لم تكن دنيا مهتمة بسماع شيء.

«لن يستغرق ذلك طويلاً، أعدك».

لم تبد دنيا اهتماماً.

«افتحي عينيك واستمعي لي».

«لا»، أجابت دنيا.

«أنت لست في مزاج جيد اليوم».

لم تقل شيئاً.

«من المهم جداً أن أخبرك شيئاً يا أمي».

رقدت دنيا بهدوء ولم تأت بأي حركة. كانت إحدى أذنيها قد بدأت تمتلئ بالهواء، فأحست بشيء من الألم؛ ولم تسمع الأذن الأخرى أيّ شيء وكأنها تعاني من نوبة موقتة من مرض مينير. ثم انزلق جسدها قليلاً إلى تلك المنطقة الغامضة بين الكسل والنوم عندما تذكّرت حلمها، الذي أخبرها فيه بوساسو كيف أن زوجته الراحلة قد بُعثت من بين الأموات، ورأت طفلاً رضيعاً يقبض زهرة بقوة بين أصابعه ذات الأظفار الطويلة. وكان الطفل قد ولد بدون فتحة

شرج، ولما لم يكن هناك جرّاح خبير في المدينة ليثقب له فتحة، فقد مات ولم يحزن عليه أحد.

كانت نسيبة تقول: «ألن تذهبي للعمل اليوم يا ماما؟».

كان قرار دنيا مفاجئاً. فقالت: «لا»، وساد صمت قصير. وسألتها: «وماذا عنك؟ ألن تذهبي إلى المدرسة؟».

«لا لن أذهب»، ردّت نسيبة.

«لم لا؟»

«لأني لن أذهب»، قالت نسيبة.

كشفت دنيا عن وجهها ورمشت عينيها، منزعجة لوهلة، حتى تعودتا على وميض الشمس البراقة.

التفتت المرأتان نحو الباب الذي كان مفتوحاً على الباحة المركزية. لفحت هبّة من الريح وجه دنيا ثم تسللت من النافذة. وسبقت تحية ماتان وقع خطواته الثقيلة. لم ترد نسيبة على التحية. تصوّرت دنيا قسمات ابنها وهو فاغر الفم. كان بوسعها أن تراه الآن في مخيلتها، محدّقا في أخته، مرتبكاً.

«صباح الخير يا أمّي»، قال ماتان، رافعاً صوته.

كانت أفكار دنيا منشغلة في مكان آخر، تريد أن تعرف إن كانت قد رأت عصفوراً يطوي جناحيه ويهبط من السماء نحو الأرض. ولأن دنيا لم ترد على تحيّة ابنها، استغلت نسيبة الفرصة لتقول: «إن تصرف أمّنا غريب هذا الصباح يا ماتان. إنها تتصرّف مثل طفل يرفض أن يتناول طعامه ويرفض كل شيء».

«ألا يوجد لديك احترام للأكبر منك يا أختي التوأم؟»

فردّت نسيبة: «وماذا تعرف أنت عن الاحترام؟»

فقال: «كلّ ما أقوله هو أن تحترمي أمّك».

«وكلّ ما أقوله أن هذا ليس من شأنك»، هتفت نسيبة.

«يظن المرء. . .»، بدأ يقول، لكنه تخلى عن الفكرة التي كان يريد أن يقولها في منتصف الجملة. مشى مبتعداً على أطراف أصابعه، ولم يكد يصدر صوتاً مثل لصّ، وخرج من مكان اكتشف أنه اقتحمه من طريق الخطأ.

«ماتان؟» نادت عليه دنيا ثانية، فقد تذكّرت أنه لم يأت في الليلة السابقة إلى البيت على دراجته بل في سيارة امرأة.

«نعم يا أمّي؟» كان بعيداً عن نظرها. فلم يكن يدخل غرفة دون أن يقرع بابها، حتى لو كان الباب مفتوحاً على مصراعيه.

عندما لم تقل شيئاً، قال: «كنت أريد أن أخبرك عندما جئت إلى البيت ليلة أمس، يا أمّي»، وخفت صوته.

انتظرت، راغبة أن تسمع عن المرأة التي كان معها.

وتابع قائلاً: «إنها بسبب دراجتي يا أمّي. فقد صدمني رجل بسيارته عندما كنت أمتطيها ليلة البارحة، ووقعت على الأرض. كنت أريد أن أخبرك عندما عدت».

استوت في جلستها، وقالت بصوت مرتعش: «هل جُرحت؟» ولفّت لحافاً حول نفسها. «اقترب أكثر، دعني أراك».

كان ماتان طويلاً ونحيفاً، وكانوا يلقبونه في المدرسة لونغو، وتعني بالإيطالية «طويل» لمس مرفقيه حيث توجد كدمات، وكانت على ركبتيه بقعة زرقاء قليلاً، وقال: «لم أصب بأذى».

«أرجو أن لا تركب دراجتك بدون ضوء في الليل».

فقال: «لكن كان الضوء منيراً يا أمّي».

«إذًا لماذا لم يرك؟».

«لأنه لم يكن يشعل ضوء سيارته».

«هل رأيت الرجل الذي صدمك؟ هل سجلت تفاصيل التأمين وكلّ هذه الأمور؟» سألت دنيا.

أومأ ماتان.

سألته أمّه: «أين الدراجة الآن؟».

فقال: «في بيت أحد أصدقائي».

قالت نسيبة التي ظلت صامتة حتى الآن، «اسأليه عن اسم الصديق الذي وضع عنده دراجته يا أمي».

نظر ماتان ودنيا نظرة تأنيب.

«لماذا تنظران إليّ هكذا، كما لو أني ذبحت ناقتكما المفضّلة؟ إني أتكلّم مع أمّي».

«إنكِ سخيفة»، قال، تكاد الكلمة الأخيرة تخنقه.

قالت دنيا لابنيها متوسلة: «أرجوكما لا تتشاجرا».

كانت نسيبة ممتقعة اللون وغاضبة، عندما قالت: «ماما، هل يمكنك أن تفسري لي لماذا لا تريدين أن تكلميني مع أنك تتحدثين مع ماتان مثل امرأة ثرثارة في السوق؟».

«لأنه تعرض لحادث بدراجته».

«ما كنت لتلاحظي ذلك لو كنت أنا من تعرض لحادث».

«ولماذا ذلك برأيك؟» سألها ماتان.

«لأنك صبي وأنا بنت»، قالت نسيبة.

هذا التلاسن بين ابنيها التوأمين ذكّر دنيا بأن نسيبة تضغط على أسنانها أثناء نومها منذ ليال عدة، ربما بسبب شعورها بالتوتر والقلق من شيء ما.

بغضب واضح راحت نسيبة ترتدي بنطالها الجينز.

«إلى أين أنت ذاهبة؟» سألتها دنيا.

«إلى مكان يوجد فيه أشخاص يكلمونني عندما أكلمهم».

«لقد أعددت طعام الفطور، ألن تأكلا؟» سأل ماتان.

غادرت نسيبة الغرفة، وكأنها تأخرت عن موعد هام.

بعد أن تناولت الفطور، أخذت دنيا تقرأ المقالة التي كتبها طارق في صحيفة أول أمس.

قصّة بقرة

هذه قصّة حقيقية، وقعت أحداثها في قرية في منطقة جوبا السفلى في الصومال عن عائلتين على صلة قرابة بواسطة الزواج والدم. ولن أكشف عن هويتيهما. وقد حدثت هذه القصة خلال الشهور التي ضربت فيها أسوأ مجاعة القرن الأفريقي خلال هذا القرن.

كانت شهوراً صعبة، وخاصة بالنسبة لأي شخص لا يسعى لأن ينجو بحياته من المجاعة فقط، بل لأن يتجاوزها أيضاً دون أن تلوث كرامته. وقد عانى الكثيرون من الجوع ومن أشكال أخرى من الضغوط، واكتشف الكثيرون ممن كانوا يعتبرون أنفسهم أنهم طيبون أو شرفاء لم يفسدهم شيء، لخيبة أملهم وفزعهم، أن المجاعات تجعل الناس الذين يتطلعون إلى مثل هذه المثاليات، إما متهورين أو يضعهم ذلك موضع ريبة على الأقل.

فقد عاشت في هذه القرية أسرتان كبيرتان، باب بيت كل منهما يواجه بيت الآخر، وكان أطفالهما يلعبون معاً، والشباب والشابات في هاتين الأسرتين يرقصون معاً ويتزاوجون من بعضهم. وقبل أن تقع المجاعة، لا يذكر أحد أن شجاراً قد نشب بين أحد من أفراد هاتين الأسرتين، وحتى لو نشب شجار، فكان يتوقف على الفور. وكانت الخلافات التي قد يسببها الاحتكاك ببعضهم تنتهي قبل أن يتمكن أحد من التعليق عليها، وكانت الشكوك تُبدد قبل أن تُبذر بذور الحقد في عقل أي منهم، سواء كان طفلاً أو بالغاً، ذكراً أم أنثى.

ثم جاءت المجاعة. وفي الشهور التسعة الأولى قضي على الماشية، وأصبحت أعدادها مجرد حفنة من الحيوانات الضامرة. وفي هذه الأثناء لم تعد الأرض تنتج إلا النزر اليسير، وأصبح المرء يرى أبقاراً ضامرة ناتئة العظام إلى حد أن الغربان كانت تخطئها وتظنها أغصان شجرة أو كالبتوس جافّة، فتحطّ عليها.

وللتعجيل في أحداث القصّة، دعونا نركّز على ممثلين رئيسيين في الأسرتين، اللذين بموجب أخلاقيات هذا الزمن نفترض أنهما رجلان. دعونا نطلق على أحدهما اسم موسى وعلى الآخر هارون. سنتجاهل التفاصيل غير الضرورية، ونبدأ الحكاية عندما لم تتبق سوى بقرة واحدة على قيد الحياة، وبعد أن غادرت جميع الأسر الأخرى المنطقة وانتقلت إلى مراكز التغذية تحت الإدارة الأجنبية. كان هو صاحب البقرة المتبقية.

ولأيام عديدة، راحت العائلتان تتقاسمان كمية الحليب القليلة التي كانت تدّرها البقرة الجائعة، وتكمله ثمار الصحراء التي كان يجمعها موسى، ويقدمها كإسهام منه. وعندما كان يُقترح على موسى أن يتوجه هو وأسرته إلى أقرب مركز تابع لليونيسف لتوزيع الطعام، كان موسى يردّ بأنّه يفضّل أن يموت على أن يقبل هبات من الحبوب التي تزرع في مناطق أخرى، يقدمها لهم الكفّار الذين لا يكنّ لهم احتراماً كبيراً، والذين لم يكن يوافق على طرائقهم في العبادة وأسلوب حياتهم، أو كان يستهجنها، والذين كان يشك في مشاعرهم الإنسانية.

للأرض أساليب في إعالة الذين يثقون بوفرتها، فلم تتوقف أبداً عن مفاجأة موسى بمقدار ما لديها، وما يمكن أن تقدمه لأبنائها. فعندما كان يخرج ليتمشى، كان يصادف أرنباً يجثم في ظلّ شجرة خرنوب يكسوها الغبار، أو يجد حمامة سمينة تقبع في دفء عشّ الحظ، وكأنها تنتظره. وبين الحين والآخر، كان يجري وراءه ظبي صغير، وكأنه يقدم له نفسه. ولقاء اللحم، كان

هارون يقدم لابنة موسى الرضيعة كمية كافية من الحليب تبلل بها حنجرتها الجافة. لكن موسى كان يقسّم كلّ شيء تمنحه إياه الطبيعة إلى نصفين متساويين، قسم له، والقسم الآخر لهارون. وذات يوم، لم تعد الطبيعة تمنحه هذه الأعطيات التي كان يفاجئ بها موسى. وبدأ حليب البقرة يقلّ كثيراً إلى حد أن هارون لم يعد يستطيع أن يقدم قطرة حليب واحدة إلى ابنة موسى الرضيعة. وبزغ فجر اليوم التالي، وهبطت ليلة أخرى؛ وأصبح عطاء البقرة من الحليب أقلّ بكثير من قبل، ولم تعد تكفي لتلبية احتياجات أسرة هارون المباشرة. وكان موسى يتضرع إلى الله، الذي يقال أحياناً إنه يأخذ من الأغنياء ليعطي الفقراء. كان يتضرع ويصلي وينتظر.

وفي اليوم الثالث، حدث أمر غير عادي. فقد دخلت البقرة حديقة بيت موسى ورفضت أن تخرج منها. ولم تنفع معها أي مداهنة أو ضرب بالعصا حتى تعود إلى بيت صاحبها الشرعي. وبما أن موسى كان يتمتع بروح عظيمة، فقد وافق على أن تُحلب البقرة في المكان الذي تقبع فيه، في حديقة بيته، مع أن هارون أوضح له أنه لن يحصل ولا على قطرة حليب واحدة.

وطوال تلك الليلة، أخذ موسى يسمع أصوات بكاء أطفاله الجائعين ولعنات زوجته. لكن بعد منتصف الليل، سمعوا طرقاً خفيفاً على باب بيتهم. وبمزيج من القلق والتوقع المتفائل، ذهب موسى ليفتح الباب، ففوجئ كثيراً عندما وجد أن البقرة تريد أن تُحلب. ماذا كان عليه أن يفعل؟ قالت زوجته إن الثروة تأتي إلى الضعفاء من الرجال الذين لا يعرفون كيف يستغلّونها. وكان موسى قد أقسم على ألا يسرق في حياته. أغلق الباب، وترك البقرة حيث كانت تقف، دون أن تُحلب.

وفي صباح اليوم التالي، أخبر هارون بما حدث، لكن هارون اتهمه بالسرقة والكذب. وقالت زوجة موسى: «ماذا قلت لك؟». لكن عندما حاول هارون أن يحلب البقرة في ذلك اليوم، فوجئ الجميع مفاجأة أخرى. إذ لم تدعه البقرة يلمسها.

عندما لم يعرف ماذا يفعل، توسل هارون إلى موسى، وطلب منه أن يحلب له البقرة. لكن على ماذا يحصل لقاء ذلك؟

قال هارون: «إن ثلث ما تحلبه البقرة لك».

اقترب موسى من البقرة بحذر. ظلت ساكنة وديعة، عيناها كبيرتان مثل بصلتين نبتتا في أرض خصبة. لم تركله، بل استسلمت لمداعباته الحذقة، وبدأ ضرعها يزداد ثقلاً وامتلاء في المرة الثانية. ومع أنه لم يستطع أن يفسّر السبب حتى لزوجته، فقد أطلق موسى اسماً على البقرة وسماها «البقرة مروة». باختصار، بدأت البقرة تدرّ ثلاثة أضعاف الكمية التي كانت تدرّها قبل وقوع المجاعة. وكان يذهب ثلثا الكمية إلى هارون، والثلث الآخر، كما اتفقا، إلى موسى.

لكن هارون لم يكن مسروراً بذلك؛ فقد قال: «إذا كان موسى ساحراً ويسمي البقرة مروة، وتستجيب له، فأنا بإمكاني أن أفعل ذلك». لكنه في ذلك المساء، عندما نادى هارون البقرة مروة، ركلته بقوة في ساقه فسقط الإناء وانكسر. ومرة أخرى، أبدى موسى رغبته الكبيرة في تقديم المساعدة، فحلب البقرة التي درّت حليباً أكثر بأربعة أضعاف، فأطلق عليها اسم صفاء. ومع أنه أقسم لزوجته أنه لم يكن يفكر بالاسم الذي كان سيطلقه على الحيوان حتى اللحظة التي نطق فيها هذا الاسم.

في ذلك المساء، زارت مجموعة من المسافرين العائلتين زيارة مفاجئة. كانت ليلة القدر، التي يُعتقد أنها أكثر الليالي المباركة في السنة، وعلّق الرجال من القرى الأخرى على كثرة حليب البقرة ووفرته. ولبث موسى صامتاً طوال الليل. أما هارون فلم يتوقف عن الكلام، وتحدث كثيراً، مفتخراً بأنه هو صاحب البقرة. وسأل رجل، بما أنه هو صاحب البقرة، فلماذا هي موجودة في حديقة بيت جاره، فردّ هارون بأنها تفضّل الإقامة في بيت صديقه، إذ قال مازحاً: «إنك تعرف كيف تفكر الأبقار»، ثم أخذ يضحك مضطرباً.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت البقرة. وأقسم المسافرون أنهم لم يشاهدوا بقرة تخرج من حديقة بيت موسى، بل شاهدوا رجلاً، وسيماً وطويلاً، يرتدي عباءة بيضاء يتم ارتداؤها عادة للذهاب إلى المسجد لصلاة الجمعة.

ثم بدأت الأمطار تهطل بغزارة، ولفترة من الزمن توقفت المجاعة، لكن ليس على الفور. وعادت العائلات الأخرى إلى منازلها، التي انخفض عدد أفرادها، لأن بعضهم قد قضى جوعاً وهم في طريقهم إلى مراكز توزيع الغذاء، وقرّر البعض الآخر البقاء في المدن التي أوصلتهم إليها المجاعة.

واستمع هارون وموسى إلى قصصهم. وعندما جاء دورهما، حكى هارون روايته من قصتهما، لكن موسى لم ينبس بكلمة. وسأل أحدهم موسى عما إذا كان صحيحاً أن الخضر، الولي الذي يأتي بالمعجزات، النبي إلياس في هيئة أخرى، قد جعل نفسه في هيئة بقرة ليختبرهما؟

لكن موسى لم يعلّق على ذلك.

طارق أكسماد

ما إن أنهت دنيا قراءة المقالة، حتى انتابها شعور بالقلق، وسرعان ما أخذت تقلّب الغرفة كلها رأساً على عقب، فأفرغت الخزانات والأدراج، لكنها لم تكن تعرف لماذا فعلت ذلك، ولم تعرف ما دهاها، أو عما كانت تبحث عنه.

فتحت أدراج ابنتها، واحداً واحداً، وراحت تعيد الأشياء إلى أماكنها بدقة شديدة. وفي الدرج الثاني وجدت مجلة إيرانية عن النساء المسلمات، «محجوبة»، مندسة ومخبأة تحت كومة من ثياب الفتاة الشابة الداخلية التي لم تُغسل بعد. وقالت دنيا لنفسها إن وجود هذه المجلة الإسلامية المتطرفة هنا ليس لأسباب سليمة، ولم تفاجأ عندما وجدت أثناء بحثها لفافة من الأوراق المالية الصومالية، مربوطةً معاً برباط مطاطي. أحست دنيا لوهلة بالخذلان، ولم تعرف ما الذي أصابها.

أفاقت من صدمتها بعد أن عدت النقود وتذكرت أنها كانت قد أعطتها هي إلى نسيبة، لتسدد الدين الشهري إلى صاحب المتجر في المنطقة. هل هذا يعني أن نسيبة نسيت أن تسدد دين الشهر الماضي؟

منزعجة، غيّرت دنيا ثيابها وخرجت من البيت. مشت قرابة مائة متر إلى المتجر العام. صمتت، لم تتمكن من رد تحية جاراتها، قبع لسانها هامداً داخل فمها. لكن المتجر كان مغلقاً اليوم، لأن صاحبه كان خارج البلدة.

عادت دنيا إلى البيت، أكثر حنقاً من قبل.

الجزء الثاني
العثور على طفل رضيع
في صندوق قمامة

[7]

وفيه تعود دنيا إلى البيت لتكتشف أن ابنتها وجدت طفلاً رضيعاً يبدو أن أمه قد هجرته

تعثرت دنيا وكادت تسقط، لكنها سرعان ما استعادت توازنها. فعندما كانت دنيا تهمّ بالدخول إلى البيت، ارتطمت أطراف أصابع قدمها المتقرحة، المستقرة في صندل مكشوف، بعتبة الباب. انحنت دنيا وهي تطلق اللعنات على الجان الأشرار القابعين في طريقها الذين يجعلونها تتعثر في خطواتها، لتلمس أحد ظفري قدميها الكبيرين. ما الذي يجعلها ترتكب مثل هذه الحماقات وتتعثر؟ فقد تذكرت أنها تعثّرت عندما أوقعت أشياء في غرفة الدكتور ماير أمس. وتذكّرت أيضاً أنها تعثرت ووقعت فوق حاجز الآجر في بيت طارق في الليلة التي قررا فيها أن يتزوجا. وتذكّرت أيضاً صورة زبير، زوجها الأول، وهو يتمايل في طريقه، موقعاً أشياء عدة بعكازه. وأقسمت دنيا أن تبذل ما بوسعها للحفاظ على توازنها، وألا تسقط ثانية.

ازداد إحساسها بالدوار إلى أقصى حد، وأحسّت بوجود روح تزور بيتها زيارة أثيرية. حتى أنها لم تتمكن من تفسير كيف توصلت إلى هذه النتيجة، مع أنها كانت واثقة من أنها تشهد شيئاً غير عادي. ثم تناهى إليها صوت نشيج طفل رضيع يؤكد وجوده، نشيج منبعث من الغرفة التي تتقاسمها مع نسيبة. لعلها تظن أنها لا تزال في المستشفى، حيث يمكن أن يكون قد ولد هذا الطفل للتو، وراح يطلق صيحة رقيقة مثل لمسة المشيمة. توجهت نحو الباب المفتوح،

مؤجلة تساؤلاتها. وعند مدخل الباب، لبثت واقفة ثانيتين اثنتين، ورأت طفلاً رضيعاً ملفوفاً بمنشفة، مستلقياً في حضن نسيبة. في لحظة تهيأت دنيا لقول شيء فظيع، وفي اللحظة التالية، انقلب لسانها فجأة وقالت: «أليس جميلاً؟» ومدّت يدها لتحمله، لكن بدا أن نسيبة لا ترغبِ في التخلي عن الطفل.

«لقد عثرت عليه»، قالت الشابّة.

«دعيني أحمله»، طلبت منها دنيا.

«إنه صبي»، قالت نسيبة وهي تعطيها الطفل.

تنفست دنيا بصعوبة وهي تأخذ الطفل بين ذراعيها، وجلست ببطء متعمّد كذلك البطء الذي يعتري شخصاً قلقاً. هل يشبه هذا الطفل الطفل الذي رأته في منامها؟ كانت نسيبة متلهّفة لأن تخبرها بشيء، لكنها لم تبد أي اهتمام.

عندما جلست، ذكّر التشنج الذي ألمّ في عضلتها بألم المخاض قبل أكثر من سبعة عشر عاماً. كما تذكّرت أنها سمعت في الآونة الأخيرة نداءات غامضة عديدة منبعثة من طيور وكائنات أخرى. وعزمت على ألا تصبح مثل السبّاح الذي لا يجيد السباحة، والذي يحاول، كما يقول المثل المعروف، وهو يغرق، أن يتمسك بالزبد الذي يعلو سطح الماء ليساعده على النجاة فيلقى حتفه. لا، لن تطرح على نسيبة أسئلة، ولم تبدِ اهتماماً بمعرفة هوية اللقيط أو أين وجدته، إذ سرعان ما سيأتي الوقت وتعرف فيه كل شيء.

لم تكن تنصت جيداً لنسيبة وهي تشرح لها أين وجدت الطفل الرضيع وحالة القذارة التي كان فيها، لكنها لم تستطع أن تنسى قصة هارون وموسى المنشورة في الصحيفة، القصة التي تحوّل فيها النبي إلياس، وهو النبي خضر عند المسلمين، إلى بقرة، ربما ليختبر قدرتهما على التحمل. هل جاء النبي خضر إلى بيتها الآن متخفياً في شكل طفل رضيع ملقى بالقرب من صندوق قمامة؟

لم تكد تنهي فحصها بسرعة الذي أكد لها وجود فتحة شرج لدى اللقيط،

حتى سمعتا صوت رجل ينادي ويلقي التحية بالطريقة الصومالية. كان الزائر الجديد بوساسو، لذلك قالت له دنيا: «أرجوك تفضل».

انتصبت نسيبة في جلستها وشعرت بالتوتر وكأن الرجل جاء ليطالب باللقيط وليأخذه. أما دنيا، فقد بدأت تلحّ عليها أفكار عدة جديدة، وكان عليها أن تتناول كل فكرة على حدة. أرادت أن تعرف إن كان كلّ حدث منعزل وقع لها هو جزء من سلسلة الحوادث التي ربطت مصيرها بمصير بوساسو.

وقف بوساسو عند مدخل الباب. وراح ينقّل عينيه من نسيبة التي استوت واقفة إلى دنيا، ثم إلى الطفل الرضيع. استعاد جسده المتردد الثقة عندما تأكد أن الطفل ليس ابن دنيا أو ابن ابنتها. وقال لنفسه إنه لا بد أن يكون للطفل علاقة بعمل دنيا، لكنه لم يستطع أن يتأكد كيف. فقد كان في المستشفى، وظنّ الدكتور ماير أن سبب عدم مجيء ممرضته إلى المستشفى عدم تمكنها من إيجاد وسيلة نقل تقلّها إلى هناك.

قالت نسيبة لبوساسو: «لقد عثرنا عليه».

«صحيح؟» قال دون اكتراث وكأنه يعرف بالأمر.

أومأ إلى نسيبة، فبادلته الإيماءة، مقرّاً أحدهما بوجود الآخر. كان يصعب أن يصدق أحد أنهما لم يلتقيا من قبل، وأن بوساسو لم يسبق له أن وطأت قدماه هذه الغرفة. راح يمعن النظر في الطفل الذي أغلق قبضته بإحكام، وسأل دنيا: «أين عثرت عليه؟».

«نسيبة هي التي عثرت عليه»، قالت بجدية وكأنها تعرّفه على نسيبة. تبادل بوساسو ونسيبة الابتسامات.

«أين؟» سأل بوساسو، واتجه ليجلس في الكرسي ذي المسند وراء حاجز الآجر، مقابل نسيبة.

أخبرته أين.

أطرق رأسه، صامتاً. وجال بنظره في الغرفة بموافقة حسّية لشخص يعرفها جيداً. كان يشعر بأنه في بيته هناك، وكان جسده مسترخياً تماماً.

إلى هذا الهدوء دخل ماتان يجرّ دراجته بعجلتها المتأرجحة، وانكمش وجهه بمفاجأة اكتشاف أن أخته التوأم وأمّه في صحبة رجل لم يسبق له أن التقى به من قبل. ثم رأى الطفل الرضيع وظن أن للزجل والطفل علاقة ببعضهما.

همهم «أنا آسف»، واستدار، وكان على وشك أن يدفع دراجته ذات العجلة الملتوية ويبتعد عندما نادته أمّه، وأوضحت له موضوع اللقيط، ثم عرّفته على بوساسو.

أطلق أحدهم اسم ماجاكلاو الذي معناه «الذي لا اسم له» على الطفل اللقيط. لم توافق نسيبة وماتان على هذا الاسم، لكنهما اتفقا على أنه منذ اليوم الذي أطلق فيه عليه: بعد الظهر، بعد أن قالت دنيا، لسعادة نسيبة وبوساسو ومفاجأة ماتان، أنها قررت الاحتفاظ بالطفل. لم تضغط نسيبة على أمّها لكي تتخذ قرارها هذا، لأنها تعرف أن ذلك سيأتي بنتيجة عكسية. واعترف ماتان لاحقاً أنه لم يفكر في الأمر على الإطلاق، أما بوساسو، الذي فكّر في الأمر، فقد أحسّ بأنه لم يكن وثيق الصلة بدنيا كي تستمع إلى رأيه. ومن الواضح أن كلاًّ منهم كان يدلي برأيه. وعندما جلبت نسيبة سريراً لماجاكلاو، أحسّ بوساسو بالرغبة في أن يقدم لهم كلّ الأشياء التي يحتاجها الطفل التي كانت تخص ابنه المتوفى، لكنه خشي أن لا تروق هذه الفكرة لدنيا.

إن الجلبة التي أحدثها اللقيط لكي يأكل، عندما أخذ يبكي مثل حيوان جائع، ذكّرت دنيا بالفكرة الصومالية القائلة «إلمو جني» أي «من ذرية الجان». واستدعى ذلك طيفاً متنوعاً من الذكريات، من بينها ذكريات زوجة زبير الأولى، التي كان يُشك بأنها تعاشر الجنّ. ومع أن دنيا حاولت أن تتجاهل هذه الأفكار، فقد كانت تأتيها بين الحين والآخر. فمثلاً، كيف نسيت نسيبة أن تسدد دين الأسرة؟ ولماذا تبرّعت بالدم؟ قررت دنيا أن تنتظر حتى يحين الوقت

الملائم لتعرف، لأنها لم تكن واثقة من أنها ستحصل على أجوبة مقنعة من نسيبة.

كان هناك شيء آخر. ألم تكن تتطلع دائماً إلى اليوم الذي يكبر فيها أولادها لتتمكن من عمل ما ترغبه؟ وألم تتفاخر أمام بوساسو، في اليوم الذي أوصلها فيه بسيارة الأجرة، بأن لديها الكثير من الوقت؟ أصبح اللقيط الآن حقيقة واقعة. وسنرى إن كان سيتاح لدنيا الآن متسع من الوقت لنفسها، مزيد من الفضاء والحرية الجسدية.

تنحنح بوساسو وقال: «أظن أننا يجب أن نبدأ نفكر بالإجراءات البيروقراطية المتعلقة باللقيط. أقترح أن نسجّله لدى السلطات».

لاحظت دنيا أنه شمل نفسه بكلمة «نسجله». اعتراها السرور.

«لكن هل نعرف ما يكفي عنه، ما يكفي لملء صفحة واحدة؟» سأل ماتان.

«هذه إحدى النقاط الرئيسية»، قال بوساسو. (دهشت دنيا، عندما بدا أن الحديث ودي ومألوف: فقد كان ماتان يتحدث مع رجل بالغ، وصديق أمّه). «نقول إنه لا توجد لدينا معلومات عن أهله، ولا توجد أدنى معرفة عن أبويه».

أومأت دنيا موافقة.

«لا بد أن هناك أحداً يعرف»، قال ماتان، ثم استدرك قائلاً: «يعرف أكثر مما نعرف». نقّلت دنيا نظرها من ابنها إلى ابنتها، وتقلصت تقاطيع وجهها لأنها تهيأت لحدوث شجار بين توأميها. وعلى نحو ما كانت تتطلع إلى ذلك، تتساءل كيف سيعالج بوساسو الأمر.

شغلت نفسها بملامسة خدّي اللقيط، ثم راحت تفك عقد المنشفة التي كانت بمثابة حفاضة. أخذوا جميعهم يراقبونها. بدأت تتحسس قدمي الطفل الصغيرتين، الواحدة تلو الأخرى، ثم مفاصله. كانت تفعل كلّ ذلك بلمسات ممرضة محترفة، وكأنها تنوي أن تسجل التفاصيل في سجل المريض. لقد سبقت القابلة في دنيا كونها أمّاً وامرأة.

كان الهواء مشبعاً بالقلق إلى درجة أن بوساسو لم يعد يستطيع أن يتنشق الهواء. قال: «ربما يجب أن نذهب أنا وماتان إلى مركز الشرطة المحلية ونبلغ عن وجود اللقيط هنا»، ونهض.

ابتسمت دنيا وانتظرت.

ثم قال ماتان باحترام لبوساسو: «قبل أن نذهب أقترح أن تخبرنا نسيبة كيف وأين وجدت الطفل».

انتقلت عينا دنيا من ماتان إلى بوساسو، وتحاشت عيناها عينيّ نسيبة تماماً. فقد كانت الغيوم فوق أفق عقلها داكنة وتكاد عاصفة أن تنفجر.

ماتان، الذي ينحو للحذر، توجّه إلى بوساسو وخاطبه: «على الأقل ستقدم لنا صورة أوضح من الصورة التي نعرفها حتى الآن، من المؤكد أن هذا سيسهّل مهمّتنا»، بدا كلامه معقولاً جداً.

قالت نسيبة: «كان هناك عدد من النساء يتحلّقن حول الرضيع عندما وصلت إلى هناك. كان في سلة. أقول لكم إني لم أر في حياتي مثل هذه الوجوه الخائفة ـ أعني النساء. لم يكنّ يقتربن من «الذي لا اسم له» ولم يكنّ يدعن أحداً يقترب منه أيضاً».

كانت العيون تتنقل يمنة ويسرة. كان الجميع في حيرة من أمرهم، لكن العاصفة لم تهبّ بعد.

وواصلت نسيبة كلامها: «في البداية، حذرتني النساء بأن لا ألمسه. ثم قالت إحداهن إنها ستبلغ الشرطة عن وضع الطفل ـ هذا صحيح، فقد استخدمت عبارة: وضع الطفل، كما لو كان مرضاً. ابتعدت، غاضبة، ويمكنكم القول إنها شعرت بالإهانة، ثم انخرطت الأخريات في نقاش عن الحالة السيئة التي آلت إليها الأمور، وما إلى ذلك، تعرفون عما يتحدث الناس هذه الأيام، الذين يشتكون من نقص البنزين والطعام. تعرفون كيف يتحدث هذا النوع من النساء»، وغيّرت نسيبة نبرة صوتها لتقلد المرأة، ومضت تقول: «قالت: «هل

تظنن أنه ترمش للشابّات رمش الآن قبل أن يضاجعن أيّ رجل في سيارة يكون مستعداً لإيصالهن أو يقدم لهن هدية؟». حسناً، لقد تحدّيتها، وقلت لها إنها يجب أن تلوم الرجال، لا الفتيات الشابّات. وقد جعلهن ذلك يدخلن في جدال فيما بينهن، مع أنهن كن يوافقن على ما تقوله في الكثير من الأحيان. وادعت إحداهن أنه توجد علاقة بين القذارة الحضرية وعدم وجود قانون أخلاقي جيد في مدينة مثل مقديشو. لم توافق امرأة أخرى على ما قالته، لكن امرأة ثالثة وافقت على ما قالته المرأتان اللتان تحدثتا من قبل، وأضافت أنه توجد علاقة بين الانحراف في المدينة وعدم احترام الشباب لمن يكبرونهم سناً، وأعطت أمثلة عديدة».

صمتت نسيبة برهة، مستمتعة بالانتباه الذي وجدته فيمن يستمعون إليها، ومثل الممثلة الجيدة، قرّرت أن تنهي حديثها قبل أن يقاطعها أحد، «وبينما كنّ جميعهن منهمكات في الحديث، سرقت اللقيط، وأخذته دون أن تراني واحدة منهن، وأحضرته إلى هنا».

«لماذا؟» سألها ماتان.

تظاهرت نسيبة بأنها لم تسمع سؤاله والتفتت إلى بوساسو الذي سألها بدوره: «أتقولين إنه لم يرك أحد؟».

«أقصد أنه لم يتبعني أحد إلى هنا، مع أن هذا لا يهم في جميع الأحوال».

أراد ماتان أن يسأل سؤالاً آخر، فقال: «هل وضعته في كيس بلاستيك فيه ثقوب، أم ماذا؟» من الواضح أنه كان يتخابث، «ولماذا تسرقينه أصلاً؟».

«ما شأنك في أن تسألني هذه الأسئلة؟».

«من شأني أن أسألك بما أنك أحضرت لقيطاً إلى البيت دون استشارة أحد». كان ماتان هادئاً، وأضاف: «إنه شأني لأنه إذا بقي هنا، فإنه سيشاركنا هذا المكان الصغير الذي نعيش فيه، أو إذا بكى في الليل فلن يغمض لنا جفن، حسناً، كما ترين يا عزيزتي، يا أختي التوأم، فهذا شأني كما هو شأن أمي أيضاً».

ابتسامة جعلت عينيّ دنيا داكنتين. دون تفكير أعجب بوساسو بما قاله ماتان، ولمس مرفق الشابّ، وكأنه يهنّئه بعد أن ألقى خطاباً هاماً. وقفت نسيبة بينهما متكئة بجسدها على الحائط دون اتزان، وقالت لماتان: «ماذا لو رفضت أن أخبرك المزيد؟».

«لن تفعلي ذلك لأنه لن يجدي نفعاً».

قالت نسيبة متحدية: «لا تستطيع أن ترغمني على أن أقول أكثر مما أريد».

نظر ماتان نحو أمّه، راغباً في الحصول على توجيهاتها. غطّت تعابير مختلفة وجه دنيا، مقسّمة إياه إلى قطع من الحزن والزهو. لم تقل شيئاً.

توجهت نسيبة بكلامها إلى بوساسو الذي كان يستمع باهتمام: «كان أمراً مثيراً للغاية أن أحضره معي إلى البيت. إن وزنه لا يتجاوز بضعة باوندات. لقد أحسست وكأني أدوّن ملاحظات ممنوعة في امتحان رغم وجود مراقبين مرتابين».

«من أين حصلت على الحفاضة وزجاجة الإرضاع؟» سألها ماتان.

«أعطتهما لي إحدى الجارات».

«للكذبة ساق قصيرة، يا نسيبة»، قال ماتان، «وهي لا تجري بسرعة الحقيقة، التي ستلحق بها عاجلاً أم آجلاً. أشكّ في أن ما تخبريننا به ليس صحيحاً كله».

هنا قالت دنيا: «أتمنّى أن نستطيع أن نأخذه إلى المستشفى ليفحصه طبيب الأطفال».

انتاب نسيبة شعور بالقلق، وقالت: «هل يوجد شيء يا أمي؟».

«لدينا جميعنا جروح مرئية ومخفية»، قالت دنيا، وهي تدهن مرهم البنسلين حول منطقة سرة الطفل، «وبعض الجروح قابلة للشفاء، وبعضها غير قابل للشفاء».

لقد لاحظ جميع من في الغرفة أن سرة اللقيط ملتهبة، لأن الصوماليين يربطون هذه المنطقة بالناقة التي يقدمها الآباء إلى المولودين حديثاً، وهي أول هدية يتلقاها الطفل الذكر. ويربط الصوماليون طرفي الحبل السرّي بشعرة تؤخذ من ذيل الناقة التي تقدم كهدية. ولم تقدم مثل هذه الهدية إلى الطفل الذي لا اسم له.

«يمكننا أن نأخذه إلى المستشفى، أليس كذلك؟» سألتها نسيبة، ثم التفتت إلى بوساسو وسألته: «الديك سيارة ـ لا أظن أنك تمانع في توصيلنا إلى المستشفى، أليس كذلك؟».

فقال ماتان: «لا يمكن عمل ذلك».

«لم لا؟» سألت نسيبة أخيها التوأم.

«لا نستطيع أن نأخذه إلا بعد أن نسجله في سجلات الشرطة»، أجاب بوساسو.

«هذا منطق مثالي للرجال»، قالت نسيبة، «هذا سخيف!».

«إن التكاثر الذاتي من الطبيعة البيروقراطية»، واصل بوساسو كلامه، «فأولاً يجب أن يكون الذي لا اسم له موجوداً. ولكي يكون موجوداً فإنه يحتاج إلى أوراق رسمية. ولكي يحصل عليها يجب أن يكون له اسم. ولكي يكون له اسم يجب أن يكون له أبوان، يتم التحقق من هويتيهما. عندها فقط يمكن للبيروقراطية في المستشفى أن تعالجه».

«يجب أن نفعل شيئاً»، قالت نسيبة، وتوسلت إلى أمّها: «أرجوك اطلبي من أحد أن يفعل شيئاً».

«إذًا اذهبا»، قالت دنيا لماتان وبوساسو.

غادر ماتان بوساسو. عندما رفعت دنيا عينيها رأت أن نسيبة تتهيأ للمغادرة. لم تكن ترغب في البقاء وحدها مع أمّها لكي لا ترغمها على إخبارها بكلّ ما تعرفه عن اللقيط؟ سألتها دنيا، «إلى أين أنت ذاهبة، ناسي؟».

«لن أتأخر».

كادت تطلب من ابنتها أن تنقل أطيب تحياتها إلى أمّ الرضيع وتطمئنها بأنه سيحظى برعاية ممتازة. لكنها لم تقل شيئاً، بل ثبّتت نظرتها على يعسوب دخل الغرفة. وغادرت نسيبة.

خرج اليعسوب من النافذة التي دخل منها، لكن ليس قبل أن يلقي تحيته على اللقيط، الذي حام بضع لحظات فوقه، ولمس جبهته بقدمه لمباركته؟

لم تمض دقيقة على خروج نسيبة واليعسوب حتى بدأ الذي لا اسم له يبكي بحرقة. تساءلت دنيا إن كان قد افتقد رائحة ابنتها أو وجود اليعسوب. أخذ اللقيط يبكي كما لو كان ممسوساً، وهيمن على وعي دنيا كما لم يفعل أي طفل رضيع آخر، حتى أطفالها. وجمع في بكائه كل ما يقدر عليه من سعال وعطس وتجشؤ وبلّل نفسه أيضاً. وللمرة الأولى في حياتها، لم تشأ دنيا أن تبقى وحدها مع طفل رضيع. تمنّت أن يكون هناك شخص آخر يساعدها، يشاركها معاناتها، ويشهد على ما يحدث.

استجيب دعاؤها. كانت امرأة تصيح، «هودي، هودي». وظلّت دنيا تكرر الترحيب المعتاد «هودين»، لكن لم يكن هناك صوت عال يكفي لإغراق غضب اللقيط. دخلت امرأة مسنة، أحنت السنون ظهرها. سعدت دنيا لرؤيتها. تذكّرت أن المرأة جارتها، لكنها لم تتذكر اسمها.

قالت المرأة العجوز: «إذًا أنت هنا، أيها الصغير»، ولمست خدّي الطفل المبللين بالدموع وابتسمت، «جميع من في الحيّ يتحدّثون عنك وعن كرم دنيا، وخاصة في الأوقات العصيبة التي نمر فيها، وتبكي عندما لا يكون هناك سبب لذلك».

صمت اللقيط، وراح يستمع إلى كلمات المرأة العجوز وكأنه يفهم كلّ كلمة تقولها. وبدأ ثمة شيء يتضح لدنيا: فقد كان الذي لا اسم له يفتقد إلى الأصوات البشرية، لا إلى الاتصال الجسدي. هل من المحتمل أن يسمع

همهمات من كلام البشر منذ اللحظة التي ولد فيها؟ فلم تتذكر دنيا أن نسيبة قد ذكرت شيئاً بأن الرضيع كان يبكي عندما كانت النساء العجائز الفضوليات يتحدثن. من المؤكد أنه لم يكن يبكي عندما كان يوجد أربعة أشخاص في هذه الغرفة يتناقشون عما يجب عمله.

«إنه على ما يرام»، قالت العجوز، «أليس كذلك؟».

«نعم».

«إنك كريمة جداً»، أخبرت دنيا، «بارك الله فيك».

أحست دنيا بأنها خرقاء وخجولة. ثم لاحظت وجود شعرة طويلة على شفة المرأة العجوز العليا، شعرة واحدة تنبت من شامتها الداكنة مثل التربة الشديدة الخصوبة. لم تتمكن دنيا من تحويل بصرها عن الشعرة التي كانت تتحرك بنشاط مثل قرون الاستشعار في حشرة، عندما أخذت العجوز تقول: «إن حفيدتي تذهب إلى المدرسة التي تذهب إليها ابنتك، لذلك فإني أعرفك. لعلك تعرفين حفيدتي أيضاً، الفتاة التي لا تحمل اسماً صومالياً ـ مارلين. لن تصدقي ذلك، لكنها سُمّيت على اسمي، وأنا اسمي مريم. إنها تقول لي إن مارلين اسم ممثلة مشهورة ولم تعد على قيد الحياة. كما تعرفين الشباب هذه الأيام، يجلبون أشياء غامضة وأساليب أجنبية إلى حياتنا».

«نعم، أعرف مارلين»، قالت دنيا.

جلست العجوز على الكرسي الذي أشارت إليه دنيا، ومضت العجوز تقول: «لقد جئت لأقدم لك مباركة بيتنا. لقد جئت قبل الآخرين لكي أقول لك أن لا ترددي في طلب أي مساعدة للاعتناء بالرضيع عندما تذهبين إلى عملك ويذهب أطفالك إلى المدرسة».

فقالت دنيا: «إنه لطف كبير منك أن تعرضي ذلك، ويسعدني أن أقبل عرضك»، ورأت دنيا العجوز وهي تنظر إلى الرضيع بقلق.

«هناك الكثيرات اللاتي يمكنهن تقديم المساعدة»، قالت المرأة، «يوجد عدد

من الشابات في بيتنا؛ يمكننا دائماً أن نقدم المساعدة إذا دعت الحاجة. لذلك أرجوك أن لا تترددي في أن تطلبي عندما تحتاجين إلى شخص يخفف عنك هذا العبء».

طمأنتها دنيا وقالت: «لن أتردّد في ذلك. شكراً لك».

ثم مدّت العجوز يدها لتلمس الرضيع. كانت على قفا معصمها كتلة بارزة مثل حدبة. وقالت: «إنك لم تذهبي إلى العمل اليوم مثلاً، أليس كذلك؟».

«لا علاقة لعدم ذهابي إلى العمل بالرضيع»، قالت دنيا.

«أقصد، قد لا تستطيعين أن تذهبي إلى العمل غداً؟».

كانت العجوز تتوقّع اتخاذ قرارات سريعة، أشياء لم تفكر بها دنيا من قبل. وذلك لأنها لم تفكر بالكثير من الأشياء، ولم يكن أحد يعرف ماذا سيحدث، وخاصة دنيا.

«إن ابنتك تعرف أين نسكن، ليس بعيداً من هنا»، قالت المرأة لدنيا، «تذكري أن اسم حفيدتي مارلين»، وهزّت رأسها بحزن، وأضافت: «أريد أن أقول لك إني لا أحمل أي كره لهذه الممثلة الأمريكية، لكني أتمنى أن تتذكّر حفيدتي دائماً بأنها سُمّيت على اسمي، لا على اسم امرأة أمريكية عارية تزين صورها تخيلات الرجال وغرفهم، كما أني لن أعيش إلى الأبد».

ثم نهضت لتغادر، وكانت كلّ خطوة تخطوها وكأنها في محنة. وقفت عند المدخلِ وقالت: «تذكري أن لا تترددي. يمكننا أن نساعدك في إرسال فتاة لترعى الطفل».

«نعم، سأتذكّر اسم مارلين»، وعدتها دنيا.

كان هناك رجل يقول «هودي هودي»، وثمة رجل آخر لم يتوقف عن الكلام، محاولاً أن يشرح وجهة نظره. أعلن بوساسو عن عودته هو وماتان، وكان الشابّ يتوق للفت انتباه الرجل الذي يكبره سناً. عندما تجاوزتهما العجوز، وهي خارجة، أفسحا لها الطريق تقديراً لعمرها وصمتا.

ثم قال بوساسو بقلق: «يقول المفتش الذي يرسل لك أطيب تحياته، إنه لم يبلغ أحد عن رضيع مفقود، ولم يبلغ أحد عن رؤية طفل قرب صندوق قمامة. ويقول إنه يشعر بالامتنان لأن يعرف ذلك، ويسره أن يعرف أن اللقيط هو بين يديك القديرتين، وهو على ثقة بأن وجوده لن يشكل إزعاجاً لك».

أومأت دنيا برأسها بصمت.

«لكن البيروقراطية هي البيروقراطية»، تابع بوساسو كلامه، «ويقترح المفتش أن نقوم أنا وأنتِ بتسجيل الرضيع باعتبارنا أولياء أمره، لأني أنا من بلّغ عن الحالة شخصياً ووقّع على المحضر».

«أنا وأنت كأولياء أمر اللقيط؟» قالت دنيا، متسائلة ماذا يمكن أن يعني هذا في المستقبل. وتساءلت أيضاً إن كان يعتبرها شيئاً مفروغاً منه.

«وتساءل المفتش إن كان بوساسو يرغب في أن يضع اسمه كمسؤول مشارك ـ هذه هي الكلمة التي استخدمها ـ فقط لكي يكون في مأمن»، قال ماتان، «وهذا ما فعلناه، وضع اسميكما كمسؤولين مشاركين عن اللقيط».

كان ثمة شيء لم يعجبها في الأمر كله، لكنها لم تعرف ما هو. هل من الممكن أن لا يكون بإمكان امرأة غير متزوجة، في منتصف الثلاثينات من عمرها، ولديها طفلان مراهقان يذهبان إلى المدرسة، أن تعتني بطفل رضيع آخر، أي اللقيط؟ هل من الممكن أن وضع اسم بوساسو كمسؤول مشارك سيبدو في الأوراق الرسمية أفضل بالنسبة لها؟

وأضاف بوساسو قائلاً: «وأقرّ المفتش انه لا توجد لديه فكرة عن الوضع القانوني لمثل هؤلاء اللقطاء الذين يتم العثور عليهم، بما أنها ظاهرة جديدة، كما قال، وثمرة من ثمرات هذا المجتمع الإباحي».

ثم أضاف ماتان بقوله: لقد ذكرت هذا المثل الصومالي للمفتش: «من يجد شيئاً لا يطالب به أحد، يصبح ملكاً له».

«لقد طرح المفتش أسئلة كثيرة لم تكن لدينا أجوبة عليها»، قال بوساسو

موضحاً، «بصراحة لم يكن من المفيد عندما قال ماتان إن نسيبة تعرف أكثر بكثير مما أخبرتنا به».

«ما الذي جعلك تقول هذه الملاحظة الغبية؟» قالت دنيا لماتان.

«أنا آسف يا أمّي»، قال ماتان، «لكن نسيبة تعرف أكثر بكثير مما أخبرتنا به، ويجب أن نرغمها على إخبارنا بكل شيء».

«لماذا؟».

«لمصلحة جميع المعنيين بالأمر».

أعادت دنيا الرضيع النائم إلى مهده ووضعته برفق، ثم التفتت إلى ماتان، وقالت: «هل أطلب منك أن تخبرني بكلّ ما تعرفه عن... كلّ شيء وكلّ شخص؟ ألا توجد هناك مناطق من حياتك يجب أن تبقى من شؤونك الخاصة؟ هل حدث وسألتك كيف تمضي أوقاتك، أو من هم أصدقاؤك يا ماتان؟».

«لا» قال موافقاً، «لكن هذا الأمر مختلف».

«لنفترض أنها قالت إنها لن تخبرنا بأيّ شيء. فماذا سأفعل؟ أأضربها؟ هل أرمي اللقيط في صندوق القمامة مرة أخرى؟ إني لن أضغط على نسيبة لتخبرني بأيّ شيء لا تريدني أن أعرفه»، قالت دنيا. وعندما انتهت منه، قالت لبوساسو: «كيف سجلتما اللقيط؟».

«قدمت تصريحاً ووقّعت عليه»، قال بوساسو، «وبما أنك لم تكوني معنا، وقّع ماتان عوضاً عنك. قدمنا كلّ ما نعرف من تفاصيل. وفتح المفتش ملفاً كتب عليه: رضيع مهجور برعاية دنيا. وقال لنا إنه سيصدر نشرة إخبارية، لتذاع في إذاعة مقديشو. يجب أن نعلمه عندما نأخذ الرضيع إلى المستشفى لإجراء فحص طبي شامل، على نفقتنا، وهو أمر لم أعترض عليه. إن الفكرة تكمن في ترك فرصة لوالد أو أبوي اللقيط أن يغيّرا رأيهما، ولأن طبيب الأطفال قد يجد الأسباب التي دعت الأبوين لهجره. بمعنى آخر، هل يتمتع الرضيع بصحة جيدة، أم أنه مريض؟».

«ثم ماذا؟» سألت دنيا.

«سيقرر مجلس المدينة إن كان سيعهد إلينا بمسؤولية تربية اللقيط أم لا، بما أننا مسؤولان عن ذلك».

«أنا وأنت؟» قالت دنيا، ضاحكة.

«وبعد المثول أمام المجلس، سيقرر إن كنا ملائمين لأن نكون أبويه».

«بشرط أن نتزوج؟» سألت دنيا.

«ربما».

«كفى»، قالت دنيا.

ساد صمت ولم يفه أحد بكلمة لوهلة. ثم انفجرت رئتا الرضيع ببكاء عنيف تجاوز حدة البكاء الذي أطلقه عندما كان وحده مع دنيا. فعندما كان الجميع يتكلمون فوقه، كانت أصواتهم تجعله يصمت.

وللمساعدة في إسكات اللقيط، حكى ماتان قصة من التراث الشعبي العربي:

دعا ذات يوم جحا الأحمق الحكيم، عدداً من الأصدقاء إلى الطعام، لكنه اكتشف أنه لا يوجد لديه قِدر كبير يكفي لطهو الطعام. فاستعار قِدراً من جار له، ووعده بأن يعيده له. وفي عصر اليوم التالي، أعاد جحا القِدر الضخم الذي استعاره، لكنه وضع قِدراً أصغر في داخله. لكن جاره ذكّره بأنه كان قد أعاره القِدر الكبير فقط. وربما كان قد استعار القِدر الصغير من جار آخر؟

فقال جحا: «فكّر بالأمر، إن قِدرك الكبير أنجب قِدراً صغيراً في الليل»، وقد قلت لنفسي إنه ليس من العدل أن أخفي عنك هذه الولادة الأعجوبة، وأضاف يطمئنه، «وأصبح القِدر الكبير والقِدر الصغير لك، ويمكنك أن تأخذهما».

أُعجب الجار كثيراً بهذا، وقال إن جحا رجل محترم وجدير بالثقة ويندر أمثاله. افترق الرجلان، وكلّ منهما يمتدح الآخر، ويحمد الله أيضاً.

وبعد قرابة شهر، استعار جحا القِدر الكبير من الجار نفسه لغرض مشابه، لتقديم وليمة. وعندما لم يُرجع جحا القِدر الكبير في اليوم الموعود، ولم يرجعه بعد أسبوع، ذهب الجار إلى بيت جحا شخصياً، وطلب منه أن يعيد له قِدره.

أخفض جحا رأسه وقال: «أنا آسف، فقد نسيت أن آتي وأن أعرب لك عن حزني، فقد مات قِدرك الكبير ودفنّاه».

«مات؟» سأل الجار غير مصدق ما تسمعه أذناه.

«هذا صحيح. لقد مات ودفنّاه».

أطلق الجار ضحكة خبيثة، وقال: «من سمع عن قدر نحاسي يموت ويدفن تحت التراب؟».

فردّ جحا: «فكّر بالأمر؛ إذ لم يسمع أحد أيضاً عن قِدر نحاسي كبير أنجب قِدراً صغيراً».

انصرف الجار مهزوماً، ولم يعد يزعج جحا.

[8]

وفيه يظهر أخو دنيا غير الشقيق وتنبعث العداوة القديمة بينهما
وتزور دنيا ابنتها الصغرى من زواجها الثاني
لكن بوساسو يكون الزائر الأول في ذلك الصباح

أصبح اللقيط ذريعة ممتازة لكي يقوم بوساسو بزيارة بيت دنيا عندما يشاء. ففي الليلة الماضية، جاء في الساعة العاشرة، وعندما رأى الأنوار مضاءة والنوافذ والأبواب مفتوحة، دخل، شبه معتذر. وعندما طُلب منه الانضمام إليهم، شاركهم في تناول وجبة لم تُعدّ جيداً. لكن أحداً لم يتوقف عند الشكليات. وقد واتت نسيبة الشجاعة لتقول له: «هل تريدنا أن نقدم لك فراشاً، بما أنك تزورنا كثيراً؟». لكنه أخذ كلامها بروح طيبة وأجاب مازحاً بأنه يتشرّف بقبول مثل هذه الضيافة الكريمة، وخاصة من نسيبة. وكانت المرأة العجوز هناك، فشاركتهم مرحهم، وقالت له: «لكن بالطبع إنها تمازحك».

وتحوّل اللقاء إلى حفلة، حيث وصل المزيد من الأشخاص بعد مجيء بوساسو ولم يغادر أحد إلا بعد منتصف الليل. وافتتن بالتعرف على مارلين التي كانت تشبه صاحبة الاسم نفسه. وكانت هي وماتان ونسيبة يتناوبون على إعداد أباريق الشاي وتقديمه، فيما كان الجيران الآخرون الذين جاؤوا لرؤية اللقيط وزيارة دنيا يتنقلون بين اليأس والتفاؤل، وبين الفوز والخسارة في لعب الورق. وكانت مريم العجوز تحمل الرضيع أو تغيّر حفاضته عندما تدفق من معدته سيل من الإسهال، كما كان يفعل غالباً، مما بث الذعر في نفوس الجميع. وسُئلت

دنيا عن رأيها المهني وعما إذا كان عليهم أن يقلقوا أم لا، فاقترحت الانتظار يوماً آخر.

وجلس عدد من الجيران الفضوليين في مجموعات في الهواء الطلق خارج بيوتهم التي لم يكن يدخلها الهواء جيداً، يتجاذبون أطراف الحديث وهم يراقبون زوّار دنيا آتين غادين مبدين اهتماماً شديداً. وعلّق بعضهم على الانسجام بين توأميّ دنيا وبوساسو، وبين دنيا نفسها وبوساسو.

وعند نحو الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل، غادر بوساسو في سيارته، وعاد بعد أقل من نصف ساعة وهو يحمل شيئاً في كيس. ولم يتمكن المراقبون من معرفة ما إذا كان قد أحضر دواء للرضيع أو طعاماً للكبار. لكن الجالسين في الداخل قالوا إن كمية كبيرة من الشاي قد احتسيت، وخسر آخرون وربح آخرون في لعبة الورق. وكان في الضحكات التي قد يكون قد سمعها أحدهم، نبرة من التوتر مشوبة بالسعادة. وربما رأى الجالسون في غرفة اللقيط النظرات الهادئة التي كانت تتبادلها دنيا وبوساسو.

قال بوساسو، وهو يظلل عينيه من الشمس: «صباح الخير يا دنيا».

بدا أنها كانت سعيدة لرؤيته، مع أنه حدس من عينيها الحمراوين أنها لم تكد تنام جيداً. ساد البيت هدوء شديد، فلا بد أن نسيبة قد خرجت، ولا بد أن ماتان الذي كان باب غرفته مغلقاً، نائم. وكانت هناك فتاة صغيرة لم يرها بوساسو من قبل تغسل الحفاضات والمناشف. هل هذه هي الفتاة التي وعدت بإرسالها جدة مارلين، لمساعدتها موقتاً؟

«هل نمتِ جيداً؟» سألها.

«ليس لفترة تكفي لأن أحلم»، قالت.

خفقت طبلتا أذنيه مع استثارة نبضات قلبه، وقال: «كنت أتمنّى أن أخفّف عنك»، وتوقف مفكراً، «لم لا؟».

سألته: «هل وصلت إلى البيت بسهولة؟».

فقال: «لا أعرف كيف، لكنني وصلت. لقد قادتني السيارة إلى البيت».

صمتا، نظر أحدهما إلى الآخر، ابتسما، ثم أشاحا بنظراتهما.

ثمة شيء كان يجعلهما يشعران بالقلق. كان ذلك بادياً عليهما بالطريقة التي كانا يحدقان فيها، ثم تفادى أحدهما النظر في الآخر.

قال: «قبل أن أنسى. ماذا ستفعلين هذه الليلة؟».

لم تكن عيناها مركّزتين، وكانت قبضتها على الوقت غامضة. وجدت نفسها تحدّق في أصابع يديه الطويلة، وشعرت بالرغبة في لمسها. قالت: «إني مشغولة به»، تقصد اللقيط، وأضافت: «لماذا؟ هل تريدني أن آخذك إلى السينما؟».

كان صوت المذياع ينبعث قبل وصوله، وراح يحدّق فيه الآن، غير منصت إلى الثرثرة المنبعثة منه، بل كان يبدو وكأنه قد تذكّر حادثة من ماضيه. أوضحت له دنيا لماذا أشعلت المذياع: إذ يبدو أن اللقيط يرغب في الاستماع إلى ضوضاء مستمرة، وإلا فإنه ينطلق في بكاء حاد يثير القلق.

قال بوساسو: «كانت الساعة قد تجاوزت الثانية عندما وصلت إلى البيت، ووجدت رسالة من ماير يدعوني فيها إلى العشاء. وكتب ملاحظة سألني فيها عما إذا كنت ترغبين في أن تشرفيه بوجودك ـ بمعنى أوضح، إن كنت تودين أن تنضمي إلينا».

«لماذا في الملاحظة؟» سألته، بابتسامة.

«أظن أنه غير متأكّد من علاقتنا أو إن كنت ستقبلين دعوته. بالإضافة إلى ذلك، ربما ظننتِ أنه من التطاول أن يقترح أن أحضرك معي. هذا هو السبب».

«لماذا ذلك؟» قالت.

«لعله إذا وجّه لك دعوة رسمية ورفضتها، فإنه سيشعر بالإهانة. لكنك إذا أتيت رغم دعوته لك في ملاحظة، التي هي مجرد استدراك، فإنه سيتشرّف بزيارتك. لا أعرف».

«وماذا إذا لم أذهب؟».

«ستكون الزيارة مملّة، إذا كنا أنا وهو فقط».

«ماذا تريدني أن أفعل؟».

«أرجو أن تأتي».

«إذًا سآتي».

تحركا كلاهما، وكأنهما سيتعانقان، لكنهما لم يفعلا ذلك. شعرا بعدم الارتياح وحدهما وتمنيا أن يكون معهما شخص آخر. فإذا كان معهما شخص آخر، فلعل حدّة القلق ستخفّ، وسيكتسي القلق الناشئ عن وجودهما بمسحة من النبل.

بدا بوساسو متلهّفًا للمغادرة، فقالت له: «أرجو أن لا تذهب».

نادت ماتان، الذي خرج من غرفته، مرتدياً مئزراً ومنشفة لفّها حول رقبته، يحمل كتاباً في يده. لكنه اختفى بسرعة ما إن رأى بوساسو، وعاد وخرج بعد بقليل، مرتدياً بنطالاً أنيقاً وفانيلة أكبر من حجمه، مرسومًا عليها شعار اليونيسف. ماذا يحب بوساسو أن يشرب؟

«شاي من فضلك»، قال بوساسو الذي شعر بارتياح أكبر الآن بعد أن دخل هذا الشاب إلى المشهد، ثم أضاف: «ماتان، لقد أحضرت قليلاً من السكّر. إنه في علبة حليب البودرة، في المقعد الأمامي من سيارتي»، وقدم له مفاتيح سيارته، وأضاف، «هل تستطيع أن تجلبه؟».

لم يول اهتماماً بالمفاتيح، ولا بالسكّر، تلك المادة التي لم تعد متوفرة بسهولة في أرجاء البلد، قال ماتان: «يوجد عندنا سكّر، أليس كذلك يا أمّي؟».

فقالت: «أظن ذلك».

كانت عينا ماتان مركّزتين عليها باهتمام. فلم يكن يريد أن يسيء إلى أحد،

وخاصة إلى أمّه، متذكراً المناسبات السابقة التي كان يجلب فيها هدايا إلى البيت، وكانت ترفضها.

قالت: «خذ لوحاً من الصابون وأعطه إلى الفتاة الصغيرة لتغسل ثوبها. إنك تعرف أين نضع صابون غسيل الثياب، في الجزء العلوي من الخزانة في غرفتك، وعلى الرفّ أسفلها مباشرة ستجد السكّر، إذا لم يكن قد تبقى منه شيء في المطبخ».

«نعم، يا أمّي»، أجاب ماتان، واستدار وغادر.

أبدى بوساسو شيئاً من الامتعاض لعدم قبول هديته.

شعر في الحال بالقلق والاسترخاء، وبالسعادة والحزن.

نادى «ماتان؟».

«نعم؟».

«سآتي لمساعدتك». لم يشأ أن يبقى وحيداً مع دنيا، على الأقل الآن، فقد فضّل أن يكون في صحبة ابنها.

«ليس من الضروري أن تفعل ذلك»، قال ماتان.

«سآتي على كل حال». وسار الرجلان جنباً إلى جنب، نحو المطبَخ، الذي هو عبارة عن مقصورة صغيرة، يشبه بيتاً ملحقاً، وإلى جانبه، مكان للدوش، الذي كانت على جدرانه، كما لاحظ بوساسو، بقع من الماء، كالفضة.

قالت دنيا لنفسها إن الزواج مكان وطئته مرّتين، أما الحبّ فهو قصر لم تسنح لها الفرصة بأن تدخله من قبل. وإذا كان ما تفعله هي وبوساسو بداية مرحلة طويلة من الغزل الذي قد يفضي في نهاية المطاف إلى قصر الحبّ ذي الغرف الكثيرة، فليكن ذلك. وحتى الآن، لم تر منه سوى تلميحات، في مرآة خلفية، في عينيّ سائق لم يكن سائق سيارة أجرة. وكانت قد رأت من قبل، إشارات منه، في حلم ضبابي الشكل كفراشة في حركة متعرّجة. ومع أنها بدأت تتمتع

منذ ذلك الحين بلحظات مفعمة بالبهجة، بنظرات مختلسة ومخفية عن عيون الآخرين. قالت لنفسها إنه لا توجد عجلة، فلديهما الوقت كله في العالم ليستكشف أحدهما أعماق مشاعر الآخر.

بدأ اللقيط يتحرك في مهده. وبسبب عدم استقرار التيار الكهربائي في المدينة، انخفض صوت المذياع كثيراً، إلى درجة أنه كاد يختفي تماماً. وعندما استقر التيار، عاد صوت المذياع إلى طبيعته، وعاد الرضيع ليغط في النوم.

قالت دنيا لنفسها: سيقول الناس أشياء خبيثة عن دوافعي، وربما اتهموني بأنني أسعى للحصول على ثروة الرجل. لكن ماذا يعرفون عن دوافع امرأة مثلي؟ ليقولوا ما يشاؤون عنها؛ فلن تأبه لما يقوله الناس. على المرء أن ينتظر، إذ لا يمكن للمرء أن يتوقّع إلى أين تقوده الحكاية. فعندما وافقت على أن تحترم طلب أمّها نصف الصمّاء بالزواج من زبير، قالت إنه شذوذ. فإذا كان ذلك خطأ، وكان طارق مجرد سدادة عوز، فمن الممكن أن يكون بوساسو التقاء نهريّ روحيهما، يصبّ أحدهما في الآخر، معاً، إلى الأبد؟

دخل بوساسو، وقال: «ها قد عدنا»، ووضع صينية عليها ثلاثة أكواب على منضدة واطئة، وملأ جميع الأكواب بالشاي حتى الحافة. وجاء ماتان بشرائح من الكعك المصنوع في البيت، كانت قد خبزته نسيبة.

جلسوا ثلاثتهم في الفناء، يرشفون الشاي ويقضمون الكعك، ثم انضمت إليهم نسيبة. وكالعادة كانت الشابّة مليئة بالقصص والإثارة التي تتولد عن حكاياتها، مفعمة بالشائعات. وفيما كانت تحكي نتفاً من هنا، وتروي شذرات من هناك، مدّت نسيبة يدها وشربت من كوب شاي دنيا، ثم إلى قطعة كعك لم يلمسها أحد، ثم إلى كأس الماء التي يضعها ماتان أمامه، مثل فراشة تنتقل من زهرة إلى أخرى.

«أوه، يا لها من شائعات!» صاحت.

قبل الظهر، جاء رجل تملكه الغضب بسبب هذه الإشاعة. لقد جاء فور

سماعه نبأ اللقيط. إنه شيري، أخو دنيا غير الشقيق، الذي يكبرها باثنتي عشرة سنة. إن صوته القبيح هو الذي أعلن عن قدومه.

عندما دخل، نادى اسم دنيا بغضب، ولم يلقِ التحية على أحد. كان ذا كرش كبيرة، وقابل نظراتهم العدائية بلا مبالاة، وراح يحدّق طويلاً في بوساسو، الذي لم يتعرف على وجهه، ذلك الرجل، الذي لم يكن فرداً من أفراد العائلة، بحسب علم شيري.

وسرعان ما أحس بعدم الارتياح أيضاً عندما اشتم في الهواء رائحة الانزعاج من مجيئه، وعندما قابلت نظراته نظرات عدائية. كانت تفاحة آدم في رقبته تتحرك بسرعة إلى الأعلى وإلى الأسفل، وكأنه سيختنق من لعابه. جفّف عرقه عن جبينه بحدة شخص يخفي فكرة من الأفضل ألا يبوح بها. ووقف بوساسو، الذي بدا في غاية الاضطراب، على قدميه ليصافح يد الرجل الممدودة. ونهض ماتان، لا ليقدم مقعده إلى خاله فقط، بل ليتلقى أيضاً تربيتة لطيفة على كتفه، في حين ظلت نسيبة، مثل دنيا، جالسة وهي تراقب ما ستتكشف عنه هذه المسرحية المسلية. وقبل أن يجلس، قال شيري لبوساسو، «لا أذكر أنني التقيت بك، وأشك إن كان هناك أحد يبدي اهتماماً بتعريف أحدنا على الآخر. اسمي شيري».

«يدعوني الناس بوساسو»، قال، ووقف باستعداد بطريقة عسكرية، وكأنه يحيّي ضابطاً عسكرياً كبيراً.

قال شيري: «أنا الأخ غير الشقيق لدنيا، وهي مهنة لم أخترها بنفسي، أطمئنك». صمت لكنه ظل منتصباً بقدر ما يستطيع، ملاحظاً التوتّر الذي يغلّفه.

لاذ بالصمت، لكنه لم يتوقف عن الحركة، لأن جسم شيري لم يكن قادراً على الوقوف بثبات. كان مثل حيوان ضخم يتأرجح ذيله وهو ينش بعض الذباب، أو مثل المنخار العريض لفرس النهر وهو يتحرك من تلقاء نفسه، أو

فكي بقرة تمضغ طعام ليلة أمس المجترّ؛ أو كلب شبرد يهوّي لسانه الضخم. كانت توجد لدى دنيا هذه الأفكار المتوحشة عن أخيها غير الشقيق الذي لم يكن رجلاً وسيماً، لقول الحق.

كان قصيراً، بديناً، ويكاد يكون أصلع تماماً. وكانت بطنه تفيض من أطراف قميصه المحشور في بنطاله، وحزامه العسكري الضيّق، مثل ذقن ثلاثية لرجل مفرط في الوزن يعاني من ارتفاع في ضغط الدم؛ وكان يضع ربطة عنق. وكان يتنفس مثل رجل، ويشخر بصوت مرتفع. كانت يداه قصيرتين، وأصابعه قصيرة، واحدة منها منهمكة دائماً في نكش أنفه واقتلاع الشعرات من منخريه. قال: «ما هذا الذي أسمعه يا دنيا؟» متخذاً خطوة اتجاهها، وكأنه على وشك أن يضربها. كان قد تدرّب على أن يكون ظهره محمياً، مثل رجل مذنب يتوقّع أن يُطعن من الخلف، لذلك لم يُرخ جسده إلا عندما نهضت نسيبة وابتعدت عن طريقه ليجلس دون أن يكون هناك كرسي خلفه.

«ما الذي سمعته؟» قالت دنيا.

«سمعت شيئاً عن رضيع. أين هو؟» لكن بدا أنه لم يكن مهتماً على الإطلاق بمكان وجود الرضيع، «لقيط، ذكر، هذا ما سمعته».

«ظننت أنك تحب الأطفال الصبية»، أجابت.

«فقط إذا كانوا أولادي أو إذا كانوا أولاد أختي الحقيقيين»، قال، وانطلق ضاحكاً، وكأنه يروي نكتة مضحكة. صمت، وشعر بالحرج لأن أحداً لم يشاركه ضحكته، ثم بدأ يتكلّم بهدوء، راغباً في أن يجرح مشاعر دنيا، فقال: «سمعت أنه عهد إليك بمصير ابن غير شرعي».

«ماذا؟».

«مصير طفل غير شرعي»، قال متعمداً.

ابتسمت نسيبة وماتان ابتسامة عريضة على نحو تآمري، مثل مهرّجين في مسرحية تعرض في الشارع، وانتظرا ردّ فعل أمّهما، راجيين أن تتمكن من

الإيقاع بشيري وأن تفوز عليه في هذه الجولة. ورأى بوساسو أن دنيا وشيري كانا ينظران إلى بعضهما مثل شخصين جرح أحدهما الآخر مرات عديدة، ولا توجد لديهما الرغبة في أن ينسيا أو يغفرا مشاعر الكراهية التي أسفرت عن ذلك. وتذكّر المشاحنات الأخرى التي كانت تنشب بين زوجته الراحلة يوسور وبين أمّها. لم يصدق أنه يمكن أن يحمل أحدهما كل هذا الحقد، مثلما كان يتركز في نظرة دنيا وهي ترمق شيري.

وأخذ شيري يقول: «إن تربية لقيط إثم، وعقابه نار جهنم وغضب الله».

«وكيف عرفت أن الرضيع لقيط؟».

«أليس هو كذلك؟».

«قلت، كيف عرفت أنه لقيط؟».

«إننا لا نعرف أبويه، أليس كذلك؟».

«ألا يمكن أن يكون يتيماً، وقد توفي والداه؟».

«الابن غير الشرعي هو ابن غير شرعي. ما الفرق إن كان أبواه معروفين أم لا؟ أين وجدته على أي حال؟ في صندوق قمامة؟».

لم تكن تريد أن يتملكها الغضب، فقالت، «لقد وجدته نسيبة».

«إنها صاحبة مشاكل، ابنتك نسيبة هذه. إنها لا تعثر إلا على المشاكل، إنها لا تتورط إلا في المشاكل». التقت عيناه الغاضبتان بعينيها الحانقتين. لم يكن أحدهما يملك تجاه الآخر سوى الكراهية، نسيبة وشيري، الذي كان يظهر لها في كوابيس وهو يجلدها بالسوط لعدم إطاعتها إياه. ثم توجه إلى ابنة أخته وقال: «انظري إلى نفسك، إن أخاك التوأم لم يجلب أيّ عار إلى أسرتك».

لم تفه نسيبة بكلمة، لكن دنيا عارضته بقولها: «ألا تتذكّر أنك كنت تتوقع أن يصبح ماتان مدمناً على الخمر قبل أن يبلغ العاشرة من عمره؟».

«كنت قد ضخمت شيئاً من حادثة صغيرة»، قال.

«إن ماتان ليس مدمناً على الخمر، كما ترى»، قالت بإصرار.

«كيف تعرفين؟».

فقالت دنيا: «إننا نفعل الأشياء بصراحة في هذا البيت، لا أحد يفعل شيئاً من وراء ظهر الآخر». أخذ أحدهما يحدّق بقوة في الآخر، «فأنا لا آخذ مهر عروس من وراء ظهر أخته غير الشقيقة الأصغر، ولا أكتب رسائل مليئة بالأكاذيب تصف فيها دنيا بأنها عاهرة، وبأن ماتان مدمن على الخمر قبل أن يبلغ سن المراهقة».

نهض شيري غاضباً. أشاح بوساسو بوجهه. ووقف التوأمان أحدهما بجانب الآخر، يتهامسان في زاوية الغرفة. كان من الواضح أن دنيا لم تغفر لأخيها غير الشقيق الذي، كما قالت، لم يبد لها أي بادرة حنان، ولا مرة واحدة في حياته، ولم تشاركه ولا لحظة واحدة من البهجة، ولا ثانية من الرفقة. قالت له الآن: «اجلس، إلى أين أنت ذاهب؟ ألم تأت لتزور أختك دنيا؟ البيت بيتك».

«كيف يمكنني أن أفعل ذلك؟» قال، ولم يتوقف عن هزّ رأسه.

قالت دنيا: «لقد اتفقنا ذات يوم، أنا وأنت بأن لا ننبش العظام المدفونة. لكنك لا تتوقّف أبداً عن عمل ذلك، مثل كلب جائع يحفر مستخدماً حاستي اللمس والرائحة. وعندما أكشف الهياكل العظمية القبيحة التي نبشتها أنت، تنهض وتستعد لتغادر». توقّفت، ثم قالت بسخرية، «الآن ماذا يدور بخلدك أيها الأخ غير الشقيق الأكبر عندما تقرّر أن تأتي لزيارتي؟».

تململ شيري في كرسيه، قلقاً. ومثل شخص مصاب بالربو يغادر الغرفة التي دخلها شخص مدخّن، نهض بوساسو الذي لم يشعر بالارتياح. أشارت له دنيا بأن يجلس فأذعن.

«لقد جئت وأنا أحمل نيات حسنة»، قال شيري، «ولكي أستفسر عما إذا كان بإمكاني أن أقدم أيّ مساعدة. لم آت لأنبش العظام التي ابيضت ومحّت من الموت، ولا أحبّ أن أُقارن بالكلب».

قالت دنيا: «قل لي بالتحديد لماذا أتيت».

قال: «لقد جئت لأقدم نصيحة أخ أكبر، ولن ندخل في أسئلة عقيمة عما إذا كان اللقيط ابن حرام أم يتيماً. بل إن سؤالي هو: كيف ستتمكنين من إطعام فم آخر؟».

«إن الله يرزق من يشاء»، قالت دنيا.

أشاح بوساسو ببصره، وراح ينظر إلى نسر في الأعلى.

سأل شيري: «هل يعرف أبشير كيف تستخدمين الهدايا الشهرية القيّمة التي يرسلها بالعملة الصعبة؟».

«ماذا تظن أن يفعل أخانا إذا قيل له إنني أدير ملجأ صغيراً للأيتام؟» قالت دنيا بفظاظة، «هل تظن أنه سيرفض وسيتوقف عن إرسال حوالاته المالية؟».

«لو كنت مكان أبشير لتوقفت».

«إن أبشير أخي الحقيقي»، قالت دنيا، «ابن أمّي».

«اشكري نجوم حظك الجيدة أنني لست أبشير»، قال شيري.

«إني أشكرها، إني أشكرها»، قالت دنيا.

تذكّر كلاهما الشجارات التي كانت تنشب بين أمّ كلّ منهما، عندما تعرضت دنيا، وكانت عندها مجرد جنين، للأذى عندما راحت المرأتان تتضاربان بمدق الهاون. كما تذكّرت دنيا أنها اتهمت شيري بأنه كتب رسالة إلى أبشير وصفها فيها بأنها عاهرة تطوف في الشوارع. وقالت إن نسخة من الرسالة قد أُرسلت إليها. وما أضاف إلى ذلك أن دنيا لم تغفر لأخيها غير الشقيق قبوله سراً هدايا عرسها التي قدمها له زبير.

قال شيري: «دون نبش المزيد من الهياكل العظمية التي أتلفتها سنوات من الحقد وعدم الثقة، هل يمكنك أن تجيبي عن سؤالي وتخبريني لماذا تريدين أن تحتفظي باللقيط؟».

«هل يعني ذلك شيئاً بالنسبة لرجل مثلك لم يعرف في حياته ما معنى أن يتقدم المرء ببادرة طيبة، بأننا نحتفظ به من باب الشفقة، بدافع من النيات الحسنة، عمل من الرأفة كما يمكن لأحد أن يتصرف تجاه رجل فاقد البصر يعبر طريقاً خطراً؟».

«هل سمعت أنك قلتِ نحن؟» سألها شيري.

قالت، «نعم، كما سمعت».

تدخل بوساسو للمرة الأولى والوحيدة في حديثهما: «أنا ودنيا مسؤولان معاً عن اللقيط».

«إذن لا يوجد شيء يمكن القلق عليه»، ردّ شيري.

«ماذا تقصد؟» سألت دنيا متحدية.

هزّ شيري كتفيه، وابتسم أولاً نحو بوساسو، ثم التفت إلى أخته نصف الشقيقة، وقال: «لا داعي للقلق بعد الآن، بما أنه يوجد رجل سيساعدك في تربية اللقيط، وإني على ثقة بأنك لن تواجهي مصاعب مالية أو اجتماعية».

كان انفجار غضب دنيا مفاجئاً، وقالت: «هل تعني يا شيري، أن تسجيل رجل اسمه مع اسمي كوصيين مشتركين للقيط، أمر جيد؟».

«أقول إنه لا يوجد ثمة داع للقلق بوجود رجل يشاركك المسؤولية مثل بوساسو. إن المرأة بحاجة إلى رجل يقف إلى جانبها، لكي يأخذها الناس بجدية، ولكي تفتح لها أبواب العالم حتى تدخل ورأسها مرفوع ويحترمون شخصها».

هبّت دنيا واقفة، وقالت بصوت غاضب: «اغرب عن وجهي في الحال».

أبدى شيري مودة لبوساسو، لكن هذا الأخير قرّر أن يقف إلى جانب دنيا. ثم خاطب شيري ابن أخته وابنة أخته، «ماذا دهاها؟».

كرّرت قائلة: «أريدك أن تغادر هذا البيت الآن يا شيري».

«لكن. . . !».

«وإلا لن أكون مسؤولة عما سيحدث».

رأى شيري الكراهية تشع من عيون جميع من حاول أن يستنجد بهم. ففي عينيّ بوساسو، امتزج شعاع الشمس بالازدراء. وكان شيري، العسكري المدرب، يعرف متى ينسحب. وقد فعل ذلك بهدوء.

لم يفه أحد بكلمة لوهلة، حتى نسيبة، ولم يستيقظ اللقيط أو يبكي خلال فترة الصمت الطويلة تلك. وعندما رأت الخادمة الصغيرة كل ذلك، غادرت خفية، ربما لتخبر العالم الخارجي بما حدث.

ثم حكى ماتان قصة كيف أن الظبي الأفريقي الصغير ثأر من الفيلة: «في أحد الأيام كان الظبي منهمكاً في عمله، وكان يمر في درب ضيق في غابة كثيفة الأشجار، عندما حاول فيل مسرع أن يتجاوزه. وبعد محاولات عديدة، ضرب الفيل الغاضب الظبي الصغير بخرطومه، فسقط وسط كومة كبيرة من روث الفيل. وعندما أفاق من الصدمة، دعا الظبي عشيرته للاجتماع، وقرّر الظبي أن يمكثوا في منطقتهم وأن يتغوطوا دائماً في البقعة نفسها ليصنعوا جبلاً ضخماً من روثهم حتى يعلق فيه أحد الفيلة هو وخرطومه وكل شيء. وحدث في ذلك المساء أن مرّ فيل ـ بقرة».

بعد ربع ساعة من حكاية ماتان قصته التي لم تحظ بأي تقدير، سمع الجميع صيحة بدائية. رأى بوساسو دنيا ترفع رأسها مثل ناقة تشم رائحة اقتراب أحد صغارها. وصدرت من التوأمين عبارات ترحيب، أعقبها ضجيج متزايد، توج بصرخة نهائية جلبت فتاة صغيرة ألقت بنفسها بين ذراعي دنيا المشرعتين. كانت هناك بهجة تامة في لقائهما، بهجة حيوانية.

وخطر لبوساسو صورة التقاء ناقة بأحد صغارها بعد أشهر من إرضاع عجل وهمي مليء بالقش.

شارك التوأم في العناق، لكن بوساسو لم يشعر بأنه مستبعد، بل كان سعيداً

لمشاهدة هذا اللقاء السعيد، مباشرة بعد مشاعر الكراهية التي رآها بين الأخ غير الشقيق وأخته.

«هيا، هيا»، ربتت دنيا على ظهور أبنائها، «هيا لنقدم هيبو ياري لبوساسو».

في البداية ظل ماتان ونسيبة يعانقانها. وسمعت ياري تقول: «أين هو؟ أين هو؟» لم يعرف أحد، حتّى عندما تركها التوأم، ماذا تقصد: بوساسو أم الرضيع.

ظلت دنيا ممسكة بيد ياري، وشدتها نحو بوساسو، الذي كانت تنوي أن تعرّفه عليها. لكن الفتاة الصغيرة كانت تريد أن ترى الرضيع، وراحت تكرّر سؤالها، «أين الرضيع، يا دنيا؟» (بما أنها لم تكن تعيش معها، كانت ياري تنادي أمّها دنيا، لا ماما أو يا أمي كما كان يفعل التوأمان).

أمسك كلّ توأم بيد ياري من كل جانب، وقاداها إلى الغرفة حيث كان الرضيع نائماً في سريره.

«هل يتكرّم أحدكم بأن يجلبه من السرير ويحضره لي لكي أحمله؟» قالت.

رفع ماتان الطفل الذي لا اسم له من السرير وأعطاه إلى ياري التي تلقفته مثل شيء هشّ. بدا أن صدرها على وشك أن ينفجر بتنفّسها الشديد.

«اجلسي إذا كان ثقيلاً جداً عليك»، اقترحت دنيا.

جلس كل من التوأمين على كل جانب منها، ووضعا الرضيع في حضن الفتاة الصغيرة. وراح ثلاثتهم يتبادلون الأحاديث، بينما راحت نسيبة تلخّص تاريخ اللقيط حتى الآن.

«كيف حدث وأن جئت إلى هنا بدون حقيبتك الليلية يا ياري؟» سألتها دنيا.

«لأنه لم يتبق للعمّ قاسم بنزين في سيارته، لذلك لم يتمكن من إحضاري. أوصلني شخص آخر إلى مكان ليس بعيداً من هنا، وركضت ما تبقى من الطريق».

«من أخبرك عن الرضيع؟» سألتها نسيبة.

«عندما كنت أجري إلى البيت، كما ترين، أوقفتني مارلين وأخبرتني عنه. أخذت أجري بسرعة لكي أصل إلى هنا متشوقة لرؤيته». ومع أنه كان لدى ياري سنّ مشوّهاً، وأخرى ميتاً، ولونها داكن، وتبدو مثل قزمة، كانت لها ابتسامة حلوة.

استغلت دنيا الفرصة الآن لأن تقدمها إلى بوساسو، «ياري، هذا بوساسو»، وإلى بوساسو، «هذه هيبو ياري».

«لقد خمّنت ذلك»، قال بوساسو.

كانت ابتسامة ياري جذابة مثل سحر غجرية. سألت نسيبة: «هل أطلقتم اسماً على الرضيع؟».

«اسمه أبشير، على اسم أخي ماما»، كذبت عليها نسيبة.

لكن ماتان صحّح أخته: «لا، ياري. لم يطلق أحد بعد اسماً على الرضيع».

«لكن يجب أن يُطلق عليه اسم»، قالت ياري بإصرار.

أطلقنا على الطفل اسم «الذي لا اسم له»، قال ماتان.

«لماذا لا نطلق عليه اسم علم؟» سألت ياري.

«يجب أن نعرف أولاً إن كنا سنتمكن من الاحتفاظ به»، قاطعتهما دنيا.

«لكننا وجدناه»، قالت ياري، «لقد وجدته نسيبة، لذلك فهو لنا».

«هناك مشاكل قانونية يجب حلّها قبل أن نتمكن من تسميته»، قالت دنيا محاولة أن تقاطع نسيبة التي كانت تحدّث ياري عن بوساسو، وتقول لها إنه يعيش في بيت أكبر من بيت العمّ قاسم، وعنده جهاز تلفزيون، وأحدث طراز من مسجّل فيديو ياباني الصنع، ومجموعة متنوعة من أفلام الفيديو؛ وأنه سيعود في نهاية المطاف إلى الولايات المتحدة الأمريكية حيث عاش أكثر من خمس وعشرين سنة. وإذا تزوجا، هو ودنيا، وهو أمر محتمل، فإننا سننتقل جميعنا إلى أمريكا.

قالت ياري فجأة: «سآخذ الرضيع إلى بيت العمّ قاسم والعمّة مورايو وأتركه هناك ليرياه. أليس كذلك يا دنيا؟».

«لماذا؟» أجابت دنيا مندهشة.

«عندها أستطيع أن أعود إلى البيت، لأعيش هنا».

«لكن. . . !»

«إذا حصل العمّ والعمّة على طفل آخر ليحلّ محلي، عندها سأشعر بالراحة لمغادرتهما!».

«لكنك تستطيعين أن تعودي إلى البيت عندما تشائين»، قالت دنيا.

وهمست نسيبة مزيداً من الأسرار في أذن ياري التي راحت تتطلع من أمّها إلى بوساسو، وعادت بنظراتها إلى نسيبة التي أومأت لها مشجّعة. لثانية تقريباً، مكثت ياري صامتة.

«ماذا كانت نسيبة تهمس لك يا ياري؟» سألتها دنيا.

«لا شيء».

ابتعد ماتان عن أختيه، نائياً بنفسه عما يحدث. ووقع بوساسو تحت عيني ياري اللتين كانتا تحدّقان فيه، وتتأمل ما كان يجري بينه وبين أمّها. لكن دنيا بدت في حالة من الانتشاء، وسادت البيت أجواء من المرح، بسبب لقيط جعلهم جميعهم أصدقاء جدد.

«إذًا هل أستطيع أن أعود إلى البيت يا دنيا؟».

«طبعاً».

«هل سيدعني العمّ بوساسو أشاهد أفلام الفيديو؟» قالت ياري. لم تعرف دنيا كيف تجيب. نظرت إليه، ثم إلى نسيبة، ثمّ ثبتت نظراتها في الأفق، وشعرت بالحرج لأن تتكلم.

«نعم، طبعاً»، قال بوساسو.

لكن ياري أحست أنها أزعجت دنيا. أشارت إلى نسيبة بأن تأخذ اللقيط، ثم توجهت إلى حيث تجلس أمّها وجثت إلى جانبها، وقبّلت يدها، وقالت: «أنا آسفة يا دنيا. لن أستمع إلى نسيبة، أعدك بذلك».

نهض بوساسو ليغادر، وقال: «إن الدكتور ماير ينتظرنا في الساعة السابعة والنصف. سآتي لنذهب معاً».

«مع السلامة»، قالت دنيا.

«إلى اللقاء»، قال.

مقديشو (وكالة الأنباء الوطنية الصومالية ـ ٣٠ تموز)

تقطع الأسرة الصومالية المتوسطة (وتستعمل كلياً أو جزئياً) ما يقرب من ١٥٠ شجرة أو شجيرة في السنة، وفق دراسة نشرتها وزارة الزراعة والثروة الحيوانية في الأسبوع الماضي. إذ يُقتلع عدد كبير من الشجيرات أو الأشجار لغرض أو آخر، ويُحرق عدد كبير منها كوقود أو يُستخدم كمادة بناء لإقامة سياج أو جدران.

وقد أدى فقدان أراضي الغابات بهذا الشكل إلى شحّ الأمطار، وعدم توّفر المياه بحدّ ذاتها، وعدم استمرار الحياة البريّة فوق مساحات شاسعة من الجمهورية. ويضيف التقرير الذي وضعه خبراء صوماليون، وهو الأول من نوعه، بأن زيادة الحمولة الرعوية للجمال وقطعان الماشية تؤدي إلى تعرية مزيد من الأراضي من الأشجار والشجيرات والأعشاب، مما يساهم في حدوث الجفاف.

ويثني التقرير على الحكومة الصومالية، وعلى وكالات المعونة والدول الصديقة التي حاولت أن تخفف من حدّة الكارثة على البلاد، التي يمكن أن تُفهم في ضوء الأزمات البيئية المماثلة التي تحدث في أفريقيا وفي أنحاء العالم الثالث.

[9]

وفيه تذهب دنيا مع بوساسو إلى منزل ماير لتناول العشاء، مرتدية ثوباً مستعاراً ألحّت عليها نسيبة أن ترتديه

بينما كان بوساسو يأخذ قيلولته، رأى طيراً جميلاً ذا قائمتين ثقيلتين مكسوتين بالريش، طيراً هجيناً بين الصقر والنسر، لا اسم له. وظل الطير هادئاً متأملاً، جاثماً فوق عمود تلغراف عند حافة حديقة. وكان هو وزوجته الراحلة يوسور في نزهة مع ابنهما في سريره، وكان ثمة صوت ينبعث من راديو ترانزيستور من مكان قريب.

في لحظة ما، طار الطير واختفى عن الأنظار لوهلة، وعندما شاهداه ثانية، كان ينقضّ بشكل مرعب من علو شاهق، مقترباً منهم وكأنه يريد أن يؤذي الرضيع. لكن الأبوان شعرا بالارتياح عندما شاهدا الطير يحلّق بعيداً، وقد أمسك بمنقاره زهرة، لا طفلهما.

استيقظ بوساسو، منزعجاً. وعلى الفور تذكّر أنه مدعو هو ودنيا إلى العشاء في منزل ماير. أخذ حماماً سريعاً، وقاد سيارته بسرعة، وتوقف أمام منزل دنيا في الوقت المحدد. اندفع إلى غرفة النساء منقطع الأنفاس، قلقاً، ولم يشعر بالارتياح إلا عندما تأكد أن اللقيط لم يمسّه أذى.

في طريقهما إلى بيت ماير، جلسا كلاهما مثل الدمى التي يستخدمها الخيّاط ـ بوساسو لأنه قرّر ألا يتكلم عن الكابوس الذي رآه في قيلولته، ودنيا لأنها

بدأت تشعر بأن الفستان الذي ترتديه بعد إلحاح نسيبة، ضيّق عند الخصر، مما جعلها تتنفّس بصعوبة. وراح كل منهما يبتسم بارتياب.

قال بوساسو الذي أحسّ بالاضطراب من هذا الصمت: «إني أحسد ماير، لأنه يعيش وحده، ويتمتع بالقدرة على احترام ذاته. كما أحسدك أنت أيضًا، خاصة لأنك، مثل أمّي، مفعمة بالحيوية. أي أنك موجودة، وبقيّة العالم موجود أيضاً».

فكّرت دنيا أنها لا تعرف الكثير عن الدكتور ماير، ومع أنها لم تقل ذلك بكلمات عديدة، فقد قالت بحذر: «المنطاد المليء بالهواء يطير حيث تدفعه الريح».

لم يفهم بوساسو ما قصدته، لكنه قال: «عندما تتعرفين عليه بشكل أفضل، فإنك ستقدّرين كم يجد متعة في صحبة الأشخاص الذين يثيرون اهتمامه. وستفاجئين عندما تعرفين أنه يتكلّم أكثر مما أتكلم أنا بكثير مثلاً».

«هل يتحدّث عن نفسه؟».

«نعم».

«لكنك لا تفعل ذلك أنت؟».

ابتسم وقال: «صحيح؟».

«قليلاً»، قالت.

«ربما لا يوجد الشيء الكثير الذي يمكنني أن أتحدث عنه».

«هل تريد أن تسمع أغاني المديح كما كنت تسمع الأغاني التي اعتادت أمّك أن تغنيها لك لتهدهدك لتنام؟».

أدهشها كم كانا متوترين، وكم كانت في مزاج مشاكس. وبدا أن حاجتها إلى ضبط نفسها أكبر مما تحتمله. وكان الحديث مع الدكتور ماير أسهل عليهما من أن يناقشا مشاعرهما الذاتية، كما أنه لم يقل كلمة واحدة تعبّر عن الحبّ، إلا

في تلك المناسبة الوحيدة التي قال فيها بوساسو إنه يشعر بالانجذاب إليها. لم يكن ذلك لأنهما يفتقران إلى صلة قريبة تجمعهما، بل بالعكس، كان بينهما انجذاب جسدي قوي. لكنهما كانا حذرين، ربما لأنهما كانا يشعران بأنه يجب ألا يخيّب أحدهما توقعات الآخر.

«لم يسبق لك أن ذهبت إلى بيت ماير، أليس كذلك؟» سألها.

«لا».

ساد صمت. أبعدت أضواء السيارة الأمامية ظلام الليل كما يبعد المشط شعرات رأس كثيفة الشعر.

«لكن علاقتكما جيدة، أليس كذلك؟» سألها.

«لم يسبق لي أن أقمت معه علاقة اجتماعية، لذلك لا أعرف الرجل حقاً. في واقع الأمر، هذه أول مرة ألتقي فيها معه خارج المستشفى. إنه يذكّرني دائماً بأنه صديق أبشير، وها أنت صديقه كذلك».

لم يعرف بوساسو كيف يرد على عبارتها الأخيرة. ازداد إحساسه الداخلي بالتوتّر، وراحت رئتاه تغليان. اندفعت الكلمات من فمه: «ماذا يقول الناس عن ماير؟».

«إنهم يقولون إنه رجل متحفظ، كتوم، وتقارنه الممرضات دائماً بالأطباء الأجانب الآخرين الذين يعملون معنا في المستشفى». أما أنا شخصياً، فلا أجد صعوبة في تصوّر ما يدور في أعماقه، لكنني لا أجد شيئاً عندما أحاول أن أتصوّره بأنه لا يعمل. وذات مرة وصفه لي أخي الأكبر في رسالة أرسلها لي بأنه «البروسي بمعنى إيجابي، انتبه».

«من المثير للاهتمام كيف تفكر به الممرضات»، قال بوساسو معلقاً.

قالت دنيا: «عندما يتحدثن بصوت مرتفع في ممر المستشفى، فإنهن يصمتن فور رؤيتهن ماير وهو يقترب»، وأضافت: «وكان قد قال لي هو نفسه إن أبناء

أخته وبنات أخته يصمتون عندما يلعبون بصخب في بيت ذويهم ما إن يرونه».

«إذًا تقول الممرضات عنه أشياء غير لطيفة؟».

«إنهن لا يقلن عنه أشياء فظيعة».

تذكّر بوساسو كم كانت أمّ زوجته المرحومة تكره ماير، لكن ماير كان يتصرّف وكأن ذلك لا يعنيه في شيء. كان من الواضح أنه متصالح مع نفسه.

تطوّعت دنيا لتقول: «الناس هنا غير رسميين، فلا عجب أنه يصف بعض من هم على صلة به بأنهم غير اجتماعيين. غريب، لكني لا أعرفه هكذا».

«لا؟».

نظرت دنيا إلى يدها المرتعشة التي ارتطمت بالأشياء صباح اليوم الذي دخل فيه بوساسو إلى حياتها متنكراً في شكل فراشة في حلمها. وتذكّرت كم كان لطيفاً، وكم تأثرت بما قاله. واستطاعت أن تتذكر كلماته بدقة، إيماءاته اللطيفة، مسحة من ولعه بها.

«أعرفه رجلاً متردداً، خجولاً مثل طفل موجود بين أشخاص بالغين لا يعرف كيف يتعامل معهم. لقد رأيته في حالات كان ينكفئ فيها على نفسه، لا يظهر شيئاً إلا نفسه الخارجية، مثل سلحفاة معرضة للهجوم».

«هذا لطيف»، قال بوساسو، وهو يبتسم ويفكّر بصوت عال، «وصف مؤثّر، شاعري للغاية».

«ذكر لي أخي أبشير في إحدى رسائله كيف أن ماير نفسه يصف تكتّمه بأنه واضح مثل نقرة مشوّهة في مرآة». لماذا يظل اسم أبشير يأتي إليها؟ هل ذلك بسبب الشجار البشع الذي دار بينها وبين أخيها غير الشقيق شيري؟

بدأ بوساسو يقود ببطء الآن. هل وصلا؟ قالت دنيا لنفسها إنها تفضل أن يتحدثا عن أمورهما الشخصية التي تشغلهما. لكن ماذا عن الرضيع؟ لا بد أن موضوع اللقيط سيثار مع ماير على العشاء. كانت تتمنى أن تسأل بوساسو عن

رأيه، وكانت تتمنى أن تقول له رأيها. لكنه كان قد ركن للتو سيارته في فسحة غير مشيدة من الأرض بجانب سيارات أخرى، من بينها سيارة ماير الصغيرة، التي تجثم مثل قزم إلى جانب السيارات الكبيرة.

قالت دنيا لنفسها إن ابتسامة ماير وهو يحييهما تشبه قسمات رجل يمكنك أن تراه بعد أن يكون قد نقل كنزاً ثميناً من مخبأ إلى آخر: سرّي. تواصلت الابتسامات، ثم بدأت تتلاشى وتخفت، حتى أصبحت أخيراً بحجم شاربيّ ماير المشذّبين مثل فرشاة الأسنان. كان أقصر من بوساسو ببوصتين، وجسده أكثر امتلاء من جسد صديق طفولته، وفي صوته بحة من الممتع سماعها. انتحى جانباً، ووقف منتصباً، محنياً رأسه قليلاً، وأشار لهما بيده بأن يدخلا وهو يردد: «أهلا وسهلاً».

عندما دخلا، خيّل إلى دنيا أنها رأت تقاطيع غير أنيقة على وجه ماير، الذي يتسم بشيء من التردد، تعابير رجل يتقلب بين مزاجين متطرّفين، أحدهما رسمي، والآخر أقل صلابة. ابتسمت دنيا ابتسامة عريضة في داخلها، وتذكرت مناسبة أخرى لاحظت فيها مثل هذه التغير المفاجئ في مزاجه: في الصباح عندما فقدت السيطرة على يدها وراحت ترتطم بأقلامه وميزان الحرارة وأقلام الرصاص.

قادهما بوساسو إلى غرفة الجلوس الرحبة، التي شعرت دنيا بالبهجة فيها لأنها لم تكن باذخة. بل كانت مؤثثة على نحو مقتصد، والديكور فيها بسيط، وجميع الأشياء فيها من المواد المصنوعة محلياً. فلم تكن هناك ألوان صارخة، كتلك الأشياء التي يضعها محدثو النعمة ليظهروا في مظهر أنيق. فلا يوجد جهاز تلفزيون، ولا جهاز فيديو، ولا الأشياء المتطورة التي يزخر بها عصر الكمبيوتر، ما عدا جهاز تسجيل ومذياع على الموجة القصيرة، كان الهوائي فيه مرتفعاً. وكان ورق الجدران والستائر متطابقة بانسجام. هل غرفة الجلوس في شقة بوساسو ذات الطابقين بسيطة كهذه؟ أم أنها تبدو صارخة بشكل مقيت،

وتنم عن قلة ذوق؟ أحست دنيا بالبهجة لأنها جاءت إلى بيت الدكتور ماير أولاً.

بقي الصديقان خلفها نصف خطوة تقريباً، مثل نادلين محترفين يُجلسان زبونًا مهماً. وعندما وصلوا إلى قسم الجلوس من الغرفة، شجّع الدكتور ماير دنيا على الجلوس في الكرسي الأضخم.

«تفضلي»، قال وهو يوجّهها بلطف إلى الكرسي البارز ذي المسندين، المنجّد باللون الأخضر.

ومع أن أحداً من الرجلين لم يجلس بعد، سأل ماير دنيا: «بداية، ماذا تشربين دنيا؟».

«شيء لا يوجد فيه كحول، من فضلك». أجابت.

لبث بوساسو في مكانه مثل كبير الندل، واقفاً ويداه وراء ظهره، وجسمه كله مستعد لتقديم المساعدة.

ورداً على القائمة التي رددها مضيفهما، قالت دنيا: «عصير البرتقال من فضلك».

«بالتأكيد»، قال ماير.

وفجأة سمعت حركة. فقد ذهب ماير، وهو يخطو إلى الوراء مسافة نصف الطريق، باحترام. وتوجه بوساسو ليجلس في المقعد الصغير ذي المسندين إلى جانب دنيا. توقف ماير أمام المطبخ، واستدار وسأل: «ماذا ستشرب يا بوساسو؟».

«مثل دنيا من فضلك».

«اجعلها بسيطة، اجعلها طبيعية؟» قال ماير مستثيراً.

أومأ بوساسو برأسه. لكن لماذا لم يغادر ماير؟ قلقة، وضعت دنيا ساقاً على ساق، ثم أعادتهما، ثم لفتهما ثانية، شاعرة بالعيون التي لم تكن تركّز عليها.

كانت تدرك بضيق الرطوبة تحت إبطيها، وضيق ثوبها عند الخصر. ابتعد ماير، واعداً بأنه سيعود بعد قليل.

عندما أصبحا وحدهما، اقترب بوساسو منها وسألها: «هل أنتِ على ما يرام؟».

لم تشأ أن تفكر بالسبب الذي جعلها تشعر بالضيق: ثوبها. فأجابت: «أنا على ما يرام، شكراً».

«هل قال أحدنا شيئاً أزعجك يا دنيا؟».

أبعدت الأفكار التي تزعجها حقاً عن رأسها وسألته: «ماذا حدّثته عنا؟».

«لا شيء».

«لا أصدقك».

«ليس كثيراً حقاً».

«هذا لا يعلمني الشيء الكثير»، قالت، وأبقت صوتها منخفضاً.

«لم أقل له شيئاً كثيراً عنا. عموميات فقط».

«وماذا أخبرته عن اللقيط؟».

فردّ: «قلت له الحقائق التي أعرفها».

«مثل ماذا؟ أي قائق؟»

«أخبرته من وجد اللقيط، وأين وكيف. هذا النوع من الحقائق. وكيف سجّلناه باسمينا، كمسؤولين مشتركين. الحقائق العادية، بدون زيادة». توقّف، ثم أردف: «والآن ماذا يزعجك؟».

«لا أحب أن يستهين بي الرجال لأني امرأة»، قالت. وجاء دوره ليقول: «ماذا تقصدين؟».

لاذا بالصمت وابتعد أحدهما عن الآخر، لأن ماير دخل، يتنحنح. اقترب وهو يحمل صينية. ووضع بعناية منديل منضدة صغيراً مربعاً أمام كلّ منهما.

وقالت دنيا في نفسها إن شقّته نظيفة فيندر أن تجد ذرة غبار فيها. لم تستطع أن تفكر كيف تمكّن من عزل نفسه وشقّته من عواصف مقديشو الرملية، أو الصدأ وثقل رطوبته.

تلقت كأس شرابها منه بكلتا يديها، وقالت: «ماهادسانيد»، وأحنت رأسها بامتنان.

قدم ماير كأس الشراب إلى صديقه، وقال مازحاً: «لم أر بوساسو قط يشرب شيئاً لا يوجد فيه كحول. أرجو أن تعرفي ماذا أنت فاعلة به يا دنيا».

قالت: «إن بعض المناسبات الخاصة تفرض قيوداً على إرادة الذين يرغبون في أن يتذكروا. ربما لهذا السبب يتناول هذا الشراب، ألا تظن ذلك؟».

كانت هناك نبرة خفيفة من الانزعاج في صوت ماير، في موقف أخ أكبر يستعدّ لتوبيخ أخيه الأصغر، عندما قال: «أتقصدين أنه أخبرك للتو؟» قال لدنيا.

«أخبرني؟ ماذا؟».

شعرت أن كلا الرجلين يحدّقان فيها باهتمام شديد.

عما يتحدثان؟ هل يقصدان أن بوساسو قد أُصلح وأقلع عن شرب الكحول تماماً، وأن هذه إشارة مواربة بأن طارق يستخدم هذه المادة السامّة بإفراط؟

سألها ماير: «ألم يحدثك عن أبشير؟».

«أخي أبشير؟ ماذا عنه؟» لا يمكن أن تكون أخباراً سيئة، بما أنه ارتسمت على وجهيهما ابتسامات، «هيا أخبرني، لا أستطيع أن أنتظر».

«من المحتمل أن يأتي للزيارة بعد فترة قصيرة».

نهضت قليلاً عن الكرسي ذي المسند، وقالت: «يزورني؟».

«هذا صحيح».

أحست أن لسانها قد انعقد، ولم تعرف كيف تردّ على هذا الخبر. لن تغفر

لنفسها أبداً إن قالت شيئاً سخيفاً، ولم يبد أن شيئاً حكيماً قد خطر ببالها. كانت تنصت إلى الموسيقى بنصف عقلها فقط، كانت موسيقى شرقية، ليست عربية. لا، بل فيها لحن من الأنين، من الشرق الأقصى. مالت إلى الأمام وقالت بلهفة: «هل كتب لك يا ماير، بأنه سيأتي قريباً؟» وتمنت في قلبها ألا يكون أبشير قد كتب له.

«إنه يمضي عطلته في اليونان، والتقى بصديقة لي كلمتني على الهاتف اليوم ـ إنه عيد ميلاد صديقتي. هي التي أخبرتني أنه قال إنه يخطّط لزيارتك»، قال ماير.

فجأة، وجدوا أنفسهم يتبادلون الأنخاب، ويرد اسم أخيها في التمنيات القصيرة «لكافيماد». أخذت يدها ترتعش، فوقع كأسها ودلقت بعضه على ثوبها. نهضت، متضايقة. رغبت في أن تتوجه إلى الحمّام، أو إلى غرفة يمكنها أن توصد بابها من الداخل. أصبح من الصعب عليها أن تتنفّس؛ كانت هذه الحماسة المفاجئة كثيرة عليها. كانت تشعر بالحرارة وراء أذنيها، وكان إبطاها مبللين مثل بول في فراش. دلّها بوساسو إلى الحمّام.

ولم تخرج حتى سمعت: «العشاء جاهز، مادا!».

كانت التربية الجيدة تهمس في أذنيّ دنيا بأن لا تعترف علناً بأنها لا تعرف اسم الطبق الذي تتناوله، لعنة على المسلمين المؤمنين الذين يصرّون على معرفة كلّ مكونات الأطعمة التي يلمسونها أو التي يتناولونها. وكان ماير حساساً إلى درجة أنه شكّ في أن تحفّظ دنيا التقليدي قد يفسّر القلق الذي ارتسم على وجهها. وفي جميع الأحوال، لم يتحدّث إليها أو إلى بوساسو، بل أخذ يتنقل بنظراته من الواحد إلى الآخر، ربما آملاً في أنّ يطمئن صديقه دنيا بأنه لا يوجد في الطعام الذي تتناوله الآن لحم الخنزير.

خلال ذلك، شعرت دنيا بشيء أثار قلقها: ارتطامها بالأشياء، وانسكاب المشروبات، واصطدام أصابع قدميها، بعد أن أصبح ذلك شيئاً متوقّعاً إلى

درجة تكاد تكون مملّة، وبدأ يعتمل في صورتها العقلية عن نفسها. هل فقدت السيطرة على عصب محدد في دماغها، فأحدث ذلك خللاً في توازن عقلها وجسدها؟ فلم تكن تحب أن يرتبط اسمها بأنها تُسقط الأشياء. لماذا، بدأت الأشكال تبدو غامضة في رؤيتها. كانت يداها تنثنيان، تنحنيان بشكل رياضي عند المعصم، قوية مثل رامية رمح. تذكّرت أن الكون في الأساطير الصومالية يستند بتوازن فوق قرنيّ ثور، حيوان يحدّق إلى الأبد في بقرة مربوطة بعمود أمامه مباشرة. ويقال إن جسد الثور يفقد توازنه عندما تشيح حبيبته، البقرة، بعينيها إلى مكان آخر، فتحدث الزلازل في العالم. كانت هي، دنيا، تُخضع الكون بكسر الأشياء إلى قطع صغيرة؟

«هل تعرفين اسم الطبق الذي نتناوله؟» سألها بوساسو. استغرقت الكلمات وقتاً كي تصل إلى عقلها ويصبح لها معنى، أحسّت بثقل تحديقهما فيها، وعرفت أنها فعلت شيئاً أزعجهما. إذ لم تكن قد لمست طعامها بعد. قرّرت أن تحوّل ذلك لصالحها، قرّرت أن تستمد متعة منحرفة من إبداء جهلها: وهذا أمر يلقى استحسانًا عاماً من الرجال الذين يتلقون عادة ببهجة أن النساء لا يعرفن كما يعرفون هم. لكن ربما ساعدها ذلك أيضاً في استعادة ثقتها بنفسها الضائعة، التي ستتباهى بها عندئذ مثل جروح أصيبت بها في إحدى المعارك. قالت، «ماذا يُسمى طبق الطعام هذا؟»

«موساكا»، قال ماير.

وفي الحال تدخّل بوساسو وقال: «هذه، كما ترين»، مستخدماً شوكته ليريها، «طبقات من اللحم المفروم، وهذه باذنجانة عليها طبقة أو طبقتان من جبن بارميزون».

عندها قالت دنيا، وهي تفرك بقسوة ثقتها بنفسها التي استعادتها، «إن موساكا اسم جميل للغاية، وأراهن أنه إذا أصبح طبقاً شعبياً في الصومال، فإن إحدى الأمهات ستسمّي ابنتها موساكا». ربما كانت تمهد لطرح موضوع مناقشة مسألة إطلاق اسم.

«هل من الممكن أن تسمي ابنتك موساكا يا ماير؟» سأله بوساسو.

«لا»، أجاب ماير، «لكني متأكّد من أن بعض النساء قد يفعلن ذلك».

قال بوساسو لماير: «أتذكّر الفتاة في بلدتنا التي كانت تدعى ماكينو ـ اللفظ المحرّف من الكلمة الإيطالية «ماكينة»؟ أتذكّر أني استغربت كيف يمكن أن تطلق أمّ على ابنتها مثل هذه البدعة. لكن، إذا عدنا إلى الماضي، فإني أرى أن ذلك يبدو معقولاً. أولاً، لأن الآلة تنجز العمل أسرع من أيّ شخص وبكفاءة أعلى. وثانياً، لأنها قلّلت من ساعات العمل فأدى ذلك إلى التخفيف من شدة الإعياء. كما أنها جعلت المرأة تقدمية، لأن الفكرة عرّفتها على كون أكثر ضخامة حيث تعتبر الآلات من الناحية العلمية والثقافية جزءاً لا يتجزأ من حياة المرء اليومية».

«وكانت هناك تلك الفتاة الأخرى، أليس كذلك؟» قال ماير، «التي سمّتها أمّها أسبرو، هل تتذكّرها؟ وأخرى سمّت ابنتها أومو باسم المسحوق المنظّف، ربما تقديراً منها لفائدة هذه المادة؛ أو ليلون، تحريفاً لكلمة «نايلون» ربما لأنها كانت تتمتع ببشرة ناعمة للغاية».

وقال بوساسو: «ونعرف رجلاً، أليس كذلك يا ماير، خرجت مؤخرته أولاً عندما ولد وأُطلق عليه اسم دابا ـ كين، وهي عبارة تصف الوضعية الخلفية التي ولد فيها؟».

كانت دنيا تأكل صامتة، وراحت تتذكر السبب الذي جعل أمّها تسمي ابنها الوحيد أبشير. كان اسماً مباركاً، كما كانت تقول، وتذكّرت أنه كان طالباً متفوقاً في المدرسة والجامعة. وها هو أبشير الآن يزمع زيارتها، أبشير الذي لم تره منذ سنوات، والذي رأته آخر مرة خلال رحلة قصيرة قامت بها إلى روما.

قال لها ماير: «هل لديك أي فكرة لماذا سميت بهذا الاسم؟ دعيني أخبرك بأنني سُمّيت على اسم جدّي، وبالطبع تعرفين قصة لقب بوساسو».

تمنّت دنيا أن يرى ماير البهجة في عينيها نتيجة الخبر الذي نقله لها عن زيارة

أبشير. خجولة ونصف مخنوقة في عواطفها، قالت: «كنت ابنة أمّي الوحيدة وآخر ما أنجبت، لذلك كانت تعتبر أنني العالم بالنسبة لها».

كان من الممكن أن يكون بوساسو والداً يشجع طفلاً خجولاً، وقال: «ماذا تقصد دنيا: العالم».

«الكون»، قال ماير بدقة تفسيرية.

ثم تكلّموا بالتفصيل عن التجار، عرباً وأوروبيين، الذين جابوا القارة الأفريقية، ونشروا عقائدهم، وقدموا هدايا من آلهتهم ودياناتهم (مثل المعونة الخارجية في أيامنا هذه)، هدايا يقبلها الأفريقيون دون كثير من التساؤل.

لم يسأل بوساسو أحداً معيناً: «هل يمكنك أن تتذكري مفهوماً صومالياً يشبه فكرة الكون الحديثة، وهي باللغة العربية «دنيا»؟ فكما ترين يقول العرب إنهم قدّموا لنا فكرة الكون، لا بتعريفنا على دينهم الإسلامي فقط، بل بمشاركتهم لنا بوجهة نظرهم عن العالم الذي بنينا عليه فهمنا اللاحق عن كيف تعمل الكرة الأرضية».

«وما الضير في أن يمنحنا العرب نظرتهم عن العالم، بالإضافة بالطبع إلى كون خلقه الله، التي تتناقض مع منظومة معتقداتنا التقليدية؟» سألت دنيا.

اكفهر وجه بوساسو وهو يحاول أن يفكر بما سيقوله.

«إن دنيا محقة»، قال ماير، «مع أني أظن أن الفرق الأساسي بين المعتقدات الأفريقية التقليدية والمعتقدات اليهودية والمسيحية والإسلامية يرتبط بالأبعاد الصوفية لأكوان مخلوقة مركزياً. إن نقطة البداية هي هذه: من نعبد أو ماذا نعبد؟ في حالة الصومالي الذي يؤلّه الغربان، الجواب واضح: إن الصوماليين يستسلمون للموت، غربان ترتبط بانتهاء الحياة، نهاية هذا الوجود. إن ما قدمته منظومة الأديان السماوية نظرة تقدمية، وهي تقديم الثواب، منطق الحياة بعد الموت، عقيدة تكفل لك متع الجنة بعد الموت».

«ماذا يعني كلّ هذا بلغة بسيطة؟» سألت دنيا.

فقال ماير: «يعني أنه في الظاهر على الأقل، أنك توظفين جهودك في نشاطاتك اليومية في العبادة الذاتية (ففي الديانتين اليهودية والمسيحية، فضلاً عن الديانة الإسلامية، يعاد خلق الله في صورة إنسان يسمو إلى مكانة أعلى، أما في الفكر الصومالي، فإن الغربان لا تشبه فكرة الإنسان عن نفسه)، وتوعدين بجزاءات سماوية تساوي قدر إيمانك في إله يمنح الحياة ويأخذها».

«الله يعطي، الإنسان يعطي!» قال بوساسو الذي لم يكن يبدو جدياً في ما قاله.

ساد صمت. فقد فهم ماير أن دنيا لم تعتبر أن كلامه معقول، وبدا أنها توقفت عن الاستماع إلى تنظيراته. لقد حان وقت تقديم سلطة الفواكه.

عندما انتهوا من تناول الحلوى واحتساء قهوة الإسبريسو، اختفت دنيا في الحمّام قليلاً، فقد كانت بحاجة إلى الهدوء الذي يأتي من خلال وجودها وحيدة في غرفة فيها باب يمكن إقفاله. وقالت لنفسها إن الصديقين سيقدّران أيضاً أن يبقيا بضع لحظات معاً، ويتحدثا أحاديثهما الذكورية. في الحقيقة، انتابها شعور بأنهما كانا مثل شخصين اضطرا للتحدث بلغة أجنبية احتراماً لوجود شخص ثالث. وبعد أمسية كاملة تقريباً، قرّرت أن تمنحهما قليلاً من الوقت ليتحدثا كما يشاءان.

من الحمّام، ودون أن تبذل أي جهد، كان باستطاعة دنيا أن تستمع إلى حديثهما، دار نصفه الأول تقريباً عن اللقيط، وبأنه لم يُلقَّح حتى الآن ضد أي مرض، ولم يطلق عليه اسم بعد. وكان بوساسو يجيب على أسئلة ماير بتحفظ ظاهر، يغمغم بعض إجاباته، ثم سأله ماير: «قل لي لماذا تحتفظان به، أقصد أنتما الاثنان؟».

«من قال إننا نحتفظ به؟» أجاب بوساسو.

«ألا تفعلان ذلك؟» قال ماير مشوّشاً.

«لدي الانطباع»، قال بوساسو موضحاً، «أنه هو الذي يحتفظ بنا، أي أنه يعزز صداقتي بدنيا ويقويها، يوماً بعد يوم، دقيقة بعد دقيقة».

«كيف؟».

«لقد أصبح اللقيط محور قلقنا ومتعنا، محور مشاعرنا الودية. إننا نرعاه وكأنه من لحمنا ودمنا».

«إذًا ماذا يعني لك ذلك؟» سأل ماير.

«أستطيع أن أتكلّم عن نفسي فقط، لأننا، أنا ودنيا لم نناقش هذا الجانب من علاقتنا».

«إذًا ماذا يعني لك شخصياً؟».

«حتى تتوطد علاقتنا وتزداد صلابة»، قال بوساسو، «وحتى بعد ذلك، ربما أصبح اللقيط رمز وجودنا معاً».

«لست متأكّداً أنني أوافقك»، قال ماير.

«انظر إلى الأمر بهذه الطريقة: فهو محور النشاط بالنسبة لها ولي ولأطفالها الذين أصبحت علاقتي بهم جيدة».

«إذًا هل تتوقع اقتراب ذلك اليوم الذي تتوطد فيه علاقتك بها، بدون مساعدة من اللقيط؟» قال ماير بحذر، وأضاف، «خاصة وأن أبشير قادم».

«لماذا؟».

قال بوساسو بصوت منخفض: «هل يمكن أن نتحدث عن ذلك في وقت آخر؟».

«أرى ماذا تقصد»، قال ماير.

لزما الصمت.

بعد أن انضمت إليهما دنيا ثانية، طاف بها ماير يريها أرجاء الشقّة. رأت مكتب ماير الذي شعرت أنه يشبه غرفة ناسك، المكان الذي تتوالد فيه الأفكار. كانت هناك فوضى في ترتيب الكتب، أكداس وأكداس منها، يتكدس أحدها فوق الآخر على الطاولات، تندلق من حافات المكتبة. وفي حين كان بوساسو

يمتلك سيارتين، أعطى إحداها لابن عمه ليستخدمها كسيارة أجرة، ويستخدم هو السيارة الأخرى، بالإضافة إلى بيت مؤلف من طابقين، أعطى طابقاً منهما إلى أحد أبناء عمه ـ استثمر ماير ثروته في اكتساب المعرفة.

كانت توجد في مكتبه سبل الراحة الخاصة به. كرسي هزاز كبير، وأريكة صغيرة مصنوعة بناء على الطلب، كُتب عليها بأحرف باللغة الألمانية (أوضح لها بوساسو أنها هدية من كلوديا، صديقة ماير الألمانية). وكان في الغرفة زوايا كثيرة لم يمُسح عنها الغبار، وعدد من فناجين القهوة الملقاة هناك منسية منذ اليوم السابق. قال بوساسو إن العالم خارج مكتب ماير يجب أن يكون نظيفاً ومرتباً، لا في غرفته هذه. فهو لا يستطيع أن يفرض النظام على توالد الأفكار، أما هنا فهو إنسان، لا تحرجه عواطفه.

كما كان يشعر بالخصوصية هنا. وكانت توجد صورة بالحجم الحقيقي لكلوديا كرايست، صديقته الألمانية، تشرف على كلّ شيء في المكتب، فمن المكان الذي عُلِّقت فيه الصورة، في مكان عال، بحيث أحست دنيا أن المرأة الأوروبية تنظر في عقل كل من يقف في أي زاوية في الغرفة. وكان للمرأة شفتان رقيقتان، وشعر قصير، وأنف صغير جداً، وذقن ناتئة، وفكان بارزان. لقد جعل ذلك دنيا تشعر وكأنها في زيارة إلى أحد الأضرحة.

عمل بوساسو دليلاً لها. فأراها أعمالاً كلاسيكية أوروبية عظيمة مترجمة إلى اللغة الصومالية، منها أعمال شكسبير وغوته ودانتي، التي دوّن ماير مسوّدات عنها، وسجل ملاحظات ومقدمات، مهداة جميعها إلى كلوديا. وكان ماير يترجم مباشرة من اللغات الأصلية، اللغات التي كان يعرفها، وكان يأمل في أن ينشر الأعمال التي أمضى عمره فيها.

كما أشار إلى كتب كلوديا كرايست، أربعة كتب، جميعها باللغة الألمانية الأصلية ومهداة إلى ماير. إنه من النبل الكبير أن تهدي امرأة عمل حياتها إلى رجل لم يتزوجها بعد، قالت دنيا في نفسها.

انتهت الجولة، وشكرت ماير على هذه الأمسية اللطيفة، وطلبت أن يوصلها أحدهما إلى البيت. عندما غادرت، تساءلت كيفستردّ دعوة ماير. يجب أن تجد وسيلة لدعوته إلى بيتها لتناول وجبة طعام، عندما لا يكون مليئاً بالأطفال الصاخبين؛ وسيكون قدوم أخيها ذريعة جيدة. قالت: «يجب أن تأتي لتناول وجبة طعام عندما يأتي أبشير».

بعينين عابثتين، أجاب ماير: «أرجو أن آتي لأكثر من مجرّد وجبة طعام».

لبث بوساسو ودنيا صامتين طوال الطريق إلى بيتها. لم تدعه دنيا إلى البيت. ودّع أحدهما الآخر خارج البيت. وقبل أن تنزل من السيارة، قبلته قبلة خفيفة.

قال: «أراك غداً».

«تصبح على خير وشكراً على كلّ شيء»، أجابت.

مقديشو (وكالة الأنباء الصومالية، ٧ كانون الثاني)

تم التوقيع في فندق كاروبا في مقديشو أول أمس على بروتوكول معونة مقدمة من الحكومة الإيطالية. وتوجد لبرنامج المعونة تطبيقات عديدة لعدد من المناطق المتعلقة بالتطوير، تتراوح من إعادة تأهيل زراعة الرزّ في جواهر وضواحيها، وزيادة عدد الأسرّة في عدد من المستشفيات العامة في أنحاء الجمهورية، بالإضافة إلى تعزيز العلاقات بين البلدين.

وفي هذا الصدد، وعدت الحكومة الإيطالية بزيادة عدد الأساتذة المعارين من مؤسسات التعليم العالي الإيطالية إلى جامعة الصومال الوطنية. والجامعة الصومالية هي الجامعة الوحيدة خارج إيطاليا التي تدرس فيها جميع المواد باللغة الإيطالية. وكجزء من هذا البرنامج، يقوم أساتذة إيطاليون مختصون باللغة الصومالية بمساعدة نظرائهم في العمل على إعداد قاموس باللغتين الإيطالية والصومالية، ومشروع لغوي يعمل عليه الفريق، تحت إشراف جامعة روما وأكاديمية اللغة الصومالية وآدابها.

وقد وقّع البرتوكول وزير الخارجية عن الجانب الصومالي، وعن الجانب الإيطالي، وقعّه القائم بالأعمال في سفارتها.

[10]

وفيه تستضيف دنيا وأطفالها الثلاثة عدداً من الزوّار، من بينهم مرايو وبوساسو

كان الصباح فضياً لامعاً. ثم هبّت نفحة باردة خفيفة إلى الغرفة ودخلت معها يعسوبة بدت بحركاتها القلقة المتجهة إلى الأعلى والأسفل كأنها تكتب اسماً في شكل رموز. ولكي تتمكن من قراءة ذلك، مسحت دنيا عينيها الرطبتين، غير واثقة من النتيجة في البدء. وتحرّك الرضيع بسبب الريح الباردة التي تسللت إلى غرفة النساء، وغادرت دنيا سريرها لتغطيه بإحدى عباءاتها «الجنتينو». وعندما تبين لها أن هذا غير كاف، رفعته وضمته ليتدفأ بين يديها، وهدل حتى توقّف عن البكاء. أعادته إلى سريره، وبعد أن أغلقت النافذة، عادت إلى سريرها.

عندها رأت في مخيلتها الرمز الذي كتبته العيسوبة. كانت واثقة من أنها قرأت اسماً كتب في وشم أزرق، يحفّه من أطرافه ماء نقي كالثلج. لقد قرأت اسم الشابّة التي رأتها دنيا في العيادة الخارجية في صبيحة اليوم الذي أوصلها فيه بوساسو بسيارته الفراشة.

استيقظت. كان عقلها مشتتاً بذكريات كثيرة.

قالت ياري: «إني جادة عندما أقول إنني لن أعود إلى بيت العمّ قاسم والعمّة مرايو».

أسكتت دنيا ابنتها ذات السنوات التسع. كان المذياع مفتوحاً. راحتا تستمعان إلى الأخبار لفترة من الوقت، لكن ياري سرعان ما فقدت الاهتمام

بانشغال أمّها بما يجري في العالم الخارجي، وأصرّت على أن توليها دنيا انتباهها.

«هل سمعتِ ماذا قلت؟» سألتها ياري بصوت أجش.

لم ترغب دنيا في أن تصرف انتباهها عن الاستماع إلى النبأ الذي يقول إن رئيس الدولة يستقبل وفداً مشتركاً من أمريكا الشمالية والجماعة الأوروبية لمناقشة احتياجات الصومال من المساعدات الخارجية. وورد بعده على الفور نبأ عن رضيع، عمره يومان، عُثر عليه بجانب صندوق قمامة في الحيّ الذي تعيش فيه دنيا. لكن لم ترد في النبأ تفاصيل أخرى ـ مجرد العثور على الرضيع مهجوراً، ولم يرد في النبأ اسم الشخص الذي عثر عليه والذي يرعاه في بيته، وأن دنيا وبوساسو يقومان على رعايته.

«هل ستسمعينني الآن؟» سألت ياري.

«نعم؟».

«أريد أن أجلب أشيائي إلى هنا، بسيارة بوساسو».

لم تكن دنيا تريد أن تأخذ قرارًا على عجل. بل كانت تفضل أن تتناول كل مشكلة على حدة. وكان من المبكّر أيضاً أن تعرف عما تتحدث ياري. كانت تدور في رأسها أشياء أخرى، منها الإعداد لزيارة أبشير، إلى جانب الأمور الأخرى التي يجب أن تكلم نسيبة عنها.

«ألا تستطيعين الانتظار، يا عزيزتي ياري؟» قالت.

«أريد أن أجلب أشيائي اليوم». قالتها بنبرة آمرة.

«لماذا؟».

«لأني لا أريد أن أعود إلى بيت العمّ».

ذكّرت دنيا ابنتها بأن العمّ قاسم والعمّة مرايو كانا قد اختيرا أوصياء عليها بعد أن توصلت هي، دنيا، وطارق، والد ياري، إلى حلّ وسط بسبب عدم

تمكنهما من التوصل إلى اتفاق على من سيحتفظ بالفتاة. ومن الطبيعي أنهما لم يرغبا في الذهاب إلى المحكمة، لأن طارق كان يمرّ في مرحلة من الكآبة الشديدة بسبب الشراب، وكانت دنيا مرهقة بمصاعب مالية، لأنها لم تكن تستطيع أن تعيل ثلاثة أطفال وحدها. وكجزء من التفاهم الذي توصلا إليه، قررا أن تبقى دنيا في البيت المؤلف من غرفتي نوم حيث يقيمون الآن، وتدفع إيجاراً رمزياً فقط، وأن تنشأ ياري في أسرة أخ طارق الكبير، لأن زوجته مرايو لم تنجب أطفالاً. وكان قد تم التفاهم على كلّ ذلك بدقة (حاولت دنيا أن تُفهم ياري تعقيدات الأمر)، واستغرقت جلسات عدة وطويلة لشرح الأمر لها. وبهذه الطريقة، أصبح طارق يستطيع أن يرى ابنته التي تمضي عطلة نهاية الأسبوع مع دنيا، بسهولة.

«لنعطهما اللقيط، فهذا سيحلّ مشاكل الجميع»، قالت ياري.

«أيّ مشكلة؟».

«وعندها أستطيع أن أعود إلى البيت».

فرقعت دنيا بلسانها لتبدي معارضتها، وقالت: «إن عودتك إلى البيت لا علاقة لها باللقيط على الإطلاق. فهذا موضوع مختلف تماماً. وكما قلت لك من قبل، تستطيعين أن تعودي وتعيشي معنا في أي وقت تشائين. لكنني يجب أن أبحث هذه الأمور مع أبيك ومع العمّ قاسم والعمّة مرايو».

«لكن هذا ليس عدلاً».

«ما هو ليس عدلاً؟».

«إذا جئت وعشت معك، عندها لن يكون للعمّة مرايو وللعمّ قاسم طفل يعتبرانه طفلهما، بينما سيكون هنا أربعة أطفال، وجميعهم أطفالك»، قالت ياري بعد تفكير.

«لدى عمّك أطفال من زيجاته السابقة»، ذكّرتها دنيا.

«لكنهم ليسوا في بيت زوجته الحالية العمّة مرايو».

لم تعلّق دنيا.

«عندما يصبح اللقيط في عمري، سيتقبل العمّة مرايو باعتبارها أمّه. هل فكّرت بذلك؟» قالت ياري بإلحاح.

«أقترح أن تبقي مع العمّة مرايو التي قبلتك طفلة لها»، قالت دنيا، بنبرة مثيرة، مداهنة. لكنها ما إن قالت عبارتها هذه، حتى تمنّت أنها لم تقلها.

«هل تقصدين أنك تفضلينه عليّ؟» قالت ياري.

«لا سمح الله، لا».

«إذًا لماذا تعتبرين هذا اللقيط البشع مهماً؟» قالت ياري بتحد.

«ليس له بيت آخر، أما أنتِ فلديكِ بيتان على الأقل. كوني منصفة يا ياري».

«البارحة تشاجرت مع العمّ شيري من أجله».

واصلت ياري نبرتها العدائية، وقالت: «والآن تقولين لي هذه الأشياء القاسية، أنا ابنتك. لماذا تعتبرينه أهم مني؟».

في لحظة اندفاع مركّزة، خطرت ببال دنيا طريقة لتهدئة مشاعر ياري. إذ ستنصب فخاً للفتاة الصغيرة، وستجعلها تشعر بأنها فتاة هامة، وتفضي لها بسر.

«هل كبرت لكي تحتفظي بسرّ يا ياري؟».

«طبعاً»، قالت ياري، كلها آذان صاغية.

«هل أثق بك بأن لا تخبري نسيبة أو ماتان أو أي شخص آخر؟».

«بالتأكيد!».

قالت دنيا: «سيأتي الخال أبشير قريباً».

لم تستطع ياري أن تكتم بهجتها.

«متى؟».

سعيدة بأنها استطاعت أن تتلاعب بمزاج ابنتها المتقلب، قالت دنيا: «لست متأكدة متى سيأتي بالتحديد».

«هل تلقيت برقية أو رسالة منه؟».

«تناولت صديقة الدكتور ماير الفطور معه البارحة»، تطوعت دنيا قائلة، «إنك لم تري أبشير مطلقاً، أليس كذلك؟».

«لا، أبدًا».

«يجب أن تكتمي هذا السرّ».

«سأفعل ذلك»، وعدت ياري.

وفي الوقت نفسه، نسيت ياري اللقيط تماماً أو خطتها بالتبادل. كانت تطفح حماسة.

«هل تظنين أنه لا يزال هناك وقت لتكتبي له رسالة قبل أن يأتي؟» أرادت أن تعرف.

«لماذا؟».

«لأني أريده أن يحضر لي شيئاً من إيطاليا».

«لا أعرف عن ذلك»، لم تكن دنيا مشجّعة.

«تستطيع المضيفة التي تعمل على الخطوط الجوية الصومالية التي نسيت اسمها أن تنقل له رسالة. عندما نعرف متى ستذهب في رحلة إلى روما سنعطيها رسالة أو شيئاً».

تيبس جسد دنيا لدى ذكر المضيفة.

«ما المشكلة؟» استفسرت ياري.

«ماذا تريدين أن يجلب لك خالك أبشير من إيطاليا؟» سألت دنيا عابسة.

«أريد جهاز ووكمان».

ابتسمت دنيا برقة وقالت: «سنحاول أن نرسل له رسالة».

«وهناك شيء آخر»، قالت ياري وهي في غاية السعادة.

عندما بدأ صبر دنيا ينفد سألتها: «شيء يمكنه أن يحمله بسهولة عبر الجمارك؟».

«فيلم اسمه إي تي».

«فيلم؟».

«فيديو، عندها أستطيع أن أشاهده على جهاز فيديو بوساسو».

«سنحاول أن نتصل به بطريقة ما».

«وعد؟».

«وتعديني بألا تتحدّثي عن قدومه لأي مخلوق؟» أومأت ياري.

«إذا لم تف بوعدك، لن أفي بوعدي»، قالت دنيا.

«سأفعل ذلك»، قالت ياري، «لقد كبرت الآن».

دخلت نسيبة التي كانت قد استحمّت إلى الغرفة. عندما سكتت ياري وأمّها بطريقة تآمرية، انتاب نسيبة الشكّ بأنهما كانتا تتحدثان عنها. وإلا ما الذي جعلهما تتحاشيان النظر في عينيها؟ تنقلت بنظراتها من أختها الصغيرة إلى أمّها، ومن أمّها إلى اللقيط، وأخيراً إلى الراديو الذي كان لا يزال يثرثر، لكنها لم تقل شيئاً. قالت دنيا لياري بطريقة طفولية: «هل نذهب ونأخذ حماماً معاً؟».

«سيكون ذلك ممتعاً يا دنيا»، قالت ياري.

غادرتا الغرفة، وأقنع ذلك نسيبة أنهما إما كانتا تتحدثان عنها، أو أنهما تعرفان شيئاً لا ترغبان في مشاركتها إياه.

بعد أن أخذتا حماماً استمتعتا به كلتاهما، استعارت دنيا غرفة ماتان لتبدّل ثيابها. وفي المرآة بدا وجهها طرياً كالأرض بعد هطول أمطار ربيعية: أسمر، كاملاً، طرياً. وراحت لوهلة تنصت إلى ثرثرة الصغار في الفناء: ماتان ومارلين وصديق آخر لم تتمكن من التعرف على صوته. كانت نسيبة وياري تطعمان الرضيع. كانت الستائر مسدلة، والباب موصداً بالقفل من الداخل، وثمة نور شمس يكفي لرؤية نفسها في المرآة. بدأت دنيا تبدي اهتماماً بجسمها للمرة الأولى منذ سنوات عديدة. لكن ما رأته جعلها تشعر بالاكتئاب.

فقد كانت قد أهملت جسدها عندما كانت تعتني باحتياجات الآخرين الجسدية، كممرضة، وكأمّ لثلاثة أطفال، والآن كوصية مشاركة للقيط. ولم تدرك أنها أصبحت بدينة وأصبح لديها حزام من الدهن حول خصرها.

يقال إن الرجال الصوماليين تثيرهم كتلة اللحم التي تحيط بسرّة المرأة. لكن ماذا يحبّ بوساسو؟ هل يفضّل المرأة النحيفة ذات الجسد الشاب، الذي لا توجد فيه أونصة واحدة زائدة في أي مكان من جسدها؟ لكن بالنسبة لامرأة في عمرها ومن خلفيتها، كانت دنيا تعرف أن جسمها لا يزال في حالة جيدة. وتعرف جيدًا أنه جسد لا يثير اهتمام الآخرين؛ فقد خدمها بإخلاص طوال هذه السنوات، ومنحها كلّ ما يستطيع أن يمنحه إياها، ولم يعرف سوى رجلين، أحدهما في الستين من عمره تقريباً. وفي السنتين اللتين أمضتهما كزوجة لزبير، لم يكن بوسعهما ممارسة الجنس أكثر من ثلاث مرات في الشهر، مع أنها لم تكن غير راضية من الناحية الجنسية؛ فمعظم الأزواج التقليديين لا يمارسون الجنس في غالب الأحيان، ولم يكن أحد يثير مشكلة تتعلق بالجنس.

أما طارق، زوجها الثاني، فكان يريد ممارسة الجنس معها في الليل، ولم يكن تقويم فترتها الشهرية يردعه عن مطالبتها بالانصياع له. لكن قدرته الجنسية كانت قصيرة جداً، وكان يصل إلى ذروته عندما تكون قد بدأت هي تتسلّق سلّم متعتها الجنسية. وعندما كان يشرب، كانت تدفعه جانباً مثل رضيع يرضع من

ثديها معابثاً، ويغط في النوم على الفور ويبدأ يشخر، وكانت تضطر لأن تهزّه وتوقظه لتمضي ليلة هادئة.

وبقفزات من المنطق وجدت نفسها تفكّر بالنساء اللاتي كان بوساسو يعرفهن، اللاتي ربما قد تركن تأثيراً دائماً عليه. أمّه، الأمريكية ـ الأفريقية التي عاش معها سنوات عديدة، ويوسور. سجلت دنيا ملاحظة في عقلها لتكتشف بقدر ما يمكنها عن تلك النساء، لا كمنافسات، بل كبشر. هل تعرف نسيبة شيئاً عن المرأة الأمريكية ـ الأفريقية. لا بد أن نسيبة تعرف عن هذه الأمور؟

ارتدت دنيا رداء تقول إنه أحد أمزجة نسيبة (فقد كان من عادة نسيبة أن تشتري ثياباً غالية الثمن، ولا ترتديها مطلقاً، أردية تشتريها ما إن تعجب بها لكنها سرعان ما تنساها)، أحست الآن أن ضعفها يخذلها. لماذا، لأنه لم يخطر لها قط أن اليوم سيأتي الذي تصدّع فيه رأسها هي، دنيا، بما يحب الرجال وبما لا يحبونه، أو أن ترتدي رداء لإرضاء رجل ما! شعرت بالسخافة لأن تقع في الحبّ وها هي تعترف بذلك؛ أحست بالغباء لأنها استعارت رداء نسيبة، وشعرت بضيق شديد عندما ارتدت أحد فساتينها في الليلة الفائتة، الذي كان ضيقاً عند الخصر، وجعلها تحكّ تحت إبطيها اللذين أخذا ينزان بالرطوبة.

أخذ أحدهم يطرق على الباب بإلحاح.

«من هناك؟».

«افتحي الباب يا أمّي».

«من هناك؟».

«افتحي وسأخبرك»، كانت نسيبة منقطعة الأنفاس، وكأن جنّ الدنيا جميعهم قد اتحدوا لملاحقتها إلى الباب.

«ماذا في الأمر يا ناسي؟ أخبريني»، قالت دنيا وهي تفتح الباب.

«إنه أمر يتعلق بالرضيع».

لوهلة لم تتمكن دنيا من التفكير من تقصد، وسألتها: «أي رضيع؟».

«اللقيط».

«ماذا عنه؟».

تذكّرت دنيا اسم الشابّة التي رأتها في العيادة الخارجية ـ ذات الرقم سبعة عشر. اسم الفتاة فريدة، أخت المضيفة في الخطوط الجوية الصومالية التي تريد ياري أن تتصل بها لتنقل رسالة إلى أبشير. يا إلهي، ما هذه التعقيدات!

طلبت دنيا من ابنتها أن تهدئ من روعها، وقالت: «مهما كان الأمر، يجب أن تقولي، تذكري أن عمر الكون مئتا مليون سنة، ولن ينتهي قبل أن تقولي ما في جعبتك. ما الذي يزعجك؟».

«مورايو هنا»، قالت نسيبة، وصدرها يخفق بقلق.

لم تتأثر دنيا بهذا النبأ. استدارت، وطلبت من نسيبة أن تغلق لها سحاب فستانها. عندما انتهت، اتجهت دنيا إلى المرآة الطويلة لتلقي نظرة فاحصة على نفسها. دهشت لأنها فعلت كلّ ذلك دون أن تتعثّر أو تسقط أو ترتطم بأشياء أو يختل توازنها على نحو أخرق. ثم قالت: «قولي لي الآن لماذا يثير وجود مورايو خوفك بهذا الشكل؟».

«إنه يتعلق باللقيط».

هدأت دنيا.

«ماذا عن اللقيط؟».

«عديني أن لا تعطي اللقيط إلى مورايو؟».

قررت دنيا أن ياري كانت شقية وهدّدت بأن لا تعود إلى بيت مورايو، بل أرادت أن تبقى هنا حيث يسود الكثير من المرح حتى وقت متأخر من الليل بسبب بوساسو والرضيع، أكثر مما يجري في بيت العمّ قاسم.

«لماذا لا نعطي اللقيط إلى مورايو؟» قالت لنسيبة.

«إنه لا يعني شيئاً بالنسبة لهم»، قالت نسيبة.

«قد لا أكون أذكى امرأة في العالم، لكنني لست بذلك الغباء، ولا شيء مما قلته حتى الآن يعني لي شيئاً»، توقفت دنيا: «قولي لي متى رأيت فريدة آخر مرة؟».

تصرفت نسيبة على نحو غريب وتطلعت حولها بارتياب، وكأن فريدة تختبئ في أحد ظلال الغرفة المظلمة. ثم ابتلعت ريقها بصعوبة، وجحظت عيناها وكأنها أكلت خطأ تفاحة آدم خاصتها. تمالكت نفسها بسرعة لتقول بأسلوبها المتحدّي المميز: «وما دخل فريدة بما نتحدّث عنه؟».

فقالت دنيا: «أنت من وجد الرضيع، لا أنا».

نتيجة هدوء أنفاس نسيبة، أحست دنيا أنها قد تكون قد ارتطمت بشيء، لكن هذا الشعور لم يدم طويلاً. إن ما جعلها تشعر بالانتصار هو أن نسيبة هي التي ضربت إصبع قدمها الكبيرة بطرف باب ماتان، لا دنيا.

«قولي للعمّة موراليو إني سأراها في الحال»، قالت دنيا.

فريدة: هي أمّ اللقيط؟ إذًا من هو الأب؟

قبّلت موراليو دنيا قبلة خفيفة على خديها وعانقتها بسرعة. كانت امرأة ضخمة، طولها خمس أقدام وتسع بوصات، تكاد تكون ضعف حجم نسيبة. وكانت ذراعاها الضخمتان تملآن تخيلات بعض الرجال الصوماليين النهمين جنسياً. كانت بشرتها داكنة، براقة جداً، وكانت تتردد غالباً على مصففة الشعر لتصفف شعرها بأساليب مختلفة، ولم تكن تغطيه. كما كانت تتردد على الخيّاط كثيراً، وتأخذ له مجلات تصاميم الأزياء ليصمم لها فستاناً منها، لكي لا يكون للفساتين التي ترتديها مثيل في مقديشو كلها. وبالحماسة ذاتها، كانت موراليو تزور محلات بائعي الفضة والذهب وكانت تماحكهم وتفاصلهم كثيراً لتحصل على سعر مناسب للأشياء التي تشتريها. وكانت بنية موراليو تجعل

الناس يبتعدون عن طريقها، ليفسحوا لها المكان التي تريده أن يكون لها. ولم يكن بوسع الآخرين إلا الامتثال لأوامرها.

لم يكن طفلاها التوأمان يحبان أن تعاملهما وكأنهما طفلان. فقد قال ماتان ذات مرة، بصراحة غير معهودة: «إن العمّة مورايو تدلّل جسمها الضخم بجرعة زائدة من تملق الذات». وقالت نسيبة: «إن التفكير بمورايو يعني تذكر مزاج ناري والانغماس في الملذات». وكانت دنيا تتفق مع ابنها وابنتها، وتضيف أنه يجب اتخاذ مورايو صديقة، لا عدوة.

فقد كانت دنيا وطفلاها يعرفونها عندما كانت نحيفة، عندما كانت متزوّجة من قاسم، الأخ الأكبر لطارق. إنها قوة الحياة، كما كانت تصفها دنيا آنذاك. فقد كانت تنبعث من مورايو أنوثة فياضة. وعندما مرت سنوات دون أن تنعم بحمل، لم يؤثر ذلك على الزوجين أو يحزنهما. ويُعتقد أنها قالت إن لدى زوجها قاسم عدداً كافياً من الأطفال. «وإن ما أقدمه له، لم تقدمه له أي من زوجاته السابقات وهو: الحياة والحبّ». لم يشكّ أحد بما كانت تقوله. ومن الحقائق المعروفة أن جدران بيتهما كانت قد تصدعت وتشققت بسبب الصيحات البدائية التي كانت تنطلق أثناء مضاجعتهما، مما أثار أحاديث وأقاويل كثيرة، إذ ذكرت إحدى جاراتها أن هذا كله مجرد استعراض زائف، وهي تقصد بذلك أن مورايو لا تستمتع بالمضاجعة، بل تمثّل وتتظاهر بذلك؛ وتساءلت بعض تلك النسوة إن لم يكن فرجها مخاطاً بعد عملية الختان.

واعتبر بعض الرجال أن قاسم ديوث، لأنه أشيع أن مورايو تستقبل رجالاً في جناح البيت البعيد عن المدخل الرئيسي حيث توجد غرف نومهما، عندما لا يكون زوجها في البيت.

قرصت مورايو برشاقة خدَّيْ دنيا بالطريقة الإيطالية، مستخدمة المفاصل الوسطى للسبابة والإصبع الأوسط، وقالت: «وماذا لدينا هنا يا عزيزتي دنيا؟ لقيط صغير، تم التقاطه من صندوق قمامة، أصبح مشهوراً إلى درجة أنه أصبح

خبراً يذاع في نشرة الصباح في المذياع. هل تتخيلين ذلك؟ وماذا لدينا شيء آخر هنا؟» خرجت الكلمات من فم مورايو بسرعة مذيعة لم يتبق لها المزيد من الوقت فقطعت كلامها وراحت ترتجل، وأضافت، «رداء جديد يا دنيا، موشى بريش الطاووس، قوام رائع، كلّ شعرة في مكانها الملائم، وأزهار في الشعر. عمل رائع! اتحاد مختوم؟ هل تعاهدتما حتى يحطمك الموت وكلّ ما في ذلك؟».

بذلت دنيا جهداً كبيراً لفهم ما قالته مورايو. من الواضح أنها كانت تتحدّث عن بوساسو والرضيع. لكن ماذا عن الزهرة في الشعر؟ أين هذه الزهرة؟ في شعر من؟

ثم قالت مورايو: «كيف حالك على أي حال؟ هل أنت سعيدة؟».

«إننا على ما يرام، شكراً لك».

«لكن يأتي رجل بعد كل هذه السنين، يا دنيا - يا إلهي، ماذا يجري لك؟» وبشكل مزعج، لم تدعها مورايو تقول شيئاً، بالسرعة التي كانت تتكلّم بها، وأضافت دون أن تتوقف: «أقصد: هل بدأت يا عزيزتي دنيا تتبرعمين مثل زهرة - حبّ وحبّ، تخيّلي - هل هذا ما نشهد بدايته يا عزيزتي؟».

تمالكت دنيا نفسها وقالت: «أرجو أن تجلسي وأن تقولي كل ما عندك وأنت مرتاحة على الكرسي ذي المسند؟» كانت سعيدة لأنها تكلمت بالسرعة التي كانت تتكلم فيها مورايو، لكنها كانت تقول كلاماً مفهوماً. هل ستتمكن من مجاراة مورايو في سرعة كلامها؟

«أنا هنا منذ فترة طويلة»، قالت مورايو.

الآن ماذا يعني هذا؟ هل هناك مشكلة؟ هل شعرت مورايو بالإهانة لأنها انتظرت حتى انضمت إليها دنيا، بينما كان الصغار يهتم أحدهم بالآخر وباللقيط؟

«تعالي واشربي قليلاً من الشاي»، اقترحت دنيا، «إنه سيهدّئ أعصابنا»،

كانت تعرف أنها يجب أن تمسك بزمام الحديث لكي لا تفقد سيطرتها على نفسها. ولم يكن يعجبها انحراف ثرثرة مورايو، لكنها كانت بطريقة ما قادرة على التحكم بمدّ وجزر حديثها، وإن دعت الحاجة لأن تحوّل الحديث إلى الاتجاه الذي تريده.

«لا أريد أن أحتسي الشاي»، قالت مورايو بنبرة طفلة منزعجة.

كانت ياري تتهيأ للذهاب إلى الدكان الذي يبعد قرابة مائة متر، لتحضر للعمّة مورايو مشروباً خفيفاً اختارته بنفسها. ويعرف الجميع أنه لا يخرج أحد في بيت مورايو لجلب صودا أو مشروب خفيف بارد من الدكان، بل كانت تجلبه من إحدى الثلاجات الثلاث الموجودة لديها، في حين لم تكن توجد في بيت دنيا ثلاجة واحدة، وكان صاحب الدكان يفرض مبلغاً إضافياً لتبريد المشروبات.

«لا تذهبي إلى أيّ مكان يا ياري»، أمرتها مورايو، «فلم أرك منذ أربع وعشرين ساعة تقريباً ولا أريدك أن تغيبي عن عينيّ. ليحضر لي شخص آخر زجاجة كوكا كولا أو أي شيء آخر بارد».

طلبت نسيبة من ماتان أن يذهب ويأتي بما طلبته. فقد شعرت نسيبة بأن ثمة شيئاً قد يحدث ويهدد مستقبل اللقيط. لاحظت دنيا أن نسيبة لم تقل شيئاً منذ أن التقيتا في غرفة ماتان، عندما لم تتمكن الشابّة من الردّ على السؤال إن كانت قد رأت فريدة، فريدة التي تخيّلت دنيا أنها أمّ الرضيع المنبوذ.

كان ثمة شيء يحدث. هل هو الرضيع؟ بدأ الجوّ يزداد ثقلاً. منذ أن قدمت شيري في الصباح اعترى نسيبة شعور بالتوتر. وأحست مارلين ورفيقتها، فتاة أخرى، بأنه لم يعد لهما مكان هنا فانصرفتا، حتى أن مضيفتهما، نسيبة، لم تودعهما إلى الباب. وأحست دنيا أنّ بيتها بدأ يفرغ.

لم يقل أحد شيئاً حتى عاد ماتان وأحضر شراب مورايو البارد، وقدمه لها وكأنه يتحاشى رصاصة مصوبة إلى شخص آخر، لذلك توجّه إلى الملجأ الأكثر أماناً في غرفته، وأغلق بابها نصف إغلاقة. وبقيت ياري لأن مورايو لم تترك

يدها، بينما بقيت نسيبة، لا لأنها كانت تشعر بأنّ مصير اللقيط مهدّد بالضياع فقط، بل لأنها (قالت لاحقاً) كانت تعشق النزاعات العائلية من هذا النوع أيضاً. أقفلت نسيبة الراديو ولم يتحرك الرضيع.

بعد أن أخذت رشفة من الكوكا كولا، قالت مورايو: «هل يعجبك أن تعثري على لقيط بالقرب من حاوية قمامة. يجد أناس آخرون كنزاً أو أشكالاً أخرى من الحظّ. أما أنت فلا تجدين ذلك يا دنيا. إنك تجدين رضيعاً، حياً، يتمتع بالصحة، لا يطالب به أحد، ينتظر أن يحضره أحد إلى البيت، يجد حباً ويُعرض على الناس. في القصّة شيء يشبه قصة النبي موسى، تكاد تشبه أسطورة، ألا تظنين ذلك؟».

لم تقل دنيا شيئاً.

وواصلت مورايو، وقد بدا أنها انتصرت، متباهية، مذكّرة الجميع بأنها امرأة متعلمة، «عندما يمرّ بلد بأزمة تشبه الأزمة التي يمرّ بها بلدنا، يرسل الله ورقة رابحة كمعجزة ويلعب بها في يد شخص يختاره لهذا الغرض. هل ولد هذا اللقيط لينقذ الشعب الصومالي من الكارثة التي تحيق به؟ تصوّري، أنه بالإضافة إلى العثور على طفل رضيع، تكتشفين رجلاً بعمرك يا دنيا، ويأتي النبي إدريس بعربته، إحدى أفضل عرباته، بوساسو الأمريكي المثقف، الثري مثل العملة الخضراء التي يقال إنه يملك منها الكثير. تصوّري هذا يا عزيزتي دنيا ـ ثروة، ثقافة ولقيط، كلّ ذلك بضربة واحدة. يا له من حظ رائع؛ وأؤكد لك أن ورق التارو سيحمل لك حظاً كبيراً من الآن وصاعدًا».

استأثرت مورايو باهتمام مستمعيها، وكانت واثقة من أنها تستطيع أن تقول أي شيء. كانت دنيا هي المتوترة، لأنها تظن في داخلها أن مورايو ربما كانت تعرف من هو أب اللقيط، الأمر الذي لن تبوح به إلا بعد ممارسة الضغط عليها. من يمكن أن يكون الأب؟

راحت مورايو تقول الآن: «قالت لي ياري إنها ترغب في البقاء هنا معك، وتريد أن تحضر كلّ أشيائها من بيتنا. هل أخبرتك بذلك؟»

تململت نسيبة في كرسيها، مستثارة وكأنها تشاهد جولة مصارعة بين ديكين.

كانت دنيا هادئة، وقالت: «أنا لا أشارك ياري في رأيها، وقد قلت لها ذلك عندما تحدثنا عن هذا الأمر هذا الصباح. وأوضحت لها إننا يجب أن نتكلّم مع أبيها طارق، ومع العمّ قاسم ومعك. يجب أن نجلس حول مائدة مستديرة ونناقش الأمر».

أحكمت مورايو قبضتها على رسغ ياري التي استدارت إليها وقالت: «الآن، قولي لي لماذا تريدين أن تتركينا وتأتي إلى هنا؟».

ارتسم امتعاض على وجه ياري التي لم تقل شيئاً.

«ألم نكن لطيفين معك؟ ألم نعاملك مثل ابنتنا؟».

«كنت دائماً لطيفة ورقيقة معها»، قالت دنيا.

«دعي البنت تتكلّم هي نفسها»، قالت مورايو لدنيا.

اكتسى وجه دنيا تعبير تافه، خرق رثّة من الغضب، لكنها تركتها تمر دون أن تعارضها، محتفظة بأسلحتها لأمور أخرى ذات أهمية استراتيجية أكبر.

جعلت مورايو ياري تقف بعيدة عن الجميع، مثل تلميذة مخطئة تستجوبها معلمتها وتصرّ على أن تعترف بأنها ارتكبت خطأ. كان ذلك مهيناً لدنيا، لكنها تحملته.

قالت مورايو: «ألم نمنحك أنا وقاسم كلّ الحبّ الذي تحتاجينه؟ ألم نجلب لك أنا وقاسم جميع الألعاب الحديثة التي تحبينها وأكثر؟ ألم نشتري لك كل ما كنت تطلبينه؟» وكل ما هنالك. إعطاء. شراء. استلام. امتنان. كلمات رئيسية لها علاقة بالعطاء والتلقي. ماذا كان على الفتاة الصغيرة أن تفعل بكلّ ذلك؟

كانت ياري تهزّ رأسها بصمت.

ثم قالت موررايو: «هل تعرفين أنه لا يوجد هنا، في بيت دنيا جهاز تلفزيون؛ لا يوجد جهاز فيديو، ولن تكون لديك غرفة خاصة بك، بل ولا حتى سرير يمكنك أن تقولي إنه لك، بل سرير قابل للطي يوضع تحت سرير آخر، سرير يُشترى مستعملاً، يجمع غباراً تحت غطاء في زاوية مليئة بالأغراض في الغرفة، لا يصلح لسكن البشر، بل لسكن الحيوانات!».

فقالت دنيا: «حسناً يا موررايو، هذا يكفي!».

التفتت موررايو نحوها، وحدّقت فيها، وكأنها لم تفهمها.

«يكفي ماذا؟ عندما لا تتكلّمين مع ابنتك الجاحدة الغبية وتجعلينها ترى حقيقة الأمور يا دنيا؟».

«لقد قلت أشياء أكثر مما يتحمله صبري»، قالت دنيا، «وبالتأكيد أكثر مما يمكن أن يتحمله كبريائي».

«المسكينة لا تعرف مصلحتها»، قالت ذلك بنبرة متواصلة، وكأن ما قالته كان مجرد كلمة طويلة واحدة.

«لن أثني ابنتي عن رغبتها في العودة إلى البيت».

تجاهلت موررايو تعليق دنيا وقالت لياري: «إنك ابنتنا منذ أن كنت في السادسة من عمرك والآن أصبحت في التاسعة أليس كذلك؟».

أومأت ياري.

التفتت موررايو إلى نسيبة وقالت: «وأنت وأخوك التوأم: ألا تتذكّران أني قدمت لكما، أنا وقاسم، مكاناً وبيتاً عندما سافرت أمّك بضعة أشهر لتحضر دورة تدريبية إلى غانا، عندما لم يقبل أخوها شيري بأن تمكثا عنده؟ وكان هذا قبل أن نصبح أقارب بالزواج لفترة طويلة، قبل أن يتزوّجها بكثير؟».

لم تحرك نسيبة ساكناً.

واصلت موررايو مناجاتها دون أن توجه كلامها إلى شخص معين: «لا يعني

لي الأطفال كثيراً لكن بيتاً بدون طفل مكان تلتقي فيه الأشباح والجان»، ثم توجهت إلى ياري وقالت: «إنك تعنين لي لأنني رأيتك وأنت تكبرين أمام عينيّ هاتين، وأريد أن تتاح لك الفرصة لأن تدرسي في الخارج، في أمريكا أو في كندا».

فقالت دنيا حانقة: «عدتِ إلى ذلك يا مورايو».

«عدت إلى ماذا؟» سألتها مورايو، بحيرة.

«دعينا نتكلّم عن شيء آخر، غيّري الموضوع. بهذه الطريقة إنك تجرحين مشاعري واحترامي لذاتي. نستطيع أن نعطيك هذا، يمكننا أن نقدم لك أمريكا وكندا على صينية، وتلفزيون العالم؛ وجهاز الفيديو والألعاب بكبسة زرّ. هذه ليست الطريقة التي يمكنك أن تتكلمي فيها مع ابنتي».

«كيف تريدنني أن أتكلّم معها؟» انتصبت مورايو في جلستها.

«أقترح أن نغيّر الموضوع».

«شئت أم أبيت، فإن ياري تعرف من اشترى لها الملابس التي تلبسها في هذه اللحظة!»، قالت مورايو بمرارة.

صدمت دنيا إلى حد كبير. فغرت فمها، لتخرج صوت «أوو» فقط، ثم زمّت شفتيها، وصمتت. كانت لديها عينان لا تريان، مجوفتان مثل ثقبي مفتاح. وقالت نسيبة لنفسها استطاعت دنيا أن تضبط أعصابها اليوم بشكل غير عادي.

وأضافت دنيا: «أقترح أن نؤجّل الحديث عن كلّ هذا حتى نكون في مزاج رائق أكثر».

«لا يوجد شيء يمكننا أن نتحدث عنه أو نؤجله»، قالت مورايو.

«نكون في هذه الأثناء قد تكلمنا مع طارق، والد البنت وقاسم عمّها وزوجك، بما أن الأمر يهمهما أيضاً. دعينا لا تهين إحدانا الأخرى أكثر من ذلك».

حكّت موررايو رأسها بحذر بأظافرها. عندما فعلت ذلك، رأى الجميع إبطها المكسو بالشعر. تذكرت دنيا النساء الصوماليات اللاتي لا يحلقن شعر آباطهن وشعر عانتهن ـ سمات الأزمنة الحديثة، آمين!

«أريد اللقيط إذًا»، قالت موررايو، تمشياً مع عادتها بأن لا تطلب طلبات عادية.

«ماذا قلت؟» سألت دنيا غير مصدقة.

«إما ياري أو اللقيط»، لم تقل الطلب بطريقة مهذبة، بل بطريقة أمر وبلهجة نعم أو لا. وما على البشر من أمثال دنيا من خيار إلا أن تطيع هذه الأوامر.

«يجب أن أستشير المسؤول الآخر عن اللقيط».

«من هو؟» تساءلت موررايو.

«بوساسو»، قالت دنيا، مستمدة بهجة من ذكر اسمه. كان هناك مزيج غريب من التهكّم والمرارة في صوت موررايو، «إذًا هو ذاك الرجل الذي ظهر في حياتك والذي جعل حياتنا مستحيلة العيش».

«ماذا تقصدين؟» سألت دنيا.

«لا يهم»، قالت موررايو.

كان الصمت يضغط على أعصاب الجميع ما عدا موررايو التي جلست بأبهة، ممتلئة بالثقة، تطفح بضوضاء أساورها من الفضة والذهب. اشتعلت عينا نسيبة بابتسامة عريضة خبيثة. جاء ماتان أيضاً وانتحى جانباً، ترتسم على وجهه قسمات مشجع فريق كرة قدم يتفرج على بطولة نهائي الكأس. حشرت ياري نفسها إلى جانب نسيبة في الكرسي ذي المسندين. باختصار، ظل الطفلان هادئين متآمرين وكأنهما يعرفان سرّاً ما سيحدث.

تلعثمت موررايو وقالت: «كلّ ما قصدت أن أقوله لك إن تربية أربعة أطفال

ستكون عبئاً مالياً ثقيلاً ما لم يرغب هذا الرجل بوساسو في مساعدتك. دعينا نواجه الأمر، حتى أنك لا تستطيعين أن تلبي أذواق ياري الغالية الثمن».

كانت دنيا شديدة الانزعاج لترد عليها.

«أعرف أن ياري لا تستطيع أن تعيش بدون جهاز فيديو وتلفزيون»، واصلت موررايو كلامها.

فقالت ياري: «يوجد لدى العمّ بوساسو جهاز متقدم جداً». ما إن قالت ذلك حتى أدركت أنها أزعجت أمّها. فخبأت رأسها وراء نسيبة.

«تذكّري أيضاً أن هذا البيت الذي تعيشين فيه الآن بدون إيجار تقريباً هو ملك لزوجي» قالت موررايو بتبجح، «لذلك كوني عاقلة يا دنيا. استخدمي عقلك. إمّا أن تعطيني اللقيط أو أن تتركي ياري تعود معي الآن».

نهضت دنيا، مستثارة. لم تعرف ما الذي كان يخرج من فمها. وقالت: «سنحتفظ باللقيط لنعطيه لك، ماذا عن ذلك؟».

وبسيماء تعال، قالت موررايو: «هذا لا يعني شيئاً».

«إنه يعني لي شيئاً»، جادلت دنيا.

«وماذا عن ياري؟».

اشتعلت عينا دنيا غضباً ولم تعد تستطيع أن تتمالك نفسها.

«قفي على قدميك السمينتين الثقيلتين يا موررايو»، قالت، ووقفت وكأنها تستعد لمعركة تحسم فيها الأمر، امرأة مقابل امرأة، قبضة مقابل قبضة.

وقفت موررايو، مضطربة.

اصطف الأخ والأخ التوأم بجانب بعضهما، ثم انضمت إليهما ياري، مشكلين نادياً من ثلاثة مشاهدين ليصفقوا لأمّهم. بدا وكأن دنيا وموررايو فتاتان صغيرتان تتشاجران على ملكية دمية، ستمزق إحداهما الأخرى، إرباً إرباً، إلى أن لا تعود دمية، بل شيئاً آخر، شيئاً أكبر بكثير، على مستوى رمزي.

«هل تعرفين مكان الباب؟» سألتها دنيا، محافظة على هدوئها. لم يثر ذلك مورايو. راحت تحدّق في مورايو، تتحداها على اتخاذ الخطوة التالية.

«أريدك أن تغادري في هذه اللحظة يا مورايو، وبسرعة أيضًا».

«ستندمين على ذلك».

«لقد سمعت ما يكفي من الهراء في يوم واحد»، قالت دنيا، «هيا اخرجي».

قالت مورايو: «أنت لست أمّاً جيدة لابنتك»، ثم أشارت إلى ذقن الفتاة وقالت: «انظري إلى هذا. إنها أكزيما. لقد مضى على وجود ياري هنا أربع وعشرين ساعة فقط وقد عادت الحساسية إلى بشرتها. إنك تسمين نفسك ممرضة. لماذا لا تضعين الدواء الذي أحضرته الفتاة معها؟ لا يوجد لديك وقت لها، فقط للرجل الجديد الذي دخل حياتك واللقيط».

فصاحت دنيا: «اخرجي من هنا، اغربي عن وجهي!».

«هذا بيت زوجي»، وقفت مورايو في مكانها، بتحد.

«أنا المستأجرة ولي الحقّ في أن أطردك»، قالت دنيا مهددة.

«انتظري حتى أخبر قاسم بما فعلته معي».

لمفاجأة الجميع، بمن فيهم دنيا قالت: «قدمي لقاسم تحياتي واطلبي منه أن يجد مستأجراً جديداً لهذا البيت. سننتقل قريباً» وفجأة عرفت دنيا من هو والد اللقيط. لم تعرف كيف توصلت إلى هذه النتيجة، لكنها عرفته.

دون أن تنبس بكلمة، تركت مورايو يد ياري وغادرت.

ثم مزقت دنيا بشدة ثوبها، كما لو كانت شخصاً عاقلاً الآن، وحطمت غلال جنونها.

جلست ياري والتوأم صامتين في كرسي ذي مسند واحد، يمسك أحدهما يد الآخر.

كان المكان مشحوناً بالتوتر. ظل الجميع بعيدين عن طريق دنيا. ظل اللقيط

صامتاً، فقد أكل جيداً، وغط في النوم. ولم يستيقظ أو يبكي حتى عندما أقفلت نسيبة المذياع.

وماذا عن دنيا؟ كانت قد رفعت قدميها، وراحت تتأمّل أصابع قدميها. غير مدركة ما يدور حولها في العالم، لا توليه أي اهتمام، لبثت حيث كانت، صامتة، تفكّر. شعرت بالارتياح. شعرت أنها يجب أن تغادر بيت قاسم إن آجلاً أم عاجلاً. لقد ساعدتها المشاكل التي تواجهها الآن على اتخاذ قرار من طبيعة مختلفة: إذ يجب أن تجد بيتاً في وقت قريب تستقبل فيها أبشير.

قال أحدهم متضرعاً، يا الله، ليأتِ بوساسو! ثم سمعوا وقع أقدام تجري، خفيفة مثل قطرات المطر على صفائح الزنك. قالت نسيبة: «لقد جاء، إنه ينتعل حذاء خفيفاً، يهرول»، وانتظروا جميعهم. عندما دخل، شعروا وكأنهم جنود أحسوا بالارتياح عندما علموا أن رفاقاً لهم قد وصلوا لنجدتهم أخيراً. رحّبوا جميعهم ببوساسو وراحوا يخبرونه بكلّ ما حدث همساً. نظر نحو دنيا مثل شخص يكمن له قطاع طرق، لكنه بقي مع الأطفال. حثّت نسيبة ماتان ليحكي لهم حكاية جحا. وشجعته ياري وبوساسو أيضاً، وأضافت نسيبة أن دنيا تحبّ أن تسمع حكاية أيضاً.

أحضر صيّاد صديق لجحا طائراً وقدمه له هدية، فأعدّته زوجة جحا للرجلين. وبعد شهرين طرق رجل لا يعرفه جحا وزوجته باب بيتهما. «من الطارق؟» سألا الرجل.

«أنا صديق صديقك الصيّاد»، قال الرجل معرّفاً بنفسه، «الذي قدم لك الطائر هدية والذي طهته زوجتك والذي تناولتم لحمه أنتم الثلاثة».

رحّب جحا وزوجته بالرجل وأكرماه بالطعام. غادر الزائر، ووعد بأن يخبر الصيّاد بأنه قدمت له وليمة على شرفه.

ومرّت بضعة أسابيع، ثم قرع رجل آخر باب جحا. فسأله جحا «من

الطارق؟» فردّ الرجل أنه جار صديق الصيّاد الذي يعرفه، والذي أحضر له الطائر هدية، والذي تناولوا لحمه.

«أهلاً وسهلاً» قال جحا للرجل، ودعاه للدخول.

وبعد نصف ساعة، وضع جحا أمام الرجل قِدراً كبيراً، لا يزال الغطاء عليه، وعندما رفع الرجل الغطاء، اكتشف مندهشاً أنه لا يوجد في القِدر الكبير شيء، إلا ماء يغلي.

«ما معنى هذا؟» سأل الزائر.

فقال جحا: «إن الماء الذي يغلي أمامك هو ذات القِدر الذي غلي فيه الطائر الذي قدمه لي صديقي الصيّاد، والأكثر من ذلك إن القِدر هو الوعاء نفسه الذي طُهِيَ فيه طعام صديقك. أهلاً وسهلاً. تفضل وكل».

غادر الرجل بيت جحا دون أن ينبس بكلمة.

بعد نصف ساعة، جلست دنيا وحيدة في الكرسي ذي المسند حيث غادروها. كان ثمة صوت يحثّها على النهوض، والذهاب إلى سرير اللقيط لكي تتبين السبب الذي جعله لم يتحرك أو يبكي منذ فترة. لكن صوتاً آخر، مقنعاً بنفس القدر، شجّعها على أن تركّز اهتمامها على وسامة نسر يحلّق عالياً في السماء ولا يريد أن يهبط في أي مكان. وقال الصوت الحالم الثاني هذا: «لقد حقق اللقيط ما جاء من أجله إلى هذه الحياة. فقد جاء دون أن يخبر أحداً بمجيئه، وربما سيغادر بنفس الطريقة. إنه طفل أسطوري، إذا أحببت». لم يكن الصوت يشبه صوت بوساسو على الإطلاق، ولا صوت نسيبة. «طفل رضيع تقاسمت بدايته لا زمنية الحكايات الأسطورية، وانتهت بعدم صحة الأساطير. فكّري بموسى وهو في سلة تطوف فوق النهر، فكّري بالأطفال المعجزة، فكري بالأساطير»، اختتم الصوت كلامه.

لكني أريد أن أنهض! قالت دنيا لنفسها، بالرغم من عدم قدرتها على النهوض. كانت وكأن وزناً أثقل منها يشدها إلى الأسفل، يمنعها من النهوض.

ثم جثمت يعسوبة فوق أرنبة أنفها.

لكن دنيا شعرت بنعاس شديد إلى درجة أنها لم تستطع أن تنشّ اليعسوبة. خيّل إليها أنها سمعت طرقاً على الباب الخارجي، وربما دخل أحدهم. أم هل كانت تلك جلبة منبعثة من اللقيط وهو في سريره؟ رأت دنيا نسراً يهبط، رأته يدخل غرفة الرضيع، رأته يخرج، يحمل في منقاره، وهو يطير نحو السماء، لا الرضيع، بل اليعسوبة.

كان كلّ شيء حالماً وهامداً، وخيّل إلى دنيا أنها هي أيضاً لم تكن من بين الأحياء.

[11]

وفيه يزور طارق وقاسم دنيا ثم ماير في وقت متأخر من بعد الظهر

استيقظت دنيا وسط هدوء مريب، ولم تكن واثقة إن كان قد خيّل لها أنها سمعت صوت طارق يسألها إن كانت ترغب في احتساء كوب من الشاي. لكن ماذا عن اللقيط؟ وأين هو طارق؟ للحظة ناعسة، كان كلّ شيء حقيقي مثل حلم يحلم به المرء.

أتى صوت جلبة من المطبخ: إبريق شاي يُغسل ويُنظف، ثم يملأ بماء الحنفية؛ وصوت قدح عيدان ثقاب، ولهب نار موقد الغاز تفوح منه رائحة تثير التقزز. ثمة أحد يذرع المكان جيئة وذهاباً، ثم ينطلق صوت صفير. هذه الإشارات دعمت شكّها في أن طارق قد جاء، وأنها قد سمعت صوته. كان ظهرها مقوساً، ورقبتها متصلبة قليلاً. كانت قد غطت في النوم على الكرسي ذي المسند خارج غرفة ماتان، وكأنها تحرس باب غرفته. كانت تمسك سلسلة دراجته بيد، وباليد الأخرى تمسك بإحكام الرداء الذي أعطتها إياه نسيبة. لا بد أنها قد سقطت في بئر القيلولة الضحلة عندما غادر بوساسو والآخرون الغرفة. مرة أخرى، راودها السؤال: ماذا حلّ بالرضيع؟

خطر لها بتكاسل أن تطلب من طارق أن يلقي عليه نظرة.

كان من الواضح أنه شاخ منذ أن رأته آخر مرة، لا يعلم إلا الله متى. فقد بدا الآن رجلاً متصالحاً مع نفسه. وتذكرت أن صديقاً مشتركاً لهما يدعى سيج، وهو صحافي ممتاز، وواحد من أفضل الصحافيين في الصومال، كان قد قال

لها ذات مرة: «لا يوجد شيء أقبح من رؤية صحافي توقف عن الكتابة. إن كلّ هذه الطاقة الحبيسة، غير المستخدمة تدعو إلى الحزن الشديد. إنه أشبه بنهر يجري نحو الرمل، يهدر نفسه». كان سيج وطارق ودنيا يقفون أمام مبنى المطبعة الحكومية التي تطبع الصحيفة اليومية الوحيدة في البلاد، إكسيديغتا أكتوبر. كانت دنيا قد ذهبت لتطلب من طارق أن لا يعرّض ياري لعذاب عملية الختان بتخييط الفرج. كان قاسم وموررايو قد وعداها بذلك، لكن دنيا أرادت أن تتأكد بنفسها. في ذلك الصباح بالذات، أحضرت هيبو إلى المستشفى ابنتها الصغرى التي كانت قد خُتنت دون معرفتها بواسطة حماتها التي كانت في زيارة لهم، أمّ غالاير. ولكي يريح عقل دنيا، قال لها طارق إن موررايو نفسها لم تجر عملية البتر هذه. وبعد أن هدأت من روعها، قبلت أن تقيم ياري في بيت العمّ قاسم وزوجته موررايو.

أخيراً أصبح معنى الجلبة واضحاً، عندما وصل طارق وهو يحمل صينية عليها أكواب الشاي ودورق ماء بارد من خابية الماء الفخار. وعندما أفاقت، رأت دنيا أنه كان متردداً، يسأل أين يضع الصينية. وفجأة نهضت ووقفت بتثاقل على قدميها، مفعمة بالطاقة والحيوية. وقد جعله ذلك نشيطاً أيضاً. طافت دنيا بعينيها في أرجاء الغرفة، ورأت حالة البيت من الإهمال ـ هل من الملائم أن تغادر البيت دون أن تولي اعتباراً لذلك؟ لا شيء يؤسف عليه، قالت لنفسها، لا توجد آثام تستحق أن تندم عليها. سيتم طلاء الأرضيات بطلاء أبيض، وكذلك الجدران. سيكون كلّ شيء على ما يرام.

عندما وجد منضدة واطئة يضع عليها الصينية، قالت: «أين ذهب الجميع؟ أين الأطفال؟».

إن الزواج وسيلة لتشكيل عادات قبيحة أو جيدة. كان طارق يعرف ماذا تحب؛ يعرف كيف تحبّ الشاي الذي تحتسيه، كمية السكر التي تفضلها، وكان يعرف أنها نادراً ما تشربه بالحليب. كما لاحظت أنه أحضر لها دورق الماء لكي تتخلّص من طعم النوم. صبّ كوبين من الشاي.

أخذت رشفة من الماء، غرغرتها، ثم بصقتها. لم تكن متأكدة إن كان النوم أو الدم هو الذي تذوقته في لعابها عندما غرغرت. غسلت وجهها بالماء البارد، ثم جلست. لم تكن ثمة رسميات بينهما. بعد أن استدركت ما فعلته، تمنّت أن تكون قد غرغرت الماء وغسلت وجهها في الحمّام. فجأة أحسّت بذاتها، وكأن سلوكها بدأ ينبثق مؤخراً من توارد خواطر مع بوساسو.

قالت: «لقد ذهبت البنات لمشاهدة فيلم، لا أعرف أين».

«هل تعرفين ماذا سيشاهدن؟».

«نوسفراتو. أظن هذا ما قالته نسيبة».

«أليس هو بروفومو دي دونا؟».

فكّرت دنيا. تذكّرت أنها شاهدته مع أبشير في روما بالنسخة الأصلية وأحبته. كانت واثقة من أن الفتيات لم يذهبن لمشاهدة الفيلم في السينما، بل ذهبن لمشاهدة «بروفومو دي دونا» في بيت إحدى الصديقات. لكنهما كانا مهذبين مع بعضهما حتى في خلافاتهما، لا يتدخل أحدهما في شؤون الآخر لمجرد الرغبة في تسقّط عيوبه وأخطائه، كما كانا يفعلان خلال الشهور السبعة الأخيرة من زواجهما. أخذ رشفة من الشاي.

«وماتان؟».

«طلب منه بوساسو أن يرافقه».

لاذ بالصمت، مما أتاح لها وقتاً كافياً لكي تلقي نظرة عليه من قرب. كان أنيقاً في ثيابه: قميص مكوي بشكل جيد، وبنطال أنيق، ويتمنطق بحزامٍ - تخيّل أن طارق يتمنطق بحزامٍ! وينتعل حذاء جيداً، ويرتدي جوارب مطابقة. كانت تعرف أنه يرتدي جوارب غير متجانسة، وأن أزرار قميصه كانت من أحجام وأشكال مختلفة. كانت عيناه مفتوحتين، ولم يعد يقيم في ضبابية ذهوله الثمل.

تذكرت دنيا أنه أقلع عن الشراب والتدخين، وأنه عاد إلى الكتابة والنشر ثانية. يا إلهي، ماذا حدث لطارق! راحت تلوّح يديها أمامها، وكأنها تزيل شبكة نسجها خيالها أمامها، سألته دنيا: «لماذا جئت يا طارق؟».

فقال: «لقد أتيت لأزورك».

«إنك تكذب دائماً يا طارق».

«لماذا تقولين ذلك؟».

«هل لمورايو علاقة بزيارتك هذه غير المتوقّعة؟».

«ربما».

«هل أفترض أن زيارتك تؤذن بزيارة قاسم في وقت لاحق من هذا اليوم؟».

«هذا صحيح».

طوال هذا الوقت، كانت يداها تداعبان فوهة الإبريق. ملأت كوبها حتى الحافة. مدّ لها كوبه فصبّت له المزيد أيضاً. «لقد جئت بسبب امرأتين ـ واحدة زوجتك السابقة، والأخرى كنّتك الحالية ـ ما يمكن أن يسمى: مشاجرة نسائية؟ لقد جئت»، ورفعت يدها بسيماء شخص لا يريد أن يقاطعه أحد في كلامه، «لقد جئت، حكيماً وذكراً، لأن امرأتين غبيتين تشاجرتا على أمر تافه. أخشى أن تكون قد تأخرت. فقد أحدثت هاتان المرأتان الضرر الذي يمكن أن تفعله النساء. إن وصولك المتأخر بصفتك الوسيط الذكر الحكيم في مشاجرات نسائية لا عقلانية لن يصلح الأمور أيضاً».

لم يقل شيئاً. كان يعرف جيداً أن من الأفضل ألا يتدخل في تدفق كلامها السلس. كان يعرف مزاجها وكان يعرف أن وقت الكلام لم يحن بعد. انتظر.

وتابعت كلامها: «كما يحدث، كان أبي يفعل الشيء ذاته منذ سنوات عندما كانت زوجتاه، إحداهما أمّي، والأخرى أم شيري، تتشاجران على شيء كان هو سببه، كانت تُجرح إحداهن. وكان أبي يأتي، كما يفعل الرجال الحكماء،

بعد المشاجرة بوقت طويل. كان يأتي ليأمر المرأتين أن تتصافحا أمامه وأمام شهود آخرين من الذكور. كان يطلب منهما أن تتصافيا، ويأمرهما بأن تتصافحا، وأن تغلقا فميهما».

ظل طارق هادئاً وصامتاً. تابعت دنيا قولها: «لقد تعلّمت أن أشكّ في الرجال الذين يقدّمون أنفسهم كصانعي سلام بين النساء»، وأضافت، «عندما يكونون هم، الرجال، سبب الشجار، تبدأ العداوة والمنافسة بين النساء. قل لي إذًا يا طارق، يا زوجي السابق العزيز، وأب أصغر بناتي التي أحبّها كثيراً، قل لماذا جئت إلى هنا».

«في الحقيقة، لقد جئت لأرى اللقيط، بدافع من الفضول».

«لا أصدقك»، قالت دنيا بتحد.

«هكذا أنت دائماً».

استدارت وقالت: «هيا إذًا. شاهده واذهب».

«لقد رأيته».

«صحيح؟»..

أومأ طارق، وقال: «إنه نائم».

سألته: «هل يشبه أي شخص تعرفه؟».

«من المبكّر جداً أن أحدد ذلك بدقة».

«هل ألقيت نظرة فاحصة عليه؟».

«كان نائماً، وكانت قبضتاه تغطيان جزءاً من وجهه، وكأنه يدافع عن نفسه من ضربة قادمة. نعم، ألقيت نظرة جيدة بقدر ما استطعت في هذه الظروف».

«لماذا؟».

«أجيبي على سؤالي أولاً، يا دنيا».

«هيا اسأل».

«من يجب أن يشبه؟».

«قل لي لماذا ألقيت نظرة فاحصة عليه وسأخبرك بعد ذلك من يشبه»، قالت دنيا تساومه.

«أنا صحافي، وكان اللقيط خبراً هذا الصباح، لذلك فهو اهتمام مهني بالنسبة لي»، قال طارق مبرّراً نفسه.

قالت في نفسها إن طارق لا يشك في أن قاسم هو أب اللقيط. أم هل أخطأت الظن في ذلك أيضاً، بما أن نسيبة كانت قد قالت: إن الرضيع ليس لهما، وهي تعني مورايو وقاسم.

قال: «هل تتذكّرين أنك قلت أكثر من مرّة إنه لا توجد لدى معظم الرجال فكرة كيف يستجيبون للأطفال الرضع قبل أن ترتسم على وجوههم ابتسامات تعترف بأبوتهم؟».

«لا أتذكّر أني قلت ذلك بدقة، لكن الكلمات تحمل طابعي».

«جيّد، التقيت اليوم برجلين أثّر عليهما وجود اللقيط هنا في بيتك: هما قاسم وشيري».

«قاسم هو الذي يهمني، لا شيري. ماذا قال قاسم؟».

«كنا في غرفة الجلوس عندما عادت مورايو، بعد شجاركما. إنكِ تعرفينها جيداً، نهر من الكلمات يفيض على الضفتين، مهما كان الفصل الذي نحن فيه. حسناً، فقد هجرتنا في وسط مستنقع من الكلمات. بالنسبة لي، لا أستطيع أن أعرف سبب المشاجرة. بالطبع، كانت معالم المشاجرة المتعلقة بباري واضحة، لكن الأشياء التي قالتها عن اللقيط لم يكن لها أي معنى. فقد سمعت عن رضيع عُثر عليه بجانب مستوعب قمامة، لكن المذياع لم يذكر شيئاً عن الشخص الذي قدم مأوى للقيط. ثم سألها قاسم عن الرضيع بطريقة ودّية، جعلتني أبدي اهتماماً به. من أحضر الرضيع إلى البيت؟ من كان موجوداً في بيتك؟ هل تعرف مورايو أياً من البنات الصغيرات في بيت دنيا؟ هل كانت هناك

شابّة من عمر نسيبة، ومن أبدى اهتماماً بالرضيع أيضاً؟ تذكّرت مورايو فتاة بعمر نسيبة تساعدها في الاعتناء بالرضيع. انتصب في جلسته، يقظاً، وسأل قاسم عن اسمها. لم يشعر بالارتياح إلا عندما قالت له مورايو إن اسم الفتاة هو مارلين. في تلك اللحظة، خطر ببالي خاطر، لذلك أتيت».

«أتطلّع لرؤية قاسم»، قالت دنيا.

«من هي مارلين هذه؟» سألها طارق.

«إنها ليست أمّ الرضيع، إن كنت تظن ذلك».

هزّ رأسه وقال: «أعني، هل لهذه الفتاة التي تدعى مارلين جدة تدعى ماريام وهل تقيمان في هذا الحيّ؟ إذا لم تستبقي الأحداث، أعطني جواباً مباشراً، وسأحكي لك قصّة».

«أحبّ القصص»، قالت دنيا.

قرّر أن يبحث في نياتها الحسنة وراح يتحدّث عن تلك الليلة التي طردته فيها من البيت، عندما كان ثملاً للغاية، ونعساناً. كانت هذه هي المرة الأولى التي تحدّث عنها.

وقال: «نمت تحت ظلّ شجرة، لم أكن أعرف إن كان الوقت ليلاً أم نهاراً. وعندما أنار البدر الفضي الساطع السماء، برزت هيئة امرأة عجوز تحمل بطانية. غطّتني بها، ودستها من جميع أطرافي مثل طفل لا أمّ له. لكنها لم تتركني طوال تلك الليلة. جلست إلى جانبي، على مقعد واطئ، تحرسني من اللصوص والكلاب التي كانت تطردها عندما تقترب مني.

وعندما استيقظت في صباح اليوم التالي، كانت تدور في رأسي ذكرى غامضة عن صوت امرأة عجوز تطلب من فتاة صغيرة اسمها غير عادي وهو مارلين لكي تعود وتنام حتى تذهب إلى المدرسة غداً».

«هل سبق أن التقيت بالمرأة العجوز؟».

«بعد ذلك بأسابيع، كنت قد أتيت في سيارة استعرتها، ركنتها في مكان قريب من باب بيت العائلة، راجياً أن أراها، لأشكرها وأعيد لها البطانية. عندما استجمعت ما يكفي من الشجاعة، قرعت الباب وسألت إن كانت هناك امرأة تتوافق مع وصفي لها أو لابنتها الصغيرة التي تدعى مارلين عندما كنت سكراناً. كانت ردّة فعل رجل البيت سلبية على زيارتي وعلى أسئلتي، وطلب مني أن أغادر. لن تصدقي ذلك، لكنني لا أزال احتفظ بالبطانية، لكي أتذكر الليلة التي طردتني فيها». لم تكن ثمة مرارة في ذاكرته عن تلك الليلة.

«لا بد أنها هي المرأة العجوز نفسها»، قالت دنيا، «كيف حدث أنها موجودة في حياتك أيضًا؟» ثم أوضحت دنيا قائلة: «جاءت هذا الصباح، وعرضت أن تعيرنا خادمة صغيرة لتساعدنا في العناية باللقيط، جاءت أولاً، وحيدة مثل النبي خضر، مرتاحة. لنفكّر في الأمر، كنت أرى المرأة العجوز بين الحين والآخر. إنه شيء جيد أن نعرفهما، إن صحبتهما ممتعة ومسلية، هي ومارلين. إنهما تأتيان في أشد الساعات حلكة، لرعاية الرضيع. إنهما تتوافقان بشكل جيد مع الجميع، هما الاثنتان، بما في ذلك بوساسو، المسؤول المشترك عن اللقيط».

أصبح طارق شديد الحماسة، ولم يعد يعرف أياً من الخيوط الكثيرة التي حبكت قصته أو قصة دنيا الحلوة يجب أن يتابعه. فقد كان عقله منظّماً، بحيث كان يستطيع أن يرتب الأفكار على الفور، فما أن يقدم له عنوان فرعي، كان يقسّم الأفكار إلى فقرات وكأنه يدوّنها في ترتيب منظّم. وأدخل خيطاً آخر في القصة التي حبك خيوطها للتو، قال طارق: «شيري الذي كان عند قاسم اليوم، يقول إنك مجنونة لأنك ترغبين في الاحتفاظ باللقيط».

«ماذا كان شيري يفعل هناك؟» قالت دنيا بارتياب.

«كان متلهّفاً لأن يتحدث على انفراد مع قاسم»، قال طارق، ولم يقدم شيئاً جديداً، «لعله كان يريد أن يجمع المزيد من المال، يبيع ساعات أو يشتريها بسعر مخفض من قاسم، لا أعرف».

«ما هي الأسباب التي قدمها شيري عندما قال إنني مجنونة لأني سأحتفظ بالرضيع؟» سألت دنيا.

«شيري لا يقدم أسباباً. إنه يتشدق بالآراء، ويعطي أحكاماً مسبقة مجحفة، وأفكاراً متعصبة تنم عن جهل».

«ما رأيك، رأيك المثقف المتعلّم؟» سألته دنيا.

ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة الساهمة التي تشبه سراباً يعد بتوفير المياه للعطاش، ويمنح المسافر الأمل بوجود واحة وراء التلّ. وتحوّلت مياه ابتسامة طارق أخيراً إلى مياه عكرة ورمادية. فقال: «من الصعوبة تقديم نصيحة إلى الناس حول هذه الأشياء. إنه مثل الزواج، من الأفضل ترك القرار بيدي الشخصين المعنيين، وعدم تدخل طرف ثالث أو رابع أو خامس».

«لكن ماذا كنت ستفعل لو كنت في مكاني؟».

«يجب أن أعرف أكثر بكثير مما أعرفه قبل أن أعطي رأيي».

«لكن حتى لو عرفت، فإن مسار نبضات عقلك وعقلي مختلف إلى درجة أني أشكّ في أننا سنصل إلى النتيجة ذاتها».

«لا أستطيع أن أتّفق معك أكثر من ذلك»، قال.

طوال هذا الوقت، كانت تلّح في رأسها الرغبة غير المتحققة في أن تنهض وتعرف لماذا لم يتحرك اللقيط أو يبكي منذ فترة طويلة. لكن صوتاً همس في أذنها، يطمئنها بأنّ الرضيع على ما يرام، لم يكن ثمة شيء يثير قلقها.

«قل لي كيف ترى الأمر»، قالت.

«لن أعطيه إلى مورايو مثلاً».

«لم لا؟».

«لا يوجد لدى مورايو ـ على فكرة إني أحبها كثيراً ـ فهم عميق بالرموز. إن ما تفعله هو أنها تعيش على سطح الأشياء، في ألق وبهرجة الأشياء الجميلة

الزائفة، تقتنع بسهولة بسطحية الأشياء. إن طفلاً رضيعاً كهذا اللقيط بحاجة إلى أبوين يعاملانه كما لو كان يتمتع بمكانة خاصة، ولا يُذكَّر ببداياته الأرضية، أو لا سمح الله، بأنّ أسلافه غير معروفين. تخيّلي ماذا لو سخر أقران المسيح به، وقالوا له باحتقار أنه لا يوجد لديه أب مثلهم. إنّ القوّة التي تكمن في أسطورة المسيح هي أننا لا نعرف عنه الكثير. وفي حالة موسى، نراه أولاً لقيطاً يطفو فوق الماء، في سفينة، يمصّ إبهامه. ثم نلتقي به رجلاً بالغاً، رسول الله. إننا لا نرى أطفالاً أسطوريين يكبرون، لأن ذلك يحرمهم من المصداقية السحرية التي هي جوهر كلّ الأساطير. لذلك لكي يظل مخلصاً للمهمّة المدهشة الموكلة له، يجب أن يكبر هذا اللقيط في بيئة بعيدة عن البيئات من أمثال موررايو وقاسم، أن يكبر في منطقة حاضنة في العالم، غير مكشوف للحقائق اليومية التي تحيط بمعظمنا».

«لنفترض أننا عرفنا أبويه؟».

«هذا لا يعني الكثير».

«كيف ذلك؟».

«كان للمسيح والد معروف»، قال طارق، «أمّه، وكذلك موسى، أو سنجاتا أو موينذو الأفريقيين - جميع الأطفال الأسطوريين هؤلاء كانت لديهم أمهات. لعلهم كانوا نصف آلهة، نصف بشر».

فقالت: «ماذا لو مات شاباً، لنقل، غداً، أو بعد عشر سنوات، أو إذا قتله مرض غير قابل للشفاء أو إذا أودى داء الكزاز بحياته؟ هل كل هذا الكلام حول الأساطير مجرّد هراء، مجرّد كلام، لا أكثر ولا أقل؟».

«إن هذا سيمثل موضوعاً مختلفاً في قصّتنا؛ سيحدث شيء مختلف لكلّ شخص»، توقّف، ثم واصل: «في أسوأ الأحوال، سيجعل بعضنا يفكر بجدية».

«ماذا لو جاء قاسم ليطلبه؟»

كان من المسلّي أن تراه متردداً، مثل هدى الحذرة التي تخشى أن تتعثر بحروف علة ضيقها. لأن هذه كانت أقرب إلى البيت، ولم تكن أسطورة إسلامية أو مسيحية أو يهودية أو أسطورة من المندينك، بل شيئاً حقيقياً، يلامس حقائق ووقائع أخوية، عن العلاقة بين الأخ الأصغر والأكبر. وكان طارق يعرف ذلك، يعرف أنها تعرف ذلك أيضاً. كان صريحاً في رأيه.

«إن قاسم لا يعرف قيمة الهدايا. إني أعرفه جيداً، فهو يوزع بعض الأشياء حتى قبل أن يمتلكها هو نفسه».

«أخبرني لماذا يجب أن أحتفظ به».

«لأنك أنت التي تستحقينه».

«كيف؟».

ابتسم ابتسامته الساهمة التي تعرف دنيا معناها.

ومع ذلك، راحت تنصت إليه باحترام. فقال: «لا أريد أن أبدو متديناً، لكني بدأت أؤمن بأنه يجب أن يكون لدى البشر إيمان بالمجرد، وعلى هذا الأساس يجب أن نعيد بناء العالم كما نعرفه من الأساطير التي نؤمن بها، لكننا لا نعرفها حقاً. ثمة غذاء في الأسطورة، ذلك النوع الذي يغني».

لم تفهم دنيا عما يتحدّث، لكنها قالت لنفسها إنه ليس من الضروري أن تطلب منه توضيحاً. خفت البريق في عينيه، مثل لون اللهب الأزرق في موقد بدأت قنينة الغاز التي تغذيه بالغاز ينفد. هل هبط عليه شعور مفاجئ بالإعياء؟ هل ذلك عرض من أعراض الانسحاب، ردود فعل مزعجة بسبب غياب النيكوتين والكحول في الوقت نفسه؟ غيّرت الموضوع بسرعة، وقالت:

«لقد استمتعت بقراءة «قصة البقرة» التي كتبتها».

أخذ يبحث عن الكلمات مثل رجل ذي أصابع غليظة يحاول أن يفكّ عقدة دقيقة. لم يستطع أن يقول جملة كاملة تمكنت من متابعتها. ضاقت عيناه حتى أصبحتا مثل شقين.

كانت دنيا واثقة من أنه نام، فتركته. تذكّرت المرات التي كان يعود فيها إلى البيت، مدمراً. أو عندما كانت تعود من العمل وتجده ممدداً على الأرض بعد أن استدعاه النوم هو وأطفالها الثلاثة. فكانت تأخذ كل واحد منهم إلى سريره.

تأكدت دنيا الآن أنها سمعت صوت جلبة غامضة. ولأن ظهرها كان متجهاً نحو الباب، التفتت لترى من القادم وقرّرت أن تغادر. لم تكن تنوي ذلك، فركلت طارق وأيقظته. مجفلاً، صاح شيئاً بدا مثل «من؟».

وجاء صوت امرأة بنفس القدر من القلق يقول «أنا».

«أرجوكِ ارجعي»، قالت دنيا، بعد أن عرفت المرأة العجوز من صوتها.

في هذه الأثناء، انتصب طارق في جلسته، عيناه حمراوان، وراح يفركهما فازدادتا احمراراً. اعتذرت لأنها أيقظته؛ واعتذر هو لأنه أخذ قيلولة.

نهضت دنيا لترحب بمريم، جدة مارلين، بعبارة: «لقد ذهب الأطفال جميعهم مع بوساسو وتركوني اليوم»، ثم عرّفتها على طارق.

كان ذلك غريباً، لكن المرأة العجوز لم تنظر إلى طارق الذي نهض ليصافحها. أمعنت النظر في دنيا، وقالت: «إني آسفة لأنني جئت هكذا، لكني في الواقع أبحث عن مارلين، وآمل أن أجدها هنا».

«لا، إنها ليست هنا».

«هل خرجت مع أطفالك؟».

«أشكّ في ذلك».

التفتت وقالت لدنيا: «يجب أن اذهب إذًا». في هذه اللحظة، قال لها طارق: «ألم نلتق من قبل، أنا وأنت؟».

برزت ابتسامة وسّختْ تعابير المرأة العجوز النظيفة، وسألته: «صحيح؟».

«لقد قدمتِ لي بطانية ذات صباح باكر، وسهرتِ لتحمي جسدي السكران

من الكلاب الضالّة، والقطط الجائعة ولصوص منتصف الليل، ولم أتمكن من تقديم شكري لك على ذلك».

هزّت جدة مارلين رأسها وقالت: «لا أذكر شيئاً من هذا».

«لقد احتفظت بالبطانية كتذكار على لطفك».

«لا بد أنه شخص آخر ظننته أنا»، أصرّت المرأة العجوز.

«كنت أنوي أن أعيد البطانية، لكني لم أفعل ذلك لعدة أسباب، لذلك احتفظت بهذه الحادثة في ذاكرتي عن شفقة ولطف امرأة عجوز».

فقالت المرأة العجوز: «في هذه الحالة، لماذا تقلل من قيمة هذا العمل بذكره علناً؟ لماذا تتحدث عنه؟».

أمعن طارق في ما قالته المرأة العجوز.

«لديها حق»، قالت دنيا موافقة.

قالت المرأة العجوز التي أصبح صوتها الآن واثقاً، وعيناها تنظران في عيني طارق: «هل هناك مشكلة مع الرضيع؟ لماذا هو هادئ جداً؟».

ما إن بدأت دنيا تفكّر بما ستقوله، حتى فُتح الباب الخارجي، ودخل قاسم ذو البطن المنتفخة الذي يتفصد منه العرق. ومثل شيري، كانت عينا قاسم مثل عينيّ رجل يريد أن يكون في مكان آخر. فقد كان بديناً جداً مثل شيري، كان جسمه مستديراً مثل الجزء السفلي من شجرة الباوباب الاستوائية، وله أصابع قصيرة مكتنزة ذات أظافر قصيرة. كانت عينا قاسم صغيرتين، وأسنانه مبقعة بالتبغ. وخطر لدنيا أن بطنه تشبه خلاطة إسمنت. لكن قاسم، بخلاف شيري، لم يكن يتكلم كثيراً. وكان يترك نقوده تتحدث عنه. ومثل إمبراطور لديه صندوق ممتلئ يريد أن يوزعه، كان قاسم يعطي ويعطي ويعطي. وكان يغادر قبل أن يبدأ الناس في امتداحه أو مباركته.

«أين هو الشيطان الصغير؟» قال بسرعة.

«أيّ شيطان صغير؟» سألت دنيا.

«الجنّي الصغير الذي أحدث كلّ هذا الشقاق؟».

بدا أن المرأة العجوز كانت تتمنى أن تكون قد خرجت قبل الآن.

فقالت دنيا: «عندما تدخل بيت أحد، فإنك تحيّيهم أولاً، وتجلس وتبقى مؤدّباً».

«قلت أين هو؟».

«أين آدابك في السلوك؟».

«آداب السلوك، استمعوا إليها وهي تحدثني عن آداب السلوك؟» وراح يخاطب المرأة العجوز، «أين هي آدابك في السلوك يا دنيا؟ أريد أن أعرف أين ذهبت آدابك في السلوك، تقررين أن تقطعي العلاقات معنا، هكذا بضربة واحدة. لا تكلميني عن آداب السلوك».

فيما تهيأت المرأة العجوز لتغادر، قال لها قاسم: «هل تعرفين أين هو الشيطان الصغير؟».

«طبعاً، إنه ليس شيطاناً ـ بل ربما ملاك».

«أين هو؟».

«إنك تعرف أنه لا توجد هنا سوى غرفتين فقط، بما أنك صاحب البيت»، قالت المرأة العجوز غاضبة: «ابحث عنه بنفسك».

استمع إلى نصيحتها وتوجه إلى غرفة النساء. عندما عاد، لم يفه بكلمة واحدة، ولم يعد مستعجلاً أيضاً. جلس، حزيناً. غلالة من الحزن كست كلّ بقعة من جسده الضخم، بما فيها كرشه، التي بدا أنها تقلصت مثل منطاد.

دون أن يخبرها أحد، أدركت دنيا أن اللقيط قد مات.

مثل بركة ماء وردتْ جميع الحيوانات الأخرى العطشة لتشرب منها، جلس الجميع حول قاسم، باستثناء نسيبة ودنيا، وكانتا تعرفان سبب ذلك. وجلست

ياري، بمزاجها القلق، على ركبتيه، ولم تكف عن السؤال، «لكن لماذا؟» راحت عينا ياري تتنقلان من نسيبة، أول شخص يعثر عليه حياً، إلى العمّ قاسم، أول شخص يراه ميتاً. أما دنيا، في لحظة حزن، فلم تقل إن قاسم قد خنق «الشيطان الصغير الذي أثار الكثير من الشقاق».

هزّ موت اللقيط مشاعر دنيا كثيراً. لا تذكر شيئاً أثّر فيها كما أثّر فيها موته هذا. ولم يكن بوسعها أن تفلسف الأمر كما فعل طارق الذي قال المثل الصومالي إن الموت لا يحزنك كثيراً إذا أصاب بيتاً بعيداً عن بيتك، أو راعي جمال لا تعرفه. سألت نفسها ماذا سيحصل لبوساسو والأسطورة التي كونتها؟

كان بوساسو أول من ابتعد عن الجالسين حول بركة ماء قاسم. مثاراً، استحضرت ذاكرته ذكرى حادثتي وفاة آخريين، زوجته وابنه الراحلين. لبث واقفاً، ينقر بكعبي حذائه. ثم قال: «الآن يجب أن نفكّر بدفنه والمراسم البيروقراطية التي تحيط بكل ذلك».

للحظة، كرهته دنيا. كيف يمكن لرجل مرهف الحس أن يكون في الوقت نفسه واقعياً جداً؟ تساءلت إن كان أحد قد أخبره بأمر الإخلاء الذي فرضته على نفسها، وماذا يمكن أن يقول عندما تتاح له فرصة الكلام؟

من الناحية الأخرى، كانت الدموع تنهمر على خديّ طارق، الذي ظل يبحث بشكل أخرق عن منديل نظيف، ولم يجد سوى قطعة قماش مجعدة، جافة فيها فتحات الاستعمالات السابقة والمخاط، عندما وضع يده في جيوب بنطاله.

«أظن أننا يجب أن نسلّم جثمان الرضيع إلى المستشفى لتشريح الجثة»، واصل بوساسو: «لنعرف سبب موته، ثم نقدم ستّ نسخ من شهادة الوفاة إلى مركز شرطة المنطقة التي سجّلناه فيها».

كانت المرأة العجوز الوحيدة التي دخلت إلى غرفة النساء التي يوجد فيها الجثمان، وراحت تقرأ له بضع آيات قرآنية. أغلقت النافذة التي تطل على الطريق، وغطّت الجسد الميت بصفيحة أخذتها من خزانة دنيا.

تساءلت دنيا ماذا سيحل بها هي وبوساسو؟ هل ثمة شيء لا عقلاني مثل موت اللقيط سيهدّم ما بنياه معاً؟

أثناء السهرة حول جسد اللقيط قبل دفنه، رويت حكايات عن أساطير الخلق والموت. كان هناك عدد من الأصدقاء، من بينهم ماير، وجميع أفراد أسرة دنيا. حكى ماير الحكاية الأولى.

«مات طفل وهو في السادسة من العمر، ووجد أنه مُنح مكانة أدنى من مكانة رجل يكبره بكثير، مات وهو في الستين من عمره. قال الصبي الصغير مخاطباً الله: «لماذا يا إلهي مُنحت مكانة أدنى في الجنة من مكانة الرجل العجوز الشائب الشعر الذي مُنح مقاماً أعلى مني، مع أني لم أعش حياة تكفي لأن أرتكب إثماً؟» فأجابه الله: «لأن هذا الرجل العجوز لم يصل إلى سن العقل فقط، بل لأنه قاوم جميع الإغراءات دون أن يرتكب إثماً واحداً. لذلك فقد كوفئ جيداً»، فقال الطفل دون اقتناع: «أرجو عفوك الإلهي لتخبرني لماذا متّ صغيراً، ولم تتح لي الفرصة لأثبت أنني جدير بثوابك، أو لأن أرتكب الإثم لأستحق هذا العقاب؟» فأجاب الله «لأننا نعرف أنك سترتكب إثماً، وقد أنقذناك منه لأن من المؤكد أنك كنت ستنال غضبنا لو سمحنا لك أن تعيش لحظة أطول. إن الله عليم ورحيم». فسجد الطفل أمام الله، وراح يرجو عفوه، وأخذ يكرّر الدعاء: الله العاطي، وهو العليم الرحيم».

وفي فترة الصمت التي أعقبت ذلك، أحضرت دنيا مزيداً من المشروبات لمن يرغب. فقد كان بوساسو قد أحضر صندوقاً من علب الصودا المثلجة، وللمرة الأولى لم تعترض دنيا على تلقي شيء منه. وعادت إلى المكان الذي كانوا يجتمعون فيه جميعهم، واستمعت إلى طارق وهو يتحدث عن إحدى أساطير الخلق.

«لإزجاء وقته قرر الله أن يخلق البشر، لكن ليس في صورته، كما يقول الإنجيل، بل في صورة رجل إثيوبي. لذلك أمر بأن يصنع قالب من الطين في هيئة إنسان، وأن

توقد نار ليشوى فيها. ثم انتحى الله جانباً، وراح يراقب الملائكة التي تساعده في هذا العمل، والتي أحضرت له بحماسة، النموذج الطيني الذي أصبح مستعداً. كان قد بولغ في شيّه حتى أصبح داكناً. فقال الله لم يعجبني هذا. ضعوا هذا المخلوق الداكن في مكان مهجور في قارة أفريقيا. أُشعلت النار ثانية، وألقي فيها نموذج طيني آخر ثم خرج، وأمر الله أن يُلقى به في اسكندنافيا، وقال إنه شديد الشحوب، ولم يعجبه أيضاً. أطاعت الملائكة ما قاله، وتكررت العملية ذاتها مرات عديدة، إلى أن حصل الله أخيراً على النموذج الذي يريده: نموذج من الوسامة والاستقامة، لون البشرة الصحيح، وتركيبة الشعر الصحيحة، والذكاء والكبرياء الإنسانيين الصحيحين، كلّ شيء. وبعد أن نظر إلى هذا المخلوق، أرسله الله إلى إثيوبيا. أعطوا هذا المخلوق أفضل الأراضي، وأفضل طقس، وأفضل ثمار يمكن أن تعطيها الفصول. اجعلوه موضع حسد كلّ جيرانه، باختصار، حسد جميع الأجناس. وهكذا خلق الإثيوبي».

ورويت قصص أخرى. كانت دنيا تغدو وتروح، تقدم المشروبات والوجبات الخفيفة، وكان بوساسو يساعدها. وسمعت أجزاء من بعض الأساطير الأخرى، كان ماتان وقاسم يرويانها، منها أسطورة نيجيرية متهكمة عن الخلق تقول إن الله جلس يوماً كاملاً وهو يراقب النيجيريين الذين لم يكن تصرفهم جيداً، ولم يكن يفعل شيئاً سوى أن يضحك. ومثل شخص صومالي وتشادي في حضرة الله يرتديان ثياباً رثة وجائعان، وسألاه لماذا لم يكن رحيماً بهما، ومنح كلّ الثروات إلى نيجيريا. فأجاب الله، بسخرية، «القيا نظرة فاحصة على الناس الذين أعطيتهم تلك البلاد. أنتما أفضل حالاً حيثما أنتما، أطمئنكما». فغادر الصومالي والتشادي، راضيين.

ظنت دنيا أنه توجد في وسط كلّ أسطورة أسطورة أخرى: عن الناس الذين خلقوها. فقد حوّل الجميع اللقيط إلى ما كانوا يظنون أنهم يريدون، أو يفتقرون إليه. في تلك الحالة، قالت لنفسها، إن الطفل الذي لا اسم له لم يمت. إنه لا يزال يعيش، في بوساسو وفيّ.

الجزء الثالث

دنيا عاشقة

[12]

وفيه يُدفن اللقيط وتُجرى مراسم الدفن بهدوء. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم تُدعى دنيا لتناول الطعام في أحد المطاعم

استيقظت دنيا مجفلة، يعتريها ضيق شديد، وأخذت تتقلب في فراشها. فقد حلمت بكلب، لم تتبين نوعه، قبيح وذي خطم قصير يشبه كلاب البولدوغ، ورأت في منامها عدداً من الفتيان والفتيات المراهقات يستثيرونه ويضايقونه، وكان الكلب يعوي، ويلصق ذيله المذعور بين ساقيه المرتعشتين، وكان المراهقون يجدون متعة في تعذيبه.

وعلى مسافة غير بعيدة من المراهقين الذين كانوا يحدثون جلبة وضجيجاً، تقف امرأة لا تشبه أحداً رأته دنيا في حياتها، وكأنها تحاول الابتعاد عنهم، امرأة بدا أنها، بطريقة لا يمكن تفسيرها، تشبه من الناحية الجسمانية والروحية كلب الصيد، في نظرتها الوحشية وأنيابها الحادة. لكن اهتمام دنيا تركّز على المرأة التي ما فتئت تنظر إلى يمينها. هل كانت تنتظر أحداً سيأتي من ذلك الاتجاه؟ ولمحت دنيا هيئة رجل مستلق على ظهره فوق الأرض العارية وقد انتصبت من وسطه شجرة نبتت فيها ورقة واحدة. وراح الكلب يعوي وينبح على المراهقين الذين يثيرونه، ثم على المرأة التي بدا أنها لا تدرك وجوده تماماً، ثم على الرجل الذي لم يكن يدرك ما يدور حوله، وأخيراً على ورقة الشجرة؛ ثم بدأ نباحه يخفت عندما ظهر على مسرح الأحداث نسر هادئ طاوياً جناحيه، وحطّ فوق الشجرة: لقد فقدت الشجرة ورقتها الوحيدة، كليتها، حياتها.

حلّ صمت.

في هذه الأثناء، بدا أن المرأة تبحث في رأسها عن دليل يثبت أهمية ما يجري. وركّز النسر عينيه القويتين على الكلب الذي هدأ الآن. وثبّت الكلب عينيه على أفعى أثار ظهورها قلق الجميع، ما عدا المرأة. وكانت هناك حركات مضطربة في المكان، وهبت ريح عاتية غلّفت كلّ شخص وكلّ شيء بحركتها الغامضة، زوبعة جمعت غباراً، يتصاعد في حركة دائرية إلى الأعلى؛ عند ذاك بدت في عيني المرأة مسحة من السعادة. كما بدا الشكّ في نظرتها المحدقة القاسية، حوّلتها إلى أحلى ابتسامة.

ولدغت الأفعى المرأة.

وغمرت السماء ألوان العشب البحري.

وأخذت المرأة تسير بقامة منتصبة مثل مشاء في نومه مبتعدة عن المكان، يتبعها الشبان المشاكسون والكلب، ولم يتوقفوا إلا عندما وصلوا إلى السرير الذي تستلقي فيه جثّة الرضيع.

وهنا استيقظت دنيا.

أجريت مراسم دفن اللقيط بهدوء شديد، ولم يحضرها سوى أفراد الأسرة، وبعض الأصدقاء وشيخ لتأدية الشعائر الدينية البسيطة. ونقلت سيارة أجرة ابن عم بوساسو جميع من لا يملكون وسيلة نقل الذين أرادوا المشاركة في الجنازة. ولم يتمكن ماير من المجيء، ولم يتمكن طارق من مغادرة عمله، بينما وصل قاسم متأخراً، وهم يهمون بمغادرة المقبرة. وعندما دفنت الجثة وانتهت مراسم الدفن، توجه بوساسو ودنيا مباشرة إلى مركز شرطة المنطقة لتبليغ السلطات بوفاة الرضيع. وحزن المفتش كثيراً لدى سماعه الخبر، وقال: «لماذا، البارحة فقط أذيع خبر عن اللقيط، شهادة حيّة على روح دنيا الكبيرة». وأعرب المفتش عن شكوكه بأن تبدي أجهزة الإعلام اهتماماً بإذاعة خبر وفاته.

ومن مركز شرطة المنطقة، توجهت دنيا وبوساسو إلى المستشفى، حيث

اكتشفا أنها كُلِّفت بأعمال خفيفة لهذا اليوم. وأبدت زميلاتها تعاطفهن معها، ولاحظت مدى تأثرهن عندما تحدثن إليها وكأنها فقدت طفلاً من لحمها ودمها، لا لقيطاً. ولم تكف سيول من الدموع عن التدفق من عينيها، ونَفَسٌ ثقيل ينبعث من صدرها، وكانت عيناها ترمشان، تغمضان وتفتحان من تلقاء نفسيهما: وانتهى ذلك بأن بدأت حنجرتها تتشنج، وبدأ لعابها يسيل من فمها مع إفرازات مختلفة. لكن عينيها ظلتا جافتين.

كان ثمة قلق داخلي لا يزال يطرق أذنيّ نبضات قلبها. وأخذت تتثاءب، شاعرة أن قوتها قد تخلت عنها، وأن ثمة تغييراً قد حدث في داخلها. عباءة من الغموض خيّمت على السبب الذي جعل موت اللقيط يؤثّر عليها بطريقة لم تكن تتخيلها. شعرت بأنها مشتتة. بل الأسوأ من ذلك، أحست أنها قد أفرغت ما يمكن أن تفعله مع نفسها، وقتها، ماذا تقول عنه هو الذي جاء وذهب، كيف تفكر، كيف تفكر بجلاء. وكان الحزن يظهر في نظراتها بين الحين والآخر. كانت وقفتها غير ثابتة، ساقاها ترتعشان قليلاً، باطن قدميها تثقبه أشواك حادّة كالإبر، جلست دنيا، وهي تشعر بحالة من انعدام الوزن. وفي الواقع هيمن عليها شعور بالخشية من أن تطير إلى الأعلى فتتشبث بمؤخرة الكرسي، غير قادرة على قياس تأثيراته على سلوكها الجسدي. وعندما لم تفكر إلا ببوساسو، أحست بأنها يجب أن تظل ثابتة في مكانها.

ومرة أخرى، تذكرت أن بيتهم أصبح يبدو خاوياً من الحياة أيضاً، إذ سكت المذياع وأُوصدت جميع الأبواب. أحست دنيا بالسعادة لأنها تتحرّك، متوقعة أياماً أكثر سعادة. وفي الوقت نفسه، اختار أطفالها أن يذهب كلّ واحد في طريقه، فقد اختارت ياري أن تمضي اليوم مع مارلين، وماتان مع واريس، ونسيبة ـ التي تعرف المفاجآت التي قد تحضرها لأمّها عندما تظهر أخيراً. إن البيت الفارغ حزين، قال بوساسو ذات مرة، لكن الحياة بلا معنى هي أشدّ حزناً.

تمالكت شجاعتها وبدأت تتخذ قرارات أكثر جرأة، وتحدثت عن ملء أمسياتهم وفترات بعد الظهر الفارغة من النشاطات. وبدأت تقول سنعمل هذا، وسنعمل ذاك. سنتعلّم السباحة. سنذهب إلى المطاعم. سنتعلّم قيادة السيارة، لكي نصبح مستقلين، ولا نعود بحاجة لأن يمنحنا أحد توصيلة، أو حتى يضايقنا رجال متوحشون. وتبين لها أن كلمة، نحن، هي شخص مركّب (دنيا + بوساسو = نحن!)، قادر على أداء المعجزات، قادر على ملء الأيام والليالي بالمسرات التي تعادل وقت ملاك.

عندما كان الرضيع حياً، لم تفكر دنيا أو بوساسو بأشياء يشغلان فيها وقتهما: فقد جعل الحياة تتشكّل حولهما. كان الزوّار يأتون زرافات ووحدانًا، يلعبون الورق، يحتسون الشاي، يحكون قصصاً ويتصادقون. لم تستطع دنيا أن تتخيل أن موت اللقيط فرض عليهم مجموعة من القواعد في طريقة كلامهم، فانبثقت كلمة «نحن» التي لم تكن تُذكر من قبل، «نحن» من الضرورات الهجينة، نصف حقيقية، نصف مخترعة.

وقد تضمنت المهمة الخفيفة التي أوكلها لها الدكتور ماير اليوم استقبال مريضات الأشعة السينية وتسجيل أسمائهن في الفراغات المخصصة لذلك. كانت تحدّق دقائق لا نهاية لها في صور الأشعة السينية، مسحورة، حالمة، تتلمس أصابعها الصور ذات التجاعيد العديدة، شاردة الذهن، وهي تفكر (يا له من شيء غريب!) بجنين ميت يُحتفظ به في جرّة مليئة بمحلول نقي من الخلّ - يا إلهي، يا له من شيء مريع، قالت لنفسها بحزن. وتخيّلت أن الجزء الفارغ منها عبارة عن رموز تمثل موت الرضيع، في حين تمثل الأماكن المملوءة الأماكن التي يشغلها بوساسو.

ثم جاء بوساسو ليأخذها. كان الوقت بداية العصر.

عندما رأته قالت إنها كانت تشعر بالجوع طوال اليوم، ومع ذلك لم تشعر بالرغبة في أن تأكل، لأنها فقدت شهيتها في الطعام. أو لعلها لم تستطع أن تعبّر

عن نفسها جيداً؟ وحدس بوساسو أن تناول الطعام متعة بحد ذاتها. وكمثال على ذلك، تذكّر عندما أقلع عن التدخين بعد وفاة زوجته يسور وابنه بشكل مأسوي بأسابيع. وتذكّر أيضا كيف أنه أحس بالفراغ بعد أن أنهى الدفاع عن أطروحة الدكتوراه. كان يشعر بأنه لن يتمكن من ملء الفراغ الذي يشعر به في روحه إلا بالعمل، المزيد من العمل. عندها خطرت له الفكرة.

قال: «سنخرج للعشاء الليلة».

بابتسامة قالت: «هل يمكنني أن أسأل من نحن؟».

«أنا وأنتِ طبعاً».

مرت لحظة طويلة قبل أن تدرك أن لوجوده تأثيراً لطيفاً، وأنها لم تعد تشعر بالخواء؛ بل أحست وكأنها امتلأت بطلعته.

«وإلى أين سنذهب؟» سألته.

«أعرف مطعماً جيداً».

«إذًا أراك قريباً»، قالت.

اقترح عليها أن يأتي ليأخذها في نحو السابعة.

أحست دنيا بأن الشعور بانعدام الوزن قد عاودها بعد أن أصبحت وحدها، فاستندت إلى الباب الخارجي عندما فتحته. لبثت في مكانها وراحت تتنفس بصعوبة، وبدأت نبضات قلبها تخفق بسرعة خشية أن تشعر بكراهية ذاتها، وهي فكرة جعلتها تشعر بالقيء. أم هل هو الحبّ؟ مهما كان، فقد تمنّت ألا يكون لما يحدث لها علاقة به. بالتأكيد ليس الإحساس الضبابي بالغثيان هو الحبّ، أم هل هو الحبّ؟ لقد بثّ فيها هذا التساؤل الشجاعة، وتمكّنت من الدخول والسير في الممر، غير ثابتة، كان جسدها كله خدراً بالقلق.

فتحت باب الغرفة التي تشاطرها نسيبة وأخرجت كرسياً؛ فلعلها إذا بقيت واقفة في مكانها، فإن الضباب في عقلها سيتلاشى. لكنها لم تستطع أن تبقى

في سلام مع نفسها. كان عقلها يبدو وكأنه يحمل بذوراً تفتحت فجأة، تنبت شجرة الباوباب كاملة. قالت لنفسها إن أحداث الأسبوع الماضي بذرت فيها بذوراً لتنمو، وإن شيئاً سيحدث آجلاً أم عاجلاً، لكن اللقيط الذي هو بذرة رجل ما لم يعد موجوداً.

كانت أفكار دنيا فوضوية وفي حالة من الإثارة حتى فُتح الباب، ودخل شخص بخطوات خفيفة مثل صوت تصفيق ضعيف. أخفت النظرة المتوترة في عينيها وهي ترحب بنسيبة بابتسامة كذّبت حقيقة مشاعرها. إن الابتسامة العريضة المتحدّية التي ارتسمت على وجه دنيا أخفت عواطف متناقضة عندما تلامست هي وابنتها وهما تقبلان بعضهما. وكدأبها، كانت الشابّة مفعمة بالحياة، تطفح بالرغبة لأن يحدث شيء. كان من الواضح أنها حزينة لموت اللقيط، لكن ذلك لم يردعها عن استغلال طاقاتها، في نفسها أو في أمّها. سألتها: «ماذا يحدث يا أمّي؟».

كان يعتري دنيا قلق شديد، وتشعر بحرارة في خديها. لم تعرف ماذا تخبر نسيبة وماذا لا تخبرها. كانت تحدث أشياء كثيرة، ولم يكن كلّ ما حدث جيداً أو سيئاً، أو حتى يسهل شرحه. فقد كان هناك الحبّ مثلاً، وهناك الغثيان. ابتسمت لكي تطمئنها بقدر ما تستطيع، ثم قالت: «سنذهب لتناول العشاء، أنا وبوساسو».

قالت نسيبة: «سنذهب إلى المطعم، أليس كذلك؟».

قالت دنيا لنفسها إن استخدام نسيبة صيغة الضمير المخاطب تختلف عن استخدامها هي، وأدركت، للمرة الأولى، أن لهذا الضمير مجموعة غنية من التداعيات. كان ذلك مثل تعلّم لغة جديدة. وتذكرت دنيا الآن ذكرى لطيفة إلى حد أن جميع أحاسيسها بالدوار تلاشت لدى ذكر اسم بوساسو. أحست بأنها مقيدة، يغلّف روحها عزمها على متابعة قدرها، سعادتها.

«يجب أن نرتدي ثياباً أنيقة، أليس كذلك؟» قالت نسيبة.

انتابت دنيا صدمة حزن لم تكن تتوقعها. في الواقع لم تفكّر بأنها ستتأنق لهذه المناسبة، فلم تكن مرتاحة البال لكي تهيئ نفسها للتغيرات التي تجرى حولها، وفي داخلها أيضاً. أمسكت الكرسي القريب منها، نظرت باتجاه نسيبة، وأدركت أنها يجب أن تضع نفسها بين يديّ ابنتها؛ وأقرّت في داخلها أنها عاشقة.

وبنبرة لا تشبه صوت فتاة صغيرة تحاول أن تجرب حذاء أمّها ذي الكعب العالي، قالت دنيا: «ما رأيك في أن أستحم أولاً؟ ألا تظنين أنها فكرة جيدة؟ في هذه الأثناء يمكنك أن تختاري الثوب الذي تريدينني أن أجربه».

«يا لها من فكرة رائعة»، قالت نسيبة مستثارة بعض الشيء.

سطع نور الشمس على نحو مزعج في عينيها، وابتسمت ابتسامة عريضة. كانت الأمور أكثر تعقيداً مما كانت تتصور، ولم يكن العطاء بريئاً. ما الذي قالته نسيبة؟ بأنها ستساعدها في ارتداء ثيابها؟ انزعجت دنيا من فكرة أن تطلب منها ابنتها أن تخلع ثيابها، أن تقف عارية أمامها، أن تدور أمامها قبل أن تقرّر ماذا ستلبس. وقفت الآن في وضعية التساؤل الذاتي الحادّ، متسائلة ماذا ستفعل. كانت تلتف في طيّات عباءة، تغطي جسدها بالكامل، ما عدا شعرها الذي كانت ضفائره تلمع بعد أن غسلته بسرعة بالشامبو، لكنها غسلته كله.

قالت نسيبة: «لقد أغلقت الباب الخارجي وأصبحنا وحدنا. ما أريدك أن تفعليه هو أن تخلعي ثوبك المتزمّت لكي أتمكن من إلقاء نظرة متمعّنة على جسدك. لا يوجد لدينا الكثير من الوقت، لذلك أرجو أن تستعجلي».

باندهاش، قالت دنيا: «لا أظن أنك جادة في ما تقولين؟».

«إني جادة في ما أقول»، طمأنتها نسيبة.

«أنا أمّك»، ذكّرتها دنيا.

نظرت نسيبة نحو الباب المفضي إلى الغرفة التي تتقاسماها. «أنا ابنتك، هل

يجب أن أذكّرك بذلك، وفي جميع الأحوال، فقد رأيتك عارية أو شبه عارية عدة مرات. إذًا لماذا كل هذه الجلبة؟ هيا افعلي ما أقول».

استحوذت على ذاكرة دنيا الفكرة بأن نسيبة قد رأتها عارية تماماً وهي تضاجع طارق، كما علمت منذ ليلتين. كان صوتها ينعقد بفترات من الصمت الذي يشي بعدم الثقة بالذات، وسألتها مستفسرة: «ماذا يوجد على ظهر الكرسي؟».

«الرداء الذي أريدكِ أن تجربيه».

لو كانت دنيا تعرف كيف، لوضعت حداً لهذه اللعبة. هل تظن نسيبة أنه لأنها قدّمت لها رداء، أو لأن دنيا وافقت على أن تتأنق في ملبسها، تستطيع الشابّة أن تطلب من أمّها أن تخلع ثيابها؟

«أنت لست مزاراً»، قالت دنيا، «ولن أقدّم لك جسدي قرباناً». بقولها هذا، أدارت ظهرها لنسيبة لكنّها لم تتمكن من أن تخطو خطوة واحدة لتبتعد عنها، وكأنها لا تستطيع أن تفهم أهمية قرارها. فقد غمر قلبها الحزن لأن جميع الأفكار التي تنطوي على المحبّة كانت غائبة عنها في هذه اللحظة. كانت على وشك أن ترجوها أن تتركها وشأنها، عندما اقترحت نسيبة مرة أخرى أن تخلع ثيابها.

وأدركت دنيا بطريقة ما أنه لا مناص من ذلك، وأن ما يجب فعله يجب أن تفعله، وتذكرت أن والد طفليها التوأمين، لكونه أعمى، لم ير جسدها، وأن من المفارقة الآن أن ابنته تجعلها تخلع ثيابها. كما أنها استمدت قوّة أيضاً من ذاكرتها بأنها، كقابلة، رأت نساء كثيرات عاريات، نساء لمست أجسادهن، ولمست أجزاءهن الحميمة بمهارة. كانت نظراتها تشي بالقلق، وجسمها يرتجف، ألقت الثوب الذي كان يغطيها جانباً وقالت: «انظري إذًا»، قالت هذه الكلمات بتوقد واندفاع.

وجاء حكم نسيبة سريعاً فقالت: «ليس سيئاً على الإطلاق».

أما دنيا، فقد انعقد لسانها ولم تستطع أن تقول شيئاً. كان الشيء الوحيد

الجيد الذي حققته هذه المهانة هو أنها أحست بأنها أصبحت ثقيلة مثل قدم حنفاء، ولم تخش أن تطير بسبب انعدام وزنها. وقد ولّد ذلك شعوراً بالمرارة في داخلها، لكنها كانت متأكدة من أن شعورها هذا سيتلاشى، وأنه سيلتئم شملها مع بوساسو ثانية ـ وفي الحب.

في هذه الأثناء، بلغت مشاعر الإثارة مبلغها لدى نسيبة، وأصبح كلامها مزيجاً من الأفكار نصف المفهومة والمفهومة تماماً، وألقت في الهواء مجموعة مدهشة من الكلمات لم تكن تعني لها شيئاً. كان ثمة نمط ثانوي في لغتها، شيء جدّي ويخلو من خفة الروح أيضاً، مثل أمّ تهيئ ابنتها للذهاب إلى حفلة للأطفال تقام في بيت حميها لا تشعر المرأة بالارتياح معهم. كان الوقوف عارية دون أن تأتي بحركة جهداً كبيراً بالنسبة لدنيا.

قالت نسيبة: «ارفعي شعرك إلى الأعلى، في شكل كعكة. لكننا سنمشّطه أولاً، وقبل أن نفعل ذلك، سنضع قليلاً من ملمّع الشعر. إن شكل الكعكة يناسبك جيداً. وبدون غطاء رأس».

«هل لي أن أرتدي شيئاً الآن؟».

«بعد قليل، لا داعي للخوف».

مدت دنيا يدها وتناولت وشاح رأس، وغطّت به إحراجها مثل حواء تستر عورتها وتخفي نفسها بأوراق تين فرويدية. كان وجهها يشبه وجه شخص يشعر بالإهانة، لكنها ظلت صامتة، ولبثت في مكانها.

«ها هنا قميص داخلي، وسروال داخلي وحمالة صدر».

قالت نسيبة لأمّها: «ضعي هذه الآن وأرجو ألا تحدثي جلبة». قد تكون الشابّة أمّاً تطعم طفلها الذي يبكي طلباً للطعام.

«كان عليّ ألا أطلب منكِ أن تساعديني في ارتداء ثيابي»، قالت دنيا نادمة.

فردت نسيبة عليها: «نادراً ما يتذكّر الآباء ملايين اللحظات المحرجة التي يمر

بها أطفالهم، عندما يُرغمون على ارتداء ثياب لا يرغبون في لبسها، ويُرغمون على تناول طعام لا يرغبون في تناوله، ويُرغمون على الاستحمام عندما يرغبون في أن يظلوا وسخين، وتُداعب أعضاؤهم الجنسية وتدلك، وتُبتر وتُشوَّه. إنك لم تفعلي لي ذلك، لكن هل تدركين يا أمي العزيزة، أنك كأمّ صومالية ومسلمة أيضاً، تمتلكين الحقّ الأبوي والقانوني في أن تفحصيني لتتأكدي إن كنت عذراء أم لا».

بعد أن ارتدت السروال الداخلي وحمالة الصدر والقميص الداخلي، سألتها دنيا: «ماذا تريدين أن أفعل الآن؟».

أحضرت نسيبة كرسياً ذا مسند مستقيم ووضعته بحيث تتجه دنيا نحو الشرق، حيث كانت الإضاءة أفضل. ثم عادت وأمسكت يد أمّها، وتبعتها أمّها، خجولة مثل عروس تدخل بيتها الجديد. «اجلسي ولا تتحركي ولا تقولي كلمة واحدة»، أمرتها نسيبة.

لم تكن دنيا تحب أن يتحكم فيها أحد، فقد كانت تكره الشعور بالعجز، وأن لا تعرف ماذا يجري لها، «إن السبب الذي يجعلني أتمرد على سلطة الرجال»، قالت ذات مرة لإحدى صديقاتها، «هو أنهم ينحون لاتخاذ قرارات تؤثر على حياة النساء في الاجتماعات التي لا توجد فيها النساء» هل كانت دنيا تفكر بأن نسيبة ذكر الآن؟ ألم تعرّيها كما كان يعريها الرجال، ألم تجعلها تشعر بأن لا حول لها ولا قوة كما فعل الرجال؟ «ماذا تفعلين بي يا نسيبة؟» سألتها.

«ثقي بي»، كان كلّ ما أرادت نسيبة أن تقوله.

بدأت تلّف الضفائر وترفعها فوق رأسها.

شعرت كلتاهما بالارتياح، وكانت نسيبة سعيدة بنتيجة جهدها الفني، مع أن توتر دنيا قد خفّ، وأضحى جسدها أقل تصلباً. وكأن ذلك أثار استياءها، فقالت: «بالمناسبة، يا نسيبة، هل رأيت لفائف من النقود محشوة ومخبأة في مجلة إسلامية إيرانية نسائية تدعى مابجوبا؟»

قد تكون دنيا قطّة أليفة وديعة، تأكل جيداً ومدلّلة، أُحضرت إلى غرفة جلوس أحدهم، ورأت جثّة سحلية ميتة، «لا أتحمّل هذا الهراء»، قالت نسيبة غاضبة، ورمت بغضب المشط الذي أخذ يتقلّب واصطدم بأبعد حائط في باحة الدار، «ماذا كنتِ تفعلين وأنتِ تعبثين وتفتشين في أدراجي في أشيائي الخاصة؟» وبغتة توقف التمشيط، والتضفير وضم الشعر في شكل كعكة. تملك نسيبة الغضب.

«كنت أظن أني أضعت شيئاً».

«أكرهك أحياناً»، قالت نسيبة.

«لا، إنك لا تكرهيني»، قالت دنيا.

مثل شخص يقيّم عملاً فنياً، خطت نسيبة خطوتين إلى الوراء. وضعت يديها على وركيها بتحدٍ وقالت، وهي تقلد صوت أمّها: «بالمناسبة، هل رأيت فريدة في العيادة اليوم؟ أو: لمن تبرّعتِ بالدم، يا نسيبة؟ والآن ماذا؟». ثم بصوتها الطبيعي: «ماذا كنتِ تفعلين وأنتِ تفتشين في أشيائي؟».

«أتساءل أحياناً إن كان هذا هو بيتي أم بيتك لكي تفقدي أعصابك؟ هيا الآن»، قالت دنيا، «لا تدعينا نضيّع مزيداً من الوقت، لأنني في الحقيقة أشكّ في أنني أعرف من أين أتت النقود. هيا تعالي وأنهي ما بدأت به، وبسرعة»، كانت دنيا حازمة.

وبعد فترة قصيرة، ودون أن تقول شيئاً، استأنفت نسيبة بناء قلعة من كعكة الشعر، ولم تفه نسيبة بكلمة واحدة قبل أن تقول إنها أنهت عملها. وعندما رأت الضيق على وجه أمّها، جلبت الشابّة مرآة لكي تلقي دنيا نظرة على نفسها.

قالت دنيا: «لم أكشف عن شعري منذ أن كنت في السابعة عشرة من عمري يا نسيبة».

«إنك تبدين امرأة عصرية عندما يكون حاسراً»، قالت ابنتها.

«إنه يبرز مثل عمود إشارة حمراء في شارع مظلّم ويستطيع العالم كله أن يراه من مسافة ميل».

«ستعتادين عليه، وسيحبك بوساسو أكثر عندما يراه»، قالت نسيبة مجازفة.

شعرت دنيا بالراحة لدى ذكر اسم بوساسو.

في هذه الأثناء، فقد صوت نسيبة النبرة التي تميّزه، وقالت: «إن وجهك بحاجة إلى لمسة من المكياج، وإلى معطف رقيق، هذا كلّ ما في الأمر». كانت متجهة نحو دنيا، تحمل مجموعة من الفراشي والقناني.

«لا أريد مكياجاً، شكراً».

عادت نسيبة بعد لحظة، وهي تحمل قرطين.

«لمن هذه؟» سألت دنيا بارتياب.

«إنها لك في الحقيقة، كان قد أعطاها لك الخال أبشير».

أومأت دنيا برأسها، معترفة بعشر ما قالته فقط.

«إذا كنتِ تعتقدين أن أذنيك تنتصبان مثل ساريتي علم في ملعب لكرة القدم، فقد يصحح هذان القرطان ذلك». كانا قرطين جميلين، مستديرين، وقد ثبتت في الإطار المطلي باللون الأزرق نجمة ذات زوايا خمس.

عندما سمعتا صوت بوق سيارة بوساسو معلناً عن وصوله، كان لا يزال لدى دنيا الفرصة بأن تجري لمسات أخيرة على رأسها، وشعرت بالراحة في الثوب الذي اختارته، والذي استحسنته نسيبة. ولدى خروجها لتنضم إلى بوساسو الذي مكث منتظراً في السيارة، قالت دنيا لنسيبة: «أرجو أن تقدمي تعازي لفريدة، التي فهمت أنها أمّ اللقيط، واطلبي منها أن تأتي لزيارتنا عندما ترغب»، وغادرت دنيا البيت بسرعة، متلهّفة لأن لا تستجوبها ابنتها.

وذهبا إلى أحد المطاعم.

ما إن تركهما النادل الذي جاء ليأخذ طلبهما وحدهما في المكان شبه

المعتم، حتى أخذ أحدهما يقبّل الآخر، ولم يكن هناك سوى مصباح من الكيروسين يضفي شيئاً من الضوء. لقد باغتتهما الرغبة في أن يقبّل أحدهما الآخر، كما يباغت المرء عطاس مفاجئ: لتنظيف الدماغ. تعانقا لفترة طويلة، وامتزجت أنفاسهما، وكانت لكلّ منهما الوسيلة في جعل الآخر يشعر بالراحة والاطمئنان.

مكثا صامتين، دون أن يقبّل أحدهما الآخر، وجلسا فوق حصيرة القشّ على الأرض، تحت مظلة من أغصان وأوراق شجيرات الأكاسيا، ومصباح الكيروسين معلّق على غصن الشجرة، ولم يكن الضوء الذي ينشره الفانوس يزعج خصوصيتهما.

إن كلّ من يلتمس الهدوء في مقديشو دون أن يزعجه أحد، أو من يبحث عن أفضل وجبة من الأرز ولحم الضأن في المدينة، بل كلّ من يريد أن يتمتع برؤية صورة رومانسية من الغابات الجامحة غير المشذبة في مقديشو يرتاد هذا المكان، سواء كانوا رجالاً ونساء عاشقين، أو أجانب يبحثون عن لون محلي، أو زوّاراً يريدون تناول وجبة طعام لكي تذكرهم بالصومال. ولا حاجة للقول لماذا تجذب هذه المطابخ السكان المحليين.

كان الندل يحملون الفوانيس، ملتزمين بقواعد السلوك التي تضمن الخصوصية التامة لزبائن هذا المطعم، وكانوا يروحون ويجيئون بهدوء وخفة، ويتنحنحون أو يسعلون كلما اقتربوا من الشجرة التي يقبع تحتها زوجان بحميمية وكأنهما يركنان في عش أو يعانق أحدهما الآخر.

وقفت دنيا على قدميها اللتين راحتا تترنحان وترتعشان، وأخذت نفساً عميقاً بعد قبلة كانت أطول قبلة وأشدها اتقاداً وشهوانية حتى الآن. لعل إحساسها بالدوار جعلها تفقد إحساسها بالمكان الذي هي فيه، ومن معها، أو سبب وجودها هنا. بدأ رأسها يدور، ولم تكن ساقاها مستقرتين على نحو يكفي ليمنع جسدها من أن يترنح ويتمايل، ومع ذلك، كانت قد صعدت إلى الغيمة

الحادية عشرة، ولا تذكر أنها وجدت متعة كهذه من قبل. هل جعلتها القبلة الطويلة المتقدة تشعر بالدوار عندما أمسكت مفاتيح سيارة بوساسو وهي تحاول أن تقف على قدميها بصعوبة، وهو أمر لم تكن تدركه؟ قال لها: «وإلى أين سنذهب، هل لي أن أسأل؟».

«لكنني لا أعرف كيف أقود السيارة!» أجابته.

فقال: «إذًا سأعلّمك قيادة السيارة».

وعندها صحت على الفور. جلست بعيداً عنه، وتذكرت حديثها مع نسيبة التي اقترحت عليها أن تعلّمها السباحة. كانت هي، دنيا، مهيأة للوصول إلى درجة أعلى من الكمال، إذا تعلمت السباحة والقيادة أيضاً؟ دفعت إليه مفاتيح السيارة.

وكأنه رد على حركتها غير الودّية، سُمع صوت رعد عنيف في السماء، وهبّت ريح عاتية. نهض بوساسو لينقل مصباح الكيروسين من مكانه في أعلى الشجرة إلى مكان أوطأ، بعيداً عن تيار الهواء. وبينما كانت دنيا تنظر إليه إلى الأعلى، رأت مذنّبات تتجه نحو الأرض، ثم تسقط، كما يقول الصوماليون، فوق الجان وغير المسلمين. انتابتها رعشة عندما لمع وميض برق في السماء، فتذكرت السوط ذي الثلاثة أشرطة الذي يستخدمه المزارعون لإبعاد الطيور التي تلتقط محاصيلهم.

عندما جلس إلى جانبها، قال: «يا لها من ألعاب نارية!».

«إنها مجرد شهب تسقط على الجان. أليس هذا ما يقوله المسلمون؟» سألته، وهي تمسك يده الممتدة، وراحت تداعبها. لم تكن تعرف ماذا تقول أو لماذا.

«يخبرنا القرآن أن هذه الشهب النارية تلقى على الجان الفضوليين الذين يتنصتون على بوابة السماء»، علّق بوساسو.

«هذا عمل شرير من قبلهم!» قالت دنيا.

عندما توقّفت السماء عن إصدار الرعد وتوقفت الشهب عن السقوط، قالت دنيا إن الجان لم تعد تتنصت على بوابة السماء، وأنها هبطت إلى الأرض، وبدأت تهمس أشياء جميلة في أذنيها، التي لمستها بالغريزة.

«هل فقدتِ إحدى فردتي قرطيك، أم أنك خرجتِ من البيت وأنت تضعين واحدة؟» سألها، «أليس من الممكن أنكِ أضعتها في السيارة؟».

«قرطي؟» وتحسست شحمة أذنها، الواحدة تلو الأخرى، وقالت: «كنت أضع الاثنتين عندما جئت»، لكنها لم تتحرك.

«إني واثقة من أني لم أضعها».

على الفور جثا على ركبتيه، وراح يبحث عن القرط المفقود متلمساً بيده، في شبه العتمة، لأنه كان متأكّداً من أنها لا تريده أن يخفض مصباح الكيروسين. ووخزت حصيرة القش القاسية راحتي يديه. لكن ذلك لم يوقفه عن البحث، حتى عندما لم تبدي اهتماماً كبيراً بالبحث هنا.

«متى تظنين أنك فقدتها؟» سألها.

قرّرت أن تحتفظ بهذه اللحظة من عواطفهما المتقدة في ذاكرتها، وقررت أن لا تتكلم عنها لكي لا تقلل من قيمتها. وبالرغم من ذلك، فقد كانت متأكدة من أن القرط قد سقط منها قبل لحظات من انطلاق الشهب في السماء، وقالت: «لا أستطيع أن أتذكر متى».

اقترب منها، وقال: «أتذكر شكل نجمة القرط، المصبوغة بلون أزرق خفيف، تحيط بها دائرة كاملة من الفضة». كان قريباً منها إلى درجة أنها كانت تسمع أنفاسه، واستطاعت أن تشعر بدفء جسمه. أمسك يدها. تركته يفعل ذلك.

«كانا جميلين وهما عليك».

لم تقل شيئاً، لأن رأسه بدأ يتحرّك إلى أعلى، نحو فمها، وكانت شفتاهما

تتأهبان للالتقاء في قبلة لاهبة، متقدة. أحسّت برعشة تسري في جسدها كله: يا لألسنة اللهب تلك، قالت لنفسها. متحملة وزنه الذي كان أخف مما كانت تتخيّل، عاد واقترب منها طالباً المزيد. وأخيرا دفعته دفعة خفيفة وقالت: «أرجوك لا تضغط فوقي بقوة».

تنفّس بصوت مرتفع، وبانفعال كما لو أنه كان قد مكث تحت الماء فترة طويلة، وصعد لتوه إلى سطح الماء، انتصب في جلسته، وارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة متفهمة. كانت ستظنه فظاً لو تفوه بكلمة واحدة، مبرراً أو معتذراً. كان كلاهما سعيداً ولم يفه أحدهما بكلمة.

راحت تتمعن في الظل الذي رسمه رأسه، رأسه المائل إلى الجانب. امتص شفتيه بصمت. عندما نظرت دنيا إلى الليل في الخارج، وراء الظلال المتحركة التي رسمها مصباح الكيروسين، رأت أشكالاً تحمل فوانيس تتأرجح جيئة وذهاباً من بصرها، مثل شهب تستغرق دهراً كي تصل إلى الأرض قبل أن تنفجر.

صامتين، راحا يراقبان ضوءاً يدنو. كانت تتبع خطوات النادل ضوضاء محرك سيارة واقفة، ربما كانت سيارة زبون يرافقه النادل إلى إحدى الأشجار المظللة. ثم سمعا أصواتاً منخفضة، أصوات رجل وامرأة يسجلان طلبهما. ثم ساد هدوء.

قال بوساسو: «لو كانت أمّي هي التي أضاعت القرط، لراحت تدندن لحناً وترقص على أنغام أغنية حزينة تحكي عن الفقدان والتبذير. ولو كانت صديقتي الأفريقية ـ الأمريكية هي التي أضاعته، لاتخذت الأغنية والرقصة بعداً بلاغياً، ولو كانت يوسور، لأطلقت تنهيدة آسفة، ولأشركت أمّها في الحديث، لكي تنحي عليها باللائمة. أما أنتِ؟ فلم تقولي شيئاً، ولم يبد عليك القلق».

ظهر فانوس، وصاح حامله رقماً من مسافة غير بعيدة. وبما أن الرقم لم يكن رقمهما، تجاهلا صياح النادل. وعندما عاد السكون، سألته: «ما اسم صديقتك الأفريقية ـ الأمريكية؟».

«اسمها الأفريقي زاوادي، وسارة اسمها الأمريكي».

«هل زاوادي اسم بلغة الهوسا؟».

«إنه سواحيلي».

«ما الفترة التي عشتما فيها معاً؟».

فكّر للحظة طويلة.

«لا يتعين عليك أن تجيب إذا لم تكن ترغب».

هزّ رأسه بقوة، وقال: «ليس الأمر لأني لا أريد أن أجيب على سؤالك، بل لأن حياتنا معاً مرّت في مرحلتين، الأولى أني كنت أشاركها الشقة، وهذا يعني أني كنت مستأجراً عندها، وبعد نصف سنة أو أكثر بدأنا نتشارك بشكل أكبر في مسؤوليات التدبير المنزلي وفي الجوانب العاطفية من حياتنا، بما في ذلك طفلاها».

«كم كان عمرهما؟».

«طبعاً كانا آنذاك أصغر بكثير، فقد كانت الفتاة في الثامنة من عمرها، والصبي في السادسة. كان ذلك منذ ثلاث عشرة سنة، عندما بدأت أعمل لدى إحدى وكالات الأمم المتحدة في نيويورك، بعد سنة من حصولي على الدكتوراه».

«وماذا كانت تفعل؟».

قال: «كانت مشرفة اجتماعية»، وتوقّف لحظة ثم استأنف كلامه، «كما ترين، فأنا لا أمانع من العيش بمفردي، لكنني لا أتحمل تناول الطعام بمفردي. وكنت قد اعتدت على طهو كمية كبيرة من الطعام، وكنت أدعو الطفلين لمشاركتي في الطعام، لأن أمّهما كانت نادراً ما تعود إلى البيت لتطعمهما. وكان الطفلان يلعبان مع أطفال الحيّ، وكان كلّ ما أطلبه منهما أن يستريحا قليلاً، وأن يأتيا ويأكلا، وكانا يفعلان ذلك».

تذكّرت دنيا حالتها مع طارق، قبل أن يتزوجا مباشرة، إذ كان طارق يعتني بتوأميها لأن عملها في المستشفى كان يضطرها غالباً لأن تكون بعيدة عن البيت. كانت على وشك أن تسأله إن كان يفكر بالزواج منها، عندما رأت فانوساً يقترب منهما بهدوء. صاح نادل رقمهما، فردّا على الفور. دخل النادل الطويل خيمة شجرة الأكاسيا التي يجلسان تحتها محنياً رأسه، مبتسماً. وضع الطعام أمام دنيا، ووضع الفاتورة التي قال إنه يجب أن تُدفع «قبل تناول الطعام»، أمام بوساسو. أصرّت دنيا على أن يتقاسما الفاتورة، لكن بوساسو لم يرض بذلك، وقال إنه دعاها هذا المساء، وطلب منها أن لا تفسد ليلة لطيفة بالجدال حول مبلغ تافه كهذا ـ مع ذلك، فقد كان يقبل سخاءها دائماً.

دُفعت الفاتورة، وغادر النادل. تساءلت دنيا إن كان بوساسو قد ترك بقشيشاً سخياً.

بصمت، تناوبا على غسل أصابعهما في الماء الدافئ الذي جلبه النادل لذلك الغرض. في شبه العتمة، ظنّت أن بوساسو يبتسم مثل شخص على وشك أن يبدي ملاحظة خبيثة. كانت تتمتع بالثقة الهادئة للانتظار، ويتمتع هو بالتربية الجيدة التي تجعله لا يقاطعها عن الأكل.

«لو قالت زاوادي نعم، لتزوجتها»، قال. أخذت دنيا نفساً عميقاً، لكنها لم تقل شيئاً.

أكلا صامتين، وحاولت دنيا أن تتظاهر بأنها غير مهتمة في الأسباب التي جعلت زاوادي لا تقبل الزواج منه. حرصت على ألا تمضغ الطعام بصوت مرتفع، لكي لا يؤثر على تفكيرهما الهادئ. ومرّة أو مرّتين، تلامست أصابعهما، واعتذر كلّ منهما للآخر. وعندما حدث ذلك مرات قليلة أخرى، كتمت دنيا ضحكة. وتابع بوساسو كلامه: «في الأساس، لم تكن زاوادي تثق بالرجال كأزواج، وليس كأحباء، أو حتى كأصدقاء. كانت تكره أن لا تؤخذ على محمل الجد، وأنّ جميع الرجال السود، كما كانت تقول، يتصرفون بهذه

الطريقة، أينما كانوا يعيشون في العالم، في الولايات المتحدة الأمريكية، وفي أفريقيا، وفي جزر الهند الغربية، رجال يعتبرون النساء من أملاكهم الشرعية. وكان بعض الرجال السود الذين تعرفهم، يدخلون إلى بيتها، ومقدمة بناطيلهم منتفخة بشبق لا يتحقق، وكأنهم يدخلون إلى مبولة عامة، كما كانت تقول، وفتحات بناطيلهم مفتوحة جاهزين ومستعدين للعمل».

منح نفسه وقتاً لتناول لقمة بصمت.

ثم سألته: «هل لك أن تخبرني كيف دخل شخص مثل كاهين حياتك؟».

وأضافت، «يبدو لي أنه لم يكن رفيقك في سنوات طفولتك التي أمضيتها في بلدة جي، أليس كذلك؟».

«أدخلته زاوادي في حياتي».

«كيف؟».

«في أحد مشاريعها الاجتماعية، صادفت زاوادي كاهين الذي كان يعيش في حي قريب من هارلم، ولم تكن لديه أوراق تخوّله الإقامة في الولايات المتحدة، ولم يفعل ما ذهب من أجله، وهو أن يدرس للحصول على شهادة جامعية. أحاطته برعايتها كمشرفة اجتماعية، وتمكّنت من إصلاحه خلال سنة، وأصبح قادراً على العودة إلى هارفارد».

قالت دنيا بمشاعر صادقة: «يا لها من امرأة مدهشة، زاوادي هذه».

«إنها امرأة موهوبة. يجب أن تلتقي بها».

لاذا بالصمت، وأخذا يفكران أن زاوادي ودنيا ستتفقان وتنسجمان جيداً.

ثم قالت دنيا: «إن الشيء الذي لا أفهمه، بعد كل هذا، عدم وجود زاوادي هنا، تعيش معك أو تزورك بين الحين والآخر. من المؤكد أنه توجد الأسطورة والرغبة الأفريقية ـ الأمريكية بالعودة إلى القارة الأم. أم هل كنت تثنيها عن الانضمام إليك؟».

«على العكس. عندما جاء ماير لزيارتنا فِ
بالعودة إلى الوطن والتطوع بتقديم خدماتنا،
كلّ ما الأمر. بالطبع كانت سعيدة للغاية من أ-
واتصلت بكاهين، وأقنعته بأن مصيره مرتبط بم

«يظل كل هذا بمثابة لغز بالنسبة لي» اعترفت

«استشهدت زاوادي بمثل إنكليزي، بعد
والخير في البيت كما يُربى حصان عربي أص
يجعلها تأتي إلى أفريقيا لتقوم بأعمال تطوعِ
السود في أمريكا كثيراً. «بالإضافة إلى ذلك» أ
لأسلوبي في حياتي الأمريكية السوداء، وأص
أنسى كلّ ما تعلّمته»، لكنها وعدت بأنها ستق
التي تستحقها».

لم يفه أحدهما بشيء لفترة، وراحا يأكلان
الطعام، ساعد كلّ منهما الآخر في غسل يد
وإعطائه المنشفة، وصبّ الماء له.

لم يتجاوز حديثهما، القلق، الأسئلة الدنيو
قصيرة. وبطريقة ما ورد اسم أبشير في حد
أصدقائه سيسافر إلى روما على طائرة تابعة
يومين. وسألها عما إذا كانت تريد أن ينقل لها

«لنتأكد إن كانت ميسكي ستكون في تلك الر
دائماً ساعي البريد بيننا، وتعرف هي وأبشير كيف

بروكسل (وكالة الأنباء الفرنسية/ رويترز)

بعد ممارسة الضغوط الاقتصادية وال

المفاوضات الحسّاسة)، فرضت الجماعة الأوروبية أخيراً إرادتها القوية على الرئيس الأثيوبي مينغيستو هيل مريام بأن يقبل بأن يشرف فريق من المسؤولين في الجماعة الأوروبية على توزيع المساعدة الغذائية في أقاليم البلاد الشمالية في تيغراي وإرتيريا. وأبلغت الحكومة الأثيوبية قبولها هذه الشروط إلى مفوّض التنمية في الجماعة الأوروبية الذي يقع مقرّه في أديس أبابا. وتشعر الجماعة الأوربية بالقلق إزاء احتمال عدم وصول المساعدة الغذائية إلى الإقليمين الشماليين اللذين يسيطر عليهما المتمردون. والتحضيرات جارية لحضور الفريق جواً إلى أديس أبابا.

وقد قدمت الجماعة الأوروبية حتى الآن مساعدات غذائية تبلغ قيمتها ٢٦٠ مليون دولار. بالإضافة إلى ذلك، قدمت معونة تنموية طويلة الأجل بقيمة ١٠٠ مليون دولار إلى حكومة إثيوبيا التي ترأسها قيادة ماركسية لتنفيذ الإصلاحات في أرضها وسياساتها الزراعية.

[13]

وفيه تأخذ دنيا أول درس في قيادة السيارة

امرأة تستلقي نائمة تحت فيء خفيف تحت شجرة تين، وهي تحلم.

سمعت صوت صافرة ضعيف، صوت صقر صغير، ثم صوت حدأة حاد يناديها باسمها، نداء رفضت أن تردّ عليه. وعندما تخيّلت المرأة أن الصقر قد ملّ وتعب من مناداة اسمها، فتحت عينيها، ولدهشتها رأت قبعة تسقط من بين مخالب الصقر الصغير، قبعة أمسكتها بيديها الحذرتين الرشيقتين. وعندما لفظ الصقر اسمها مرة أخرى، تهيأت المرأة للنهوض، لكنها لم تستطع. كانت عارية تماماً. ومرة أخرى أفلتت من مخالب الصقر هدية مفاجئة أخرى، هذه المرة إكليل من الأوراق، وبذلك قدم لها شيئاً تستطيع أن تستر عورتها به. وعندما سترت عورتها، نهضت ووقفت على قدميها، ووضعت القبعة على رأسها، أيضاً.

لكن المرأة كانت تسير في درب يتجه جنوباً نحو مستنقع. وبنظرة امرأة ناعسة ترى حلماً، رأت هيئة رجل في وضعية منتصبة، رجل يقبع داخل حدود إطار من الأسلاك في شكل إجاصة يشبه القفص. وعلى مسافة أبعد قليلاً، كان هناك بيت بثلاثة طوابق تحيط به حديقة كبيرة من الأشجار المثمرة. وبغتة، راح الصقر ينشد رسالته: «صادقيني يا امرأة، وسأكون لك إلى الأبد؛ ثقي بي وسأمنحك كلّ ما هو جدير بك».

خائفة، تركت المرأة القبعة وإكليل الأوراق، ووطأتهما. توقفت نداءات الصقر، وأصبح الليل نهاراً: واستيقظت المرأة.

التقت دنيا وبوساسو في وقت لاحق من ذلك اليوم أمام المستشفى. كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر بقليل. ويستطيع المرء أن يرى كم كانا متلهفين لهذا اللقاء الذي لم يكن يفصلهما عن أحدهما الآخر سوى النوم والعمل. ودار بينهما حديث جدّي حول ما سمّته دنيا باعتماد أفراد أسرتها كلياً على كرم بوساسو بتوصيلهم بالسيارة، وهو شيء يجب أن يتوقف في الحال. وتوصلا إلى ترتيب بديل قبله الطرفان: فمنذ صباح الغد، ستقّل سيارة الأجرة التي يقودها ابن عم بوساسو كلاًّ من نسيبة وياري إلى مدرستيهما وتعيدهما إلى البيت، مقابل مبلغ رمزي تدفعه دنيا له شهرياً. رضيت بذلك، ورضي الطفلان، وكذلك بوساسو.

كانا في سيارته الآن يوصلها إلى البيت.

سألها: «وكيف كان يومك؟»

قالت: «كان يوماً صعباً»، وقد انحنت إلى الأمام لتضع الحزام، وهو أمر إلزامي لكل من يركب سيارة بوساسو. لم تستطع أن تشد حزام الأمان، لكنها لم تتوقف عن المحاولة.

ساعدها في ربط الحزام، وشعر كلاهما بأيديهما تتلامس.

قال: «لم يكن في يومي إلا اجتماع بعد اجتماع ممل دون أن ننجز شيئاً».

«التعريف الكلاسيكي للبيروقراطية».

«إني أكره ذلك».

وفجأة أصبح صوتها جافاً، وقالت: «أرجوك دعنا نغادر بسرعة».

غيّر السرعة دون أن يسألها شيئاً، ودون أن يلتفت ليرى من هو الشخص

الذي لا تريد أن تراه، أثارت العجلات التي أصدرت صريراً الغبار وكست حواجب المشاة الذين ينتظرون سيارات أجرة وحافلات. لم يفه أحد منهما بكلمة حتى وصلا إلى الطريق الرئيسية المفضية إلى بيتها؛ كانت دنيا قد رأت أنه من الضروري عمل ذلك. «هناك مزيج غريب من الإحساس بالامتلاك، والشعور بالذنب عندما اتخذت قراري بأن أكون وحدي معك الآن، وأنا لا أحب ذلك؛ فمع أني لا أمانع في أن توصل زميلاتي بسيارتك أيضاً، فأنا لا أريد أن يرافقنا شخص آخر. إني أتساءل إن كنت قد أصبحت أنانية أو غيورة؟»

لم تتمكن حنجرته المختنقة من التخلص من البهجة العالقة فيها.

سألته: «كيف تفسّر سلوكي؟».

كانت تدور في رأسه أفكار سامية، وتحوّل التعبير المرتسم على وجهه إلى ابتسامة، وقال: «ربما يعود ذلك إلى المرحلة المبكّرة من علاقتنا ـ ربما يفسّر هذا ما قد يدعونه «سلوكك الغيور». هل رتّبنا أن يقوم ابن عمي بجلب نسيبة وياري من مدرستيهما، لأننا نريد أن نكون معاً فقط؟».

لم تكن لديها حجة تعارض فيها تفسيره عن الأسباب التي جعلتها توافق على دفع أجرة سيارة الأجرة لطفليها شهرياً؛ لا لكي تكون معه، مع أن وجودها معه يمنحها شعوراً بالمتعة، بل لتقلل من الاعتماد على كرمه معها. لكنها قالت لنفسها إن هذا لا يهم. سألته: «لكن كيف تفسر سبب رغبتنا في البقاء مع بعضنا وقتاً أطول، لوحدنا؟».

فقال: «لا أظن أنه توجد لدينا طريقة أخرى تجعلنا نخرج مع بعضنا، لذلك نبدو وكأننا غيوران، نبدو أننا لا نريد أن يشاركنا أحد».

«أنت. أنا. نحن. هذا كل ما في الأمر، في النهاية».

لاحظت دنيا تزايد استخدام الضمائر، كان بعضها شاملاً، وبعضها حصرياً؛ ضمائر تقسم العالم إلى أجزاء منفصلة. فقد كان يبدو أنهما كانا «نحن»، وما تبقى من العالم «هم». وعندما يكونان وحدهما، كانا يقسمان نفسيهما إلى

ضمير «أنا». بمعنى آخر، كانا مثل صورتين تعكسان روحين متوحدتين، مثل فكرتين توأمين اتحدتا في سعيهما لتصبحا منفصلتين ومرتبطتين في الوقت نفسه. هل هذا هو تعريف الحبّ؟

قالت بصوت عال: «إني أشعر بالذنب لأني أدير ظهري لزميلاتي اللاتي أتحاشى النظر في عيونهن، لأن رغبتي في أن أكون معك وحدي تسيطر عليّ. إن هذا الشعور يروّعني بإحساس من الذنب».

خفف سرعته. كانت السيارات تتحرّك بسرعة السلحفاة، تزحف زحفاً، والأبواق تنطلق عالياً. وكانت شاحنة قد سوّت الأشجار بالأرض، وقطعت الطريق الثنائي في حادث بشع. إذ كان نصف هيكل الشاحنة الضخم مقلوباً على جانبه، وحجرة القيادة في الطرف الآخر من الاتجاه الذي كانت تقصده.

تحدّثا عن الغباء الذي لا يمكن إصلاحه الذي يتملك بعض السائقين الذين لا يجازفون بحياتهم فقط، بل بحياة الآخرين أيضاً. وعندما وصلا إلى بيت دنيا، قال لها بوساسو إنه رتّب أن تأخذ أول درس لها في قيادة السيارة.

سألته: «ومن هو الشخص الذي سيعطيني الدرس الأول؟».

فقال: «سنتحدّث في هذا الأمر بعد الغداء».

عند الباب الخارجي، استقبلتهما ياري المتلهّفة لرؤيتهما. وكانت نسيبة قد أعدت وجبة طعام خاصة لهما.

«لكن لماذا المائدة معدّة لاثنين فقط؟» استفسرت دنيا.

فقال ماتان: «لقد أكلنا نحن»، وأضاف، «إنها وليمة جديرة بأن يجوّع المرء نفسه من أجلها».

«استمتعا»، قالت ياري.

«شهية طيبة»، قالت نسيبة.

إن عدم وضع غطاء على شعرها جعلها تغيّر أسلوب لباسها، بمعنى أن تغيّر

في شخصيتها. وقد أحب بوساسو ذلك كثيراً، ووافق أطفالها على ذلك أيضاً، لكن هل هم الذين يجب أن تأخذهم بالاعتبار فقط؟ من الواضح لا. لأن بعض زميلاتها في العمل علّقن على الأمر بشكل سلبي. إذ كانت هي نفسها تقول عن المرأة الحاسرة الرأس بأنها امرأة نرجسية، تريد أن تستخدم المرايا والأدوات الحديثة المشابهة. وبعد الغداء، منحت دنيا نفسها لحظات قليلة لتبقى وحدها في الحمّام. وغرقت في التركيز على نفسها، وركزت اهتمامها كليا على الشعرات البيض الثلاث التي لم تتمكن من ضفرها مع باقي شعرها مهما فعلت، ثلاث شعرات تشبه خيوطاً بيضًا رفيعة ضعيفة، غير صحية وشاحبة. كانت تعرف أنها يجب ألا تقتلعها، وإلا سيتضاعف عددها، وهذه حقيقة تعلّمتها من طارق، زوجها الثاني الذي امتلأت لحيته، التي كانت سوداء تماماً، بشعرات بيضاء. ربما أنه لم يكن بوسعها أن تلاحظ هذه الشعرات الهزيلة لو كانت تخفي شعرها وفق الشريعة الإسلامية التي تأمر النساء بتغطية شعرهن بلفاع من التواضع.

سألت: «أين الأطفال؟».

فقال: «لعلهم يظنون أننا نرغب في قليل من الخصوصية معاً»، ونهض محاولاً أن يرحب بها.

فقالت: «لقد فقد الجميع عقولهم»، وانحنت لتلتقط الحذاء الخفيف الذي أحضرته لها نسيبة لتجرّبه. جلست لتنتعله بصمت. لم يكن الحذاء ضيقاً على قدمها، لكنها لم تشعر بالراحة به. رجعت دنيا خطوتين إلى الخلف، ثم خطت إلى الأمام، مثل شخص يريد أن يشتري حذاء من محل لبيع الأحذية. ثم وقعت عيناها على بنطال يتدلى من فوق كرسي، وهو دليل على رغبة نسيبة التي لم تكن تعرف حدوداً، في أن تغير أمّها أسلوبها في اللباس، وتغيّر معها شخصيتها البسيطة. لا بناطيل، قالت دنيا لنفسها، وقد أفزعتها الفكرة بأن ترتدي بنطالاً ويظهر انتفاخ في المقدمة حيث لم يكن يظهر أي بروز من قبل،

هذا غير الردفين البارزين الممتلئين؛ كانت هذه العيوب تقلق إحساسها بجماليتها.

«لقد صنعت قليلاً من الشاي»، قال أخيراً.

ابتهجت لسماع ذلك، ابتهجت قبل كل شيء، لأنه أحس بالراحة وصنع لهما الشاي في بيتها. سألته: «أين تريد أن نحتسي الشاي؟» راضية بحذائها المصنوع من الكتان.

«هناك في الفيء»، قال، ونقل الكراسي، الواحد تلو الآخر.

عندما تناولت منه كأس الشاي الذي قدمه لها، أقرّت في نفسها أنه يريد أن يؤكد لها نياته الطيبة بدعوتها أولاً إلى منزل ماير، ثم الذهاب إلى المطعم، قبل أن يطلب منها أن ترافقه إلى بيته. حتى الآن، كان كلّ شيء يسير بيسر وسهولة. وقالت لنفسها إن عدم قبولها هداياه هي التي جعلته يشعر بالتوتر، وقد يؤدي ذلك في نهاية الأمر إلى أن يشوب علاقتهما شيء من التوتر. لكنه لم يصرّ على أن تأخذ كلّ ما كان يقدمه لها. ولم يكن ثمة ما يشير إلى شعوره بالقلق. وفي جميع الأحوال، كانت تقبل هداياه في شكل مرافقته بالسيارة لكي يوصلها، مقابل وجبات الطعام التي يتناولها في بيتها. واحدة بواحدة، وهو من ذلك النوع من الرجال الذين يعرفون العدل في المعاملة.

سألته: «هل قلت إنك لا تعرف إلى أين ذهب الأولاد؟».

هزّ رأسه بأن لا.

«أشعر بأنهم يضمرون شيئاً غير جيد، وأشعر بأنك لا تخبرني بشيء يجب أن أعرفه»، قالت بضيق، «لذلك قل لي إلى أين ذهبوا؟ أم أنك أخذتهم إلى مكان ما بنفسك؟».

ومرة أخرى هزّ رأسه بأن لا.

تخلت دنيا عن فكرة الضغط عليه لكي يخبرها أسراراً لا يرغب في أن يفضي

بها، وكانت واثقة من أن أحد أولادها سيخبرها، إن عاجلاً أم آجلاً ما فعلوا، أو إلى أين ذهبوا، ومع من. أخذت رشفة من الشاي، وتذكرت أنهما قطعا شوطاً طويلاً منذ لقائهما الأول في سيارة الأجرة، عندما تنكّر في شكل سائق سيارة أجرة. ومنذ ذلك الحين، ازدادا قرباً، وتعلق أطفالها به. ومع أنها وعدت نفسها بأن لا تصرّ عليه بأن يخبرها إلى أين ذهب أطفالها، تساءلت دنيا ماذا سيفعل إذا سألته. هل سيستسلم لها ليرضيها؟

سألها: «بالنسبة لدرسك في القيادة بعد ظهر اليوم؟».

على نحو غريب، ذكّرها ذلك بقبلتهما الطويلة اللاهبة في الليلة السابقة، عندما استوت واقفة، لا تعرف ماذا ستفعل، وهي تمسك مفاتيح سيارته بيدها. سألته: «ماذا عن درسي في السواقة؟».

فقال «لقد طلبت من صديق لي أن يعطيك الدروس».

«وأين صديقك هذا؟» كانت واثقة من أنه لم يكن ماير، لكنها لم تكن تعرف أصدقاءه؛ فقد كان يأتي غالباً إلى بيتها وحده ولم يكونا يعيران أي اهتمام بالتحدث عن الآخرين. «من هو صديقك هذا؟».

«اسمه كاهين»، قال بوساسو.

كان بوسعها أن تقول له إن فكرة أن يعطيها كاهين دروساً في القيادة لا تناسبها. قالت: «لا أعرف الرجل».

«لكنك لا تحبينه؟».

«ما الذي يجعلك تقول هذا؟».

«إنه أمر واضح».

واصلت سيرها نحو الباب، وكأنها تتوقع أن يأتي كاهين في أيّ لحظة. سألته: «أين هو على أي حال؟».

«لقد تأخر، كالعادة».

قالت: «اقترب أحدنا من الآخر عندما انقض على ماتان وكاد يقتله، ذلك المسكين، وكنت سأقتله لو مسّ ابني بأذى، أقسم أنني كنت سأفعل ذلك».

قال بوساسو: «مشكلته أنه يحبّ النساء».

صدمتها كلمة «يحبّ» غير العادية التي استخدمها بوساسو في سياق خاطئ، على أقل تقدير. اعتدلت في جلستها وقالت: «إنه ماذا؟».

«يقول الناس إن كاهين يحبّ النساء»، ردد بوساسو ما قاله.

فقالت: «في رأيي أن كاهين لا يحبّ النساء، بل إنه يكرههن في حقيقة الأمر، بل حتى يحتقرهن».

«يقول الناس إنه يحبّهن»، قال بوساسو مصراً.

كانت سريعة بسرعة غضبها، وقالت: «وما رأيك أنت؟».

أحسّ بشيء من الضيق ولم يحب ما تفعله له، أو لصداقتهما، لكنه كان يريد أن يضع حداً لهذا الشجار المفتعل بسبب كاهين، فقال: «لا يوجد لدي ولا لديك أي سبب دنيوي يجعلنا نتشاجر حول شخص لا يعيره أيّ منا أي اهتمام». توقّف متفكّراً قليلاً ثم تابع كلامه: «لننس الموضوع كله».

لكنها لم تكن مهيأة لعمل ذلك، وسألته: «هل أنت مصنوع من الخزف يا بوساسو؟».

في البداية لم يفهم قصدها.

«هل تتكسر إلى قطع مثل كوب من الخزف عندما تجادلني؟» وتابعت، «هل تتحطّم وتتناثر إلى أشتات إذا صاح أحدهم من المئذنة بغضب ليبدي رأيه؟».

«لننس الموضوع»، اقترح.

«لا، لن ننساه، اللعنة عليك»، قالت دنيا.

أجفل، ولبث صامتاً.

«أريدك أن تخبرني ما رأيك بكاهين، لا ما يقوله الناس عنه»، صاحت، «أعطني رأيك، لا رأي الآخرين».

قال كلماته بانتباه يشبه الزجاج لكي لا ينكسر، رضخ لطلبها وقال: «إنه يحرجني، ويحرج ماير لأنه أساء إلى سمعة اسمينا اللذين يستخدمهما وكأنهما شهادات له بأنه يعرف أشخاصاً محترمين. وإني أوافقك الرأي بأنه يكره النساء، بل يكره نفسه في الحقيقة، وموقفه من النساء يشهد بذلك، وهي وسيلة يخدع فيها نفسه».

ثم سألته: «وماذا عن الورقة التي يلصقها على مصدّ سيارته التي تقول كاهين: نساء قابيل؟».

لم ينبس بكلمة لوهلة، هز بوساسو كتفيه، محدقاً إلى الأمام، متأملاً، ثم قال أخيراً: «لدينا جميعنا عدد كاف من الأصدقاء والأقرباء الذين يسببون لنا الإحراج. وهو أيضاً ليس صديقي، بل إنه مجرد صديق أحد أصدقائي. حتى زاوادي ليست مسؤولة عن سلوكه السيئ، إني أغفر لها ذلك».

«إن هذا الرجل يكره النساء»، قالت دنيا، «يختفي وراء السيارات الفاخرة وجبال من الأموال المغسولة. يزعجني أن أسمعك تستخدم كلمة «حبّ» في سياق كاهين والنساء اللواتي يغويهن بالنقود. إنه رجل فاسد وسيئ، يلاحق شهواته دون أي وازع».

كان يستطيع أن يرى النار المطفأة في عينيها. تحرّك نحوها مستغلاً مزاجها الهادئ، وقال: «لن يدربك كاهين على القيادة، بعد أن تأخر ثلاثة أرباع الساعة. إني آسف لأنني اقترحته في المقام الأول».

في تلك اللحظة، بدأت دنيا تفك أربطة حذائها المهترئة بحذر شديد لكي لا تنقطع، وقالت: «وماذا ستفعل الآن؟».

«ألن نمكث في البيت؟» رفعت عينيها ونظرت إليه.

«لن نفعل ذلك»، قال.

حدّقت إليه، محتارة.

«سأعلّمك أنا بنفسي».

أطلقت إحدى ضحكاتها الخافتة المعروفة.

«أم إنكِ لا تثقين بقدراتي في التعليم؟»، قال مستفزاً.

فأوضحت: «ليس الأمر كذلك، لكن هل ستتمكن من أن تنهرني وتظهر لي غضبك إذا رجعت إلى الوراء بعد أن تكون قد طلبت مني أن أسير إلى الأمام، أو إذا انعطفت يساراً بعد أن تطلب مني أن أنعطف إلى اليمين؟».

«أعدك بأني لن أتغاضى عن أي خطأ كبير ترتكبينه»، قال، سعيداً بنفسه.

«تذكّر شيئاً واحداً يا بوساسو وهو أنني لست مصنوعة من الخزف ولا أنكسر بسهولة. تكلّم بصراحة عندما يكون لديك سبب جيد لأن تفعل ذلك، ولا تكتم غضبك أبداً. عبّر عن غضبك من أعلى مئذنة، إذا كانت هناك حاجة تستدعي ذلك. إن الغفران والتسامح أمران إلهيان، لكنهما بالتأكيد ليسا شيئين إنسانيين. حتى الله يعاقب الذين يستحقون غضبه الشديد».

جمع أكواب الشاي، ثم قال: «هل نذهب؟».

«هيا بنا»، أجابته.

جلست دنيا وراء المقود وهي تدمدم شيئاً لنفسها وكأنها تختبر ذاكرتها. كانت السيارة التي تستقلها هي وبوساسو مركونة في فسحة، وكان هناك أشخاص آخرون يتعلمون القيادة أيضاً. كانا الآن يقفان بسيارتهما مقابل جدار قديم، في مؤخرة جينيو سيفيل. طلب منها بوساسو أن تركّز، لكنها لم تفعل ذلك. سألت نفسها عن السبب الذي يجعلها تتعلم القيادة وهي لا تملك سيارة، ولا يوجد ثمة أمل في أن تشتري سيارة. هل هو مسمار يُدقّ في نعش اعتمادها عليه؟ أم أن علاقتهما مجرد علاقة عادية أخرى، توفر فيها المرأة الطعام والملاذ والهدوء في البيت والصحبة الجيدة مقابل ارتقاء الرجل في وظيفته وتوفير الأمان والمال؟

بعض الناس يتعرقون عندما يغضبون، وينتاب بعضهم الآخر تلبك في المعدة، ويعتري آخرين القلق، في حين يتململ آخرون. كانت دنيا شديدة التوتر، لذلك امتلأت أذناها بالهواء المضغوط بسبب قلقها الداخلي، ولم يعد بإمكانها أن تسمع شيئاً. لبثت هادئة ولم يكن أحد يشك في أنها متوترة.

«ركّزي!» كرّر بوساسو قائلاً.

«هذا ما أفعله تماماً، لو سمحت»، أجابت.

بدأ من البداية، وراح يسمّي لها أجزاء السيارة المهمة، الواحد تلو الآخر، وكأنه يعطي كلّ جزء يسمّيه حياة جديدة، يلمسه كلما أمكنه ذلك. كان يريدها أن تعرف اسم كل جزء، وأن تتذكّر وظيفة كل منها، قبل أن يحرّك السيارة بوصة واحدة. لمس الآن لوحة التحكم وهو يشير إليها. وأراها كيف يعمل جهاز تعشيق التروس، وشرح لها كيف تعمل دواسة القابض، ثم ضغط على الدواسات، وأخيراً على الكابح، ودواسة البنزين.

كانت الأفكار تتزاحم في رأسها ويدفع بعضها الآخر إلى الخارج، تسعى جاهدة لأن تجد مكاناً في رأسها، فكرة إيجابية تحل محل فكرة سلبية، أو بالعكس. ولمفاجأتها، اكتشفت أنها تفكر بزاوادي، ولكي تتخلص من التفكير بها، قالت دنيا: «هل تعرف أن أخي أبشير كان يلقب باسم «سيلارو»؟».

«لأنه يتعلّم الأشياء بسرعة؟».

هزت رأسها.

بعد وهلة، قال بشيء من الانتقاد، «ركّزي!».

رددت دنيا أسماء أجزاء السيارة وهي تلمس كل جزء منها.

كان معجباً بها. فقد فعلت كلّ ذلك بسرعة ودقة كبيرتين. ثمّ غيّرت السرعة وهي واقفة في مكانها، واتخذت الخطوات المطلوبة في القيادة بين السيارات الأخرى، ممسكة المقود، وقدم تضغط على دواسة البنزين، والأخرى متأهبة، وقريبة من الكابح ودواسة القابض.

«كيف أضعه لكي أرجع إلى الوراء؟» سألته.

تردّد وكان على وشك أن يقول: «لاحقًا» لكنه غيّر رأيه وأراها، ولم تتحرك السيارة. كرّرت كلّ ما قاله لها، بما في ذلك تعليماته عن كيفية الرجوع إلى الوراء. بعد فترة صمت ثقيلة جداً، سألته: «هل أنت مستعدّ؟».

«أنا مستعد إن كنت أنتِ مستعدة»، قال، مبتسماً.

قالت له: «أرجو أن تضع حزام الأمان».

تحرّكت ببطء شديد، وبعد مسافة ملائمة عشّقت التروس. كان يبدو أنها مرتاحة، بالسهولة والثقة التي يتمتع بها كل شخص يقود منذ سنوات. كانت شفتاها تتحركان طوال الوقت. هل كانت تصلّي؟ أم كانت تردد سلسلة الحركات التي ستقوم بها؟ كانت الحقيقة مختلفة جداً، فقد استمرت دنيا تقول لنفسها، إذا كانت زاوادي تستطيع ذلك، فأنا أستطيع؛ إذا كان الكثير من الرجال الأغبياء يقودون سيارات، فانا أستطيع أيضاً. وكانت باقي أجزاء جسدها ثابتة مثل تمثال وسط عاصفة نشطة.

أوقفت السيارة دون أن يطلب منها ذلك. لم ينبس أحدهما بكلمة، وراحا يستمعان إلى صوت المحرّك. مرة أخرى، ودون أن يطلب منها ذلك، أطفأت المحرّك، وشغّلته ثانية على الفور، ثم قادت مسافة بعيدة عن الدائرة التي صنعتها عجلات السيارة. وعندما أخذت تبطئ، لاحظ بوساسو علامات الإعياء على وجهها.

ربما كان من السهولة بمكان إثارة إعجاب بوساسو: فهو رجل عاشق. ألقت نظرة خفية نحوه، وخيّل لها أنها رأت نظرته المراوغة في منخل عينيه. هل يعتبرها امرأة متهوّرة لأنها تفعل كلّ هذا دون خوف أو قلق؟ لماذا بدا بوساسو مشغول البال وهي في أكثر لحظاتها جرأة. أيّ نوع من الرجال هو؟ حذر؟ أم أنه من النوع الذي يتملكه الذعر؟

أوقفت السيارة بعد أن فقدت تركيزها. لا يتمالك بعض الناس أنفسهم عن

الابتسام عندما تهتز السيارة التي يقودها شخص مُدرَّب جيداً. ودون أن يدرك، ابتسم بوساسو. بالنسبة لها، كانت الابتسامة بمثابة طعنة، وقد آلمتها. لذلك بدأت تشغّل المحرّك بسرعة أكبر، وأخذت تقود حتى بدا القلق جلياً عليها، خائفة. ثم أطفأت المحرّك.

ما كاد يتهيأ ليقول شيئاً، حتى أدارت المفتاح وانطلقت، هذه المرة إلى الوراء. اهتزت السيارة بقوة. لكنها لم تيأس. حاولت مرة أخرى، وكررت العملية ذاتها. لم تطع مؤخّرة السيارة أوامرها، فانحرفت كالأفعى، وخرجت عن سيطرتها، ولم تسر باستقامة كما كانت تريد. وبما أن بوساسو لم ينبس بكلمة، فقد امتلأت غضباً، وتيقنت أنه يقول في نفسه أنها حمقاء. وأخيراً، أوقفت السيارة.

سادت فترة طويلة من الصمت.

تذكّرت عندما كانت في الرابعة أو الخامسة من العمر، عندما امتطت الحصان العربي الذي يملكه زبير. أصابها الذعر لأن خاصرتي الحصان الجميل كانتا عريضتين. كان أخوها أبشير معها فتمسّكت به بقوة، وكانت واثقة من أنها لن تصاب بأذى.

تساءل بوساسو بصوت مرتفع عما إذا كانت تريد أن تتدرب أكثر.

«بالتأكيد»، قالت، وقد قبلت عرضه.

عندما بدأت السيارة تتحرّك، تذكّرت دنيا قصّة كان قد حكاها لها زبير، زوجها الأول، عن حصان جمح ولم يعد يتوقّف عن الجري. ثم نبتت أجنحة مجنونة على جانبي الحصان وأخذ يطير شرقاً، صوب الشمس، وكأنه يريد أن يبلغها.

يقول الناس إن الجان يمكثون في سروج تلك الأحصنة. لكن ماذا لو رفضت السيارة أن تتوقف؟ ماذا لو أمسكت إحدى قريبات زوجة زبير اللاتي نصفهن من الجنّ ونصفهن الآخر من البشر المقود؟ لم تشأ أن تخاطر بحياتها وبحياته،

فاختبرت الفرامل وأحست بالارتياح عندما علمت أنها لا تزال تعمل جيداً.

«هل توجد مشكلة؟» سألها بوساسو.

ارتعشت شفتا دنيا مؤنبة نفسها، ونظرت بعيداً ثم نظرت إلى حضنها بقلق شخص لا يعرف كيف يعتذر. لم يشأ بوساسو أن يعرف ما الذي أزعجها، وكان سعيداً بأن يتبادلا مكانيهما عندما اقترحت ذلك. احتفظ بتساؤله لنفسه، وجاء إلى طرف السائق، ولامسها وهي تنتقل إلى المقعد الآخر. شغّل بوساسو السيارة دون أن ينبس بكلمة.

عندما مرّا من جانب دكان أو ـ كومار، الذي تستدين منه دنيا، طلبت منه أن ينزلها وأن يمضي هو وينتظرها في البيت. أعطته مفتاح البيت ليتمكن من الدخول، وطلبت منه أن يعتبر نفسه في بيته إذا لم يكن ماتان أو نسيبة في البيت.

وعدها بأنه سيفعل ذلك.

كانت دكان أو ـ كومار صغيرة تبلغ مساحتها ستة أمتار بعشرة أمتار، فيها رفوف خشب تمتد من أول الحائط إلى آخره. وكان هناك نضد قابل للطي يستخدمه كمنضدة وحاجز في الوقت نفسه. وكانت الفاصولياء والذرة والملح معروضة في صناديق سويت قاعدتها بالأرض. وكان ارتفاع النضد يصل إلى سرّة دنيا. لم يكن هناك أحد في الدكان اليوم وتساءلت أين يمكن أن يكون أو ـ كومار قد ذهب.

ثم سمعت همسات صلاته، الأصوات المألوفة لدى جميع المسلمين في العالم، التي تشمل سيلاً من الكلمات التي تبدأ بحرف السين، كجزء من عبارة بسم الله التي لا يمكن أن تُقبل الصلاة بدونها. ودون أن تدرك ما تفعله، انحنت واتكأت على لوح متداع ثبّت أو ـ كومار في إطاره الخشب عدداً من المسامير، لكي لا يستند فوقه الثرثارون والمتسكعون بمرافقهم عندما يقفون في دكانه ويضيّعون وقته. أطلقت دنيا صوتاً متألماً عندما وخزتها المسامير، وأملت في أن لا تكون قد أزعجت أو ـ كومار.

تبين لها بعد قليل أنها لم تزعجه. فقد نهض من تحت النضد، يدمدم سيلاً من الآيات القرآنية. وعندما استوى واقفاً، لم يكن طوله يتجاوز خمس أقدام. لم تستجب دنيا على الفور، وتركت سيل حروف الدعوات الساكنة ترتطم ببعضها ثم تنفجر في خاتمة سامية من النغمات المتنافرة، مدركة الابتسامة التي ارتسمت على وجهه الودود. وكان من آداب السلوك الإسلامية أن لا تلمس امرأة بجسدها رجلاً على اتصال مع خالقه، لأن المرأة غير طاهرة. لبثت في مكانها وانتظرت.

حيّاها عدة مرات، من مسافة مناسبة، ثم قال لها: «أرجو أن تقبلي تعازي المتأخّرة لوفاة اللقيط. فليبارك الله بيتك، آمين!».

لم تعرف لماذا أحست بأنها تبدو سخيفة، لكنها شكرته.

وكرر عبارات أخرى، ثم لمس وجهه بأطراف أصابعه، وبعدها انتقلت يداه المكورتان إلى ذقنه، وهو يكرر الدعاء طوال الوقت، لا تتوقف شفتاه عن إطلاق كلمات تبدأ بحرف السين، ويتبعها عدد من الكلمات العربية الحلقية. مدّ أو ـ كومار يده أخيراً. كانت يداً ناعمة ذات استدارة غير عادية، لا توجد فيها مفاصل ولا غضاريف ولا عظام. مدّ رسغه كله وكأنه يتمنى أن يحتفظ بها أحد غيره بينما ينهمك في عمل آخر مربح أكثر من مصافحة يد. لاحظت دنيا وجود سوار إضافي من اللحم حول ما كان ذات يوم معصماً، ومساحة دائرية من الأظافر.

«بماذا يمكنني أن أساعدك؟» قال ويده لا تزال في يدها، وكأنه لا يريد أن يسحبها.

قالت: «جئت لأسلّم عليك لأنني لم أزرك منذ فترة طويلة، ولأعرف مقدار حسابي معك أيضاً».

أجاب: «هذا لطف منك».

في هذه الأثناء، تجاوزته عيناها لتستطلعا الأشياء الموجودة في الدكان. ففي

هذه الأيام من التضّخم السريع، والمجاعات، والقيود على العملات الأجنبية والفساد الذي يسود الصفقات في السوق، كان للدكاكين مثل دكان أو ـ كومار موقفان متناقضان تجاه زبائنها. فهناك الزبائن الذين يُعاملون برقة خاصة، والذين يحصلون على السلع التي يصعب الحصول عليها. والدكاكين التي تعرض رفوفاً فارغة، وهناك الدكاكين التي يهزّ أصحابها رؤوسهم، ويقولون إن السلعة كذا وكذا غير متوفرة في السوق منذ أشهر أو سنوات، وأياً كان الصادق من بين هؤلاء، كانت دنيا تنتمي إلى فئة الزبائن الذين كان يحبهم ويفضل التعامل معهم. علاوة على ذلك، كان أو ـ كومار متعلقاً بالتوأمين، وخاصة نسيبة، التي كان يتعامل معها في معظم الأحيان، والتي كان يستطيع أن يقرأ مزاجها، وكان يشتري من دنيا أحياناً بعض الدولارات الأمريكية، بسعر منخفض.

«هل لديك سكّر؟» سألت.

لم يجب بنعم أو لا، بل أجاب: «أي شيء آخر؟» بينما كان لا يزال ساهماً في تفكير عميق، فلعله كان يدمدم الدعوات. رفعت بصرها ونظرت إلى الرفوف الفاغرة أفواهها بأمل أن فراغها قد يلهمها بشيء. «ألا تريدين أرزّاً؟».

ثم لاذا بالصمت عندما دخلت امرأة، لم تكن تبدو أنها زبونة أثيرة لدى أو ـ كومار، وطلبت منه أن يبيعها نصف أوقية من السكّر بأي سعر يريد. هزّ أو ـ كومار رأسه بحزن مصطنع، وقال: «لا يوجد عندي سكّر، حتى لا يوجد لديّ سكر لاستهلاك أسرتي».

بعد أن ذهبت المرأة، نادى أو ـ كومار إحدى بناته فهرعت ودخلت من الباب الخلفي، قادمة من الغرفة الداخلية في مؤخّرة المخزن. امتدت يد أبيها إلى شعر الفتاة الصغيرة المصفف، والتفت إلى دنيا وسألها، «كم كيلو من السكّر والأرز تريدين؟».

«ثلاثة كيلوغرامات من السكّر، أو أن طلبي هذا كثير؟».

«خمسة؟».

«حسناً، خمسة».

«وثلاثة كيلوغرامات من الأرز، أفضل أرز مستورد من الصين؟».

«شكراً»، قالت.

كان واقفاً هناك، ينتظر أن تطلب أيّ شيء ترغبه.

«هل تريدين شيئاً من الطحين؟» سألها عندما لم تطلب شيئاً آخر.

«هل عندك طحين؟».

«هل عشرة كيلوغرامات تكفي؟».

«شكراً»، قالت.

«هل تريدين كيلو زبيب؟».

«أتساءل أحياناً لماذا أنت لطيف معي كثيراً».

فقال: «إنك امرأة لطيفة، وأمّ لطفل لقيط»، ثم واصل كلامه بعد توقف قصير، «ولا تفكّري بأن تشكريني، لأن ما يوجد عندي هو لك، وإذا لم يكن متوفراً لدي فليس باليد حيلة». وكتب شيئاً على قطعة من الورق، وأعطاها إلى ابنته وقال: «خذي هذه إلى زوجة أبيك واحضري الأشياء المكتوبة فيها. هل فهمت؟» لكنه لم يدع الفتاة تذهب إلا بعد أن أصرّ على أنه ربما تطلب دِنيا الكون، وسيقدمه لها، هو أو ـ كومار، من وراء النضد، السماء، الجحيم وكلّ شيء.

«هذا كلّ شيء في الوقت الحاضر، شكراً»، تلعثمت.

ركضت الفتاة الصغيرة من الباب خلف الدكان، وهي تصرخ بحماسة طفولية. وسمعت أصواتاً غاضبة متكررة عندما قاطعت أخواتها وهن يلعبن لعبة القفز فوق المربعات.

«هل يمكنني أن أرى دفتر الحساب من فضلك؟» قالت دنيا.

فتح أو ـ كومار وأغلق درجين، باحثاً عن الدفتر. تذكّرت دنيا حادثة محرجة عندما قرر ماتان، الذي يفتخر بقدراته في الحساب، أن يحسب ديون دنيا، واكتشف فرقاً كبيراً. مما أحدث الكثير من الضيق لدى كل من أو ـ كومار ودنيا، وأقسم بأنه لم يفعل ذلك عمداً. ومنذ ذلك الحين، اتفق على أن تقوم نسيبة فقط ولا أحد غيرها بتسجيل جميع المبالغ لحساب أو ـ كومار في دفتر الحساب.

«ها هو»، قال على الفور، وأعطاها دفتر الحساب.

كان المبلغ مسجلاً بخط نسيبة في دفتر الوظائف المدرسية الذي كان أحد أغلفته ممزقاً. وكان الغلاف الآخر مثبتاً، مثل باب معلّق على مفصلة نصف مكسورة، بعدد آخر من الخرزات. كانت نسيبة قد كتبت بقلم الحبر كلمات: «دنيا وأسرتها: الحساب».

عندما فتحت دنيا الدفتر وراحت تقلّب صفحاته، اكتشفت أن نسيبة قد أعدّت جميع الفواتير حتى الأسبوع الماضي. كانت نظرة دنيا تشي بشيء من القلق، وقالت لنفسها إنها تخشى أن تكون هناك قصة مزعجة وراء النقود التي رأتها مخبأة في المجلة الإسلامية الإيرانية.

سألها أو ـ كومار: «هل ثمة شيء يقلقك؟».

«لا، لا شيء».

قال: «أرجو أن تخبريني بما يضايقك، لأنني أستطيع أن أرى أن عينيك أصبحتا شاحبتين من التفكير. دعيني أطمئنك بأن دفتر حسابك نظيف مثل ألواح الأولياء الصالحين يوم القيامة، لا يوجد ما يشوبها ويلطخها».

قالت دنيا بشيء من الارتجال: «لقد جئت حاملة خبراً سيئاً».

«أوه؟».

«سننتقل من هذا الحيّ».

برزت معالم حزن حقيقي على وجه أو ـ كومار، وقال: «لكننا سنفتقدكم».

«أنا والأطفال سنفتقدك أيضاً».

كان رجلاً رصيناً، وكانت دنيا تشك في أنه يشارك في الثرثرة التي أشيعت في الحيّ، عن شخص صومالي ثري عاد من الولايات المتحدة اُفتتن «بالقابلة في حيّنا». لكنه لم يذكر ذلك، بل حتى أنه لم يسألها إلى أين ستنتقل.

عندما جلبت ابنة أو ـ كومار المواد التي طلبتها دنيا في كيس كبير عليه اسم أحد أصناف السجائر، سألته دنيا: «ما المبلغ الذي ندينه لك لهذا المنّ المبارك المرسل من سماء لطفك؟».

ارتعشت شفتاه وهو يحسب المبلغ، وسجّله على الورقة على الفور؛ وأخيراً، جمع المبالغ في رأسه وذكر لها المجموع. دخلت دنيا ووقّعت على الدفتر بالأحرف الأولى من اسمها.

لم تشعر بالارتياح لأنها كذبت عليه. فهي لم تأت لشراء شيء، بل لتلقي نظرة على دفتر الحساب. ألهذا السبب أصبحت ثرثارة؟

ولماذا لم تغادر المحل فور حصولها على المواد التي طلبتها؟ ووجدت نفسها تقول من تلقاء نفسها: «سيزورنا أخي أبشير قريباً، ونحن فرحين للغاية ومتلهفين لاستقباله».

«متى كانت آخر مرة زار فيها مقديشو؟» قد يظن المرء أنه يتحدّث عن شخص يعرفه. ربما كان يتذكّر كم مرة ورد فيها اسم أبشير على لسان دنيا أو نسيبة في حديثهما بشكل تلقائي، وخاصة فيما يتعلق بالدولارات التي يرسلها لهم، لأنه كان المصدر الأساسي.

«قبل أن أنجب التوأمين بفترة طويلة» أجابت.

كان أو ـ كومار رجلاً في غاية اللطف. وقال: «من المؤكد أني أحبّ أن أتعرف عليه، بالرغم من أنه مجرد اسم بالنسبة لي طوال هذه السنوات».

ركضت ابنة أو ـ كومار لتذيع الخبر بأن أم نسيبة ستنتقل من الحيّ إلى الفتيات الأخريات اللاتي كن لا يزلن يلعبن لعبة القفز فوق المربعات. وبعد لحظة أخرى، خرجت فتاة أخرى من مخبئها لتنشر الخبر المثير بأن خال نسيبة سيأتي إلى مقديشو قريباً. وفاضت مشاعر دنيا وامتلأت حنجرتها بالدموع وأصبح صوتها أجشاً. «شكراً جزيلاً يا أو ـ كومار»، كرّرت قولها، ولم تكن قادرة على قول كلمة دون أن تتوقّف.

قال لها: «أرجو أن لا تنتقلي من الحي دون أن تخبرينا بعنوانك الجديد، لأننا نريد أن نبقى على اتصال معك ومع أطفالك الذين نحبهم كثيراً».

ووعدته بأنها لن تنتقل من دون أن تخبرهم بذلك.

لما دخلت دنيا إلى بيتها الذي يبعد قرابة المائة متر، أخذت تصيح «هودي ـ هودي» ومن الواضح أنها كانت سعيدة عندما سمعت صوت بوساسو يقول: «ادخلي». توجه نحو الباب ليساعدها في حمل الأغراض. ثم قال قلقاً: «يجب أن أجلب نسيبة وياري».

«وأين هما؟» قالت، راجية أن يخبرها.

«اسأليهما بنفسك عندما يعودان»، قال بإصرار.

«إنك تعرف أنني لن أسألهما»، قالت.

فقال: «حسناً إذًا، وأنا لن أخبرك».

انتابها شعور غريب بأنهما في بيت بوساسو، يشاهدان فيلماً على جهاز الفيديو لديه. اكتسى وجهها تعابير عدائية لفترة قصيرة. ثم قالت لنفسها إنها يجب أن توبخ نسيبة. فقد كانت دنيا تريد أن ترتب شؤونها قبل أن يصل أبشير، وقبل أن تحزم أمرها بشأن بوساسو.

«إلى لقاء قريب إذًا»، قالت، مودعة إياه بهذه الطريقة. وذهب.

كانت وجبة الطعام في ذلك المساء عادية ورتيبة: فاصولياء حمراء ورزّ،

وهو الطبق المعروف، الغذاء الرئيسي في مقديشو في الليل. وكانت صلصة الثوم التي أعدتها نسيبة هي التي جعلت الطبق شهياً ومنحته مذاقاً طيباً. وتمنت دنيا لو أنها جعلت الوجبة ممتعة أكثر، كرمى لبوساسو. لا ريب أنها كانت تقدّر رغبته في مشاركتهم مهما كان الطعام الذي يتناولونه. إنه تواضع منه بالفعل.

عندما أنهوا طعامهم، اعتذر ماتان قائلاً إن لديه واجباً مدرسياً يجب أن يؤديه، وتوجه إلى غرفته، وأغلق الباب، ومكث هناك هادئاً، ربما كان يعمل، وربما لا. وتثاءبت ياري كثيراً، كانت تشعر بالملل والتعب. أما نسيبة وبوساسو فكانا يريدان أن يتحدثا. كان يبدو أنهما يرغبان في أن ينقذا العالم بثرثرتهما من أزمته الحالية في اشتعال الحروب الأهلية، والجفاف والإفلاس الفكري والثقافي.

وقفت دنيا على قدميها، متأهبة للمغادرة. وراح بوساسو ينظر من نسيبة إلى دنيا، ولم يكن يعرف كيف سيتصرّف. قالت نسيبة: «لا تذهب. دعها، فهي ستكتب رسالة إلى أخيها أبشير».

لم تستطع دنيا ولا بوساسو أن يفكّرا بشيء يقولانه لوهلة.

قال: «في هذه الحالة سآتي من أجلك في الصباح».

فقالت: «لا داعي لذلك».

بدا قلقاً. «ألن تذهبي إلى العمل؟» سألتها نسيبة، «لقد رتّبت طريقة أخرى للذهاب إلى العمل»، قالت بصوت يشوبه الغموض.

كان يائساً عندما قال: «ألن تأخذي درسك الثاني في القيادة بعد ظهر الغد؟».

«نعم، لكن بعد أن نذهب أنا ونسيبة لنبحث عن بيت».

«إنه شيء رائع، يا أمي أن نبحث عن بيت آخر».

«هل أستطيع أن آتي معك يا دنيا؟»، سألت ياري.

«تصبح على خير إذًا»، قالت دنيا لبوساسو.

«تصبحين على خير».

والتفت إلى ياري وقالت: «تعالي يا عزيزتي. تعالي معي إن كنت تشعرين بالملل».

بعد أن أصبحا وحدهما، راحت نسيبة وبوساسو يتكلمان ويتكلمان، بينما نامت ياري ما إن لامس رأسها الوسادة. قرأت دنيا قليلاً، ثم كتبت رسالة إلى أخيها أبشير.

أخي العزيز:

أكتب إليك بشعور من الإلحاح لأن الدكتور ماير أخبرني أنك تزمع زيارتنا أنا وأطفالي تلك الزيارة التي طال انتظارها. لا أستطيع أن أخبرك كم أنا سعيدة لاستقبالك، وأرحب بك بذلك الحب الذي أكنّه وأدّخره لك منذ سنوات.

وفيما أكتب لك هذه الرسالة، أسمع نسيبة وبوساسو وهما يتحدثان عن التوترات الأسطورية والدينية الكامنة في فكرة «العودة»، وأفكر بك، وكم أني مشتاقة إليك، وكم أشتاق إلى ذلك اليوم الذي يلتئم شملنا من جديد، لنتقاسم سعادتنا وآلامنا.

ستجد أنني امرأة أخرى. لا أستطيع أن أخبرك كثيراً في رسالة كهذه. لكنني أتطلّع لإخبارك كلّ شيء بنفسي. أرجوك، أرجوك، أرجوك، أرجوك، أرسل لي برقية عن طريق المستشفى لكي تصلني، وأرسل لي تفاصيل سفرك من روما ووصولك إلى هنا، لنتمكن من الذهاب إلى المطار للقائك.

طُلب مني أن أسألك أن تجلب معك بعض الهدايا الخاصة لبنات أختك وابن أختك. أرفق لك قائمة كتبتها نسيبة ـ ولكن يمكنك أن تتجاهلها أيضاً إذا أحببت.

أختك المحبّة، دنيا

لما كانت دنيا تشعر بالقلق، لم تستطع أن تنام، وظلت نسيبة وبوساسو يتكلمان بعد ذلك عدة ساعات. ونادت دنيا نسيبة لكي تأتي وتأخذ منها الرسالة التي كتبتها إلى أخيها أبشير لتعطيها إلى بوساسو، الذي يعرف شخصاً سيسافر إلى روما بعد ظهر الغد. وقد فهم بوساسو أن هذه إشارة على أنه حان الوقت ليغادر، وهكذا فعل.

وتردد صدى أمنياتها وأمنياته بليلة سعيدة في سكون الليل.

[14]

وفيه يوصل ماتان دنيا إلى العمل على دراجة نارية مستعارة. وفي وقت لاحق من ذلك اليوم تذهب دنيا قبل أن تأخذ درس السواقة تبحث عن بيت جديد، وأثناء ذلك تزور ميسكي، أخت فريدة

امرأة في منتصف الثلاثينات من عمرها تراقب غروب الشمس في حلم. وتظهر فجأة امرأة أصغر، يُعتقد بأنها ابنتها، وتحجب رؤيتها. تلتفت المرأة الأكبر سناً إلى الجهة الأخرى وكأنها غير مهتمة، واستقرت نظرتها هذه المرة على غيوم مسائية عديدة ضالّة مهاجرة نحو الظلام.

كان لماتان فم جميل مفتوح في غالب الأحيان. وكان صمته يمتد طويلاً، مثل طريق لانهاية له، مستقيم، لا انعطافة فيه، وليس مقفراً على الإطلاق. كانت لديه طريقة في أن يحيط نفسه بصمت حكيم، وكنت ترى فراغاً رائعاً وراء عينيه. وكانت تنتابها الرغبة في أن تعلّق على ذلك عندما تكون وحدها معه. كان ماتان نحيلاً، هادئاً، طويلاً، هزيلاً، فاغر الفم مثل باب فتحته نسمة، وفي وجهه ثؤلولة، يبدو وكأنه دائم الانتظار، لا يقول شيئاً، صبوراً إلى الأبد. ولا يمكن للمرء أن يتذكر شيئاً من كل ذلك سوى صمته.

كان ثمة منعطفات عمياء في فترات صمت أخته التوأم عندما يواجهها أحد، وعندها يجب أن يكون حذراً لكي لا يقع في كمين. هكذا تحاول دنيا أن تفسر مواقفها المختلفة إزاء لحظات طفلها الهادئ.

قال ماتان الآن: «لقد استعرت دراجة نارية يا أمي، ويمكنني أن أوصلك إلى العمل. إذ تبدأ دروسي بعد الساعة العاشرة والنصف».

كانت قد سمعته يغادر البيت عند الفجر، ربما ليجلب الدراجة النارية من صاحبها. ولعله قرّر أن يستعيرها بعد أن سمع حديثها مع بوساسو في الليلة السابقة، عندما تحدثت عن ترتيب طريقة بديلة للذهاب إلى العمل وبالعكس.

سألته: «لمن هذه الدراجة يا ماتان؟».

فقال: «إنها لأبن عم أحد أصدقائي يا أمي».

لم تكن بحاجة إلى الكثير من التفسيرات لتستنتج أن صاحب دراجة الفيسبا هو ابن عم واريس ـ واريس صديقة ماتان. ومع أنه كان الآن يقف بعيداً عن نظر دنيا، كانت تعرف أنه يشعر بالتوتر. كانت نسيبة وياري قد ذهبتا منذ ربع ساعة لتستحما معاً، وخلال ذلك جاء ماتان وعرض عليها أن يوصلها، لأنه يعرف أن أخته التوأم لن تقبل عرضه هذا. «اقترب أكثر لأتمكن من رؤيتك»، قالت دنيا، وعندما اقترب، قالت: «لا أريد أن أتدخّل في شؤونك الخاصة، لكن هل تظن أنه من الحكمة أن أرفض عرض بوساسو حتى تستعير أنت دراجة نارية من شخص آخر لكي توصلني إلى العمل؟» وتدثرت خلال ذلك بغطاء الفراش.

قال بتواضع: «لا أعرف»، وقد التقت عيناه بعينيها لأول مرة.

«لمن الدراجة؟».

«إن صاحبها رجل عجوز يحب أن يستعير دراجتي، ليمارس الرياضة. ونادراً ما أبادله إياها يا أمي».

فقالت دنيا: «أرجو ألا تستعير أشياء من أجلي».

أشاح بنظره بعيداً. ثم التفت ووقعت عيناها على وجهه الشاب، وخطرت ببالها فكرة، فكرة لم تستطع أن تجد تفسيراً لها: إن ماتان يبدو مثل ابن، بينما

قد تصبح نسيبة الشابّة أمّاً ذات يوم، وكانت لدى ماتان نظرة مثل شجرة صغيرة قوية، ثابتة مثل ابن شاب. إن وسم «ماتان: بابن!» يشبه الدمية التي يضع عليها خيّاط ثياباً ويلصق عليها بطاقة السعر. قالت دنيا لنفسها لا بد أنه سيتزوّج امرأة تكبره في السن في نهاية الأمر.

سألته: «كم تكلف دراجة نارية جديدة؟».

«لا يمكنك شراءها بسبب القيود المفروضة على العملة الأجنبية».

«كم تكلف دراجة نارية مستعملة جيدة؟».

صمت، ثم قال: «لنجد أولاً بيتاً ننتقل إليه».

دخلت نسيبة وياري إلى المشهد، لذلك كيّفت دنيا وماتان نفسيهما للقادمتين الجديدتين. كانت ياري تريد أن تتكلم. قالت: «يجب أن تذهبا لمشاهدة فيلم إيطالي يدعى «شجرة القباقيب الخشب». لقد شاهدناه أنا ونسيبة البارحة وقد أعجبنا، أليس كذلك يا ناسي؟».

خمّنت دنيا أن نسيبة هي التي طلبت من ياري أن تقول ذلك ودرّبتها على قول ذلك بالحرف الواحد، حتى الفاصلة، والنقطة وعلامة الاستفهام. وقد خمّن ماتان ذلك أيضاً.

ثم تابعت ياري: «ويجب أن تشاهدي البيت الكبير الذي يعيش فيه بوساسو وحده يا دنيا، وفيه حديقة كبيرة، ومطبخ كبير جداً، أكبر من هذا المكان الذي نعيش فيه نحن الأربعة».

غادر ماتان بسرعة، وقد أزعج ذلك نسيبة، وسألتها: «عما كان يتحدّث، يا أمي؟».

لتفادي التصادم بين الأخين التوأمين في الصباح الباكر، اقترحت دنيا أن تستعجل نسيبة هي الأخرى، لأنه لم يكن من اللائق جعل سيارة الأجرة تنتظر أكثر من اللازم.

كان مزاج نسيبة يجعلها تتجاهل نصيحة أمّها، فكرّرت سؤالها: «عما كان يتحدّث؟».

«لقد استعار ماتان دراجة نارية كي يوصلني بها»، أجابت دنيا، وقد ندمت على ذلك ما إن غادرت الكلمات شفتيها.

كانت نسيبة تأنف من الرجل صاحب دراجة الفيسبا، وقالت: «هل تعرفين ما يقوله الناس؟».

«لا، ماذا يقولون؟».

«إن الرجل شاذّ جنسياً، رجل عجوز في الخمسينات من عمره يفضّل صحبة الصبية الصغار. ألم يخبرك ماتان بذلك؟».

ساد صمت مطبق يُسمع فيه صوت دبّوس إذا ما سقط على الأرض.

توقف الشجار بسبب وصول سيارة الأجرة التي تقلّ نسيبة وياري إلى مدرستيهما. فتحت نسيبة النوافذ المطلة على الشارع، وقالت شيئاً للرجل الذي دعته أكسماد. وفي أثناء ذلك، أخذت ترتدي هي وياري بزتهما المدرسية، وراحت كلّ منهما تذكّر الأخرى بأن تسرع.

«تذكّري أننا سنذهب ونبحث عن بيت بعد ظهر اليوم»، قالت دنيا لنسيبة.

«صحيح؟» قلدت نسيبة بطلة فيلم أمريكية وهي تهرع خارج الغرفة.

تناول ماتان ودنيا طعام الفطور معاً. كان ماتان قد صنع العجة والشاي، ثم رفع الصواني وغسل الأطباق، بالإضافة إلى الأطباق التي تناولت فيها أختاه طعامهما. ترددت دنيا إن كانت ستغطي شعرها أم لا. وبما أنها ستركب دراجة نارية، لا سيارة، فهل سيتناثر شعرها في ضفائر، متموجاً في جميع الاتجاهات، مثل يدي شخص لا يجيد السباحة وهو يغرق؟ وفكرت بسلامتهما (كانت تفكّر بالفعل بأحزمة المقعد بالإضافة إلى بوساسو)، تساءلت إن كان من الممكن العثور على خوذتين في هذه الفترة القصيرة. كان الوقت متأخراً جدًّا للتفكير في هذه الأمور.

«قل لي، هل تحبّ بوساسو؟» سألت ماتان.

تردّد ماتان، ثم قال: «إني أحبّه حقاً».

«ماذا يعجبك فيه؟».

«أشعر بالارتياح في وجوده».

بالارتياح، بأي شكل؟ «بدا أنه يجد صعوبة في العثور على كلماته؛ تلعثم، كان كلّ حرف ساكن يشكل عائقاً. أصبح اللون البني في عينيه داكناً».

كادت أن تيأس من الحصول على رد منه عندما سألته: «هل تحبّه كما أحببت طارق عندما كنت أصغر؟» وأحست بالحماقة عندما قالت هذا.

«كما تعرفين، فأنا أفضّل أن يكون لديّ أصدقاء يكبرونني سناً، وبوساسو من ذلك النوع من الرجال الذين أرغب في إقامة صداقات معهم، شخص أريد أن أحاكي ثقافته. إني لا أشعر بالأسف لقربي من طارق، لكني لا أكنّ له مشاعر الكراهية».

قالت: «ماذا كنت ستفعل لو كنت في مكاني؟».

اعتدل في جلسته إلى الأمام، وكأن مسدساً قد صُوِّب إلى قفا رقبته، وقال: «في أي شيء يا أمي؟».

«هل كنت ستتزوّجه؟».

كان لسان ماتان نشطاً، لا في الكلام، بل في التحرك داخل فمه، وكأنه يبحث عن فكرة فيه، ثم قال أخيراً: «بما أني أعرفكِ جيداً يا أمي، فإنك ستحزمين أمرك في جميع الأحوال. لذلك لا أعرف ماذا أقول».

في مكان ما في متاهة عقل دنيا، كان هناك طريق مسدود، قالت: «يقول الناس إني أطمع في ماله».

فردّد قائلاً: «يقول الناس كلّ الأشياء الشرّيرة».

«ألا يقلقك ذلك؟».

انتفخت شفتاه وبرزتا بأناقة وهو يفكر بذلك، ثم قال: «لا أقصد أن أكون قليل الاحترام، لكن ما الذي يملكه بوساسو لكي تسعي وراءه: المال، او بطاقة الإقامة في أمريكا أو ممتلكاته؟ لا أظن أن دخله أعلى من دخل خالي أبشير، المستعدّ لإعطائك كل ما تحتاجين إليه، ويسدد جميع فواتير دراستنا في أي مكان في العالم».

«ومع ذلك، فإن ألسنة الناس مشغولة بالثرثرة ونشر الأقاويل الشريرة».

فقال: «لو كنت مكانك لما أعرتهم أي اهتمام، إنهم يقولون أشياء شنيعة عن الرجل الذي أعارني الدراجة النارية. فإذا كان شاذاً جنسياً فهي مشكلته هو؛ لا أعرف ما الذي يجعل ميوله الجنسية شأناً من شؤونهم. كما يقول البعض أشياء غير جيدة عن واريس بسبب الفرق في العمر بيننا». قد تكون شفتاه مثل شفتي رضيع انتهى للتو من رضاعة ثدي أمه، لكنه لم يحصل على كفايته.

«أتحبّها؟».

يشبه الفم الفاغر باباً مفتوحاً: يغري المرء في أن ينظر داخله.

كان لدى ماتان صف من الأسنان الجميلة، وكأن هناك فجوة في وسط الصفّ العلوي من أسنانه. ولم تكن النساء يتوقفن عن التعليق على تلك الفجوة بين أسنانه، وكن يتمنين أن تكون تلك الفجوة لدى نسيبة، لأن من المعروف أن الفتيات يكنّ أجمل إذا كانت لديهن فجوة في أسنانهن. إن هذه القسمات الجميلة ميزات تجلب انتباه الرجال إلى النساء ويتزوجون منهن. وكانت نسيبة تردّ عادة: ومن يريد أن يتزوج في أي حال؟

«لا يتعين عليك أن تجيب عن سؤالي»، قالت دنيا.

كانت تنوي أن تستفزه، مع أنه كان يستجيب بسرعة لأسئلتها، فقال: «أظن أنني أحبها، نعم»، وشعر بالقلق على الفور.

«هل نغادر؟» سألته.

استوى واقفاً، طويلاً ونحيلاً وخجولاً، «هل أنت جاهزة؟».

وقفت على قدميها هي الأخرى. لم تشعر بالارتياح لارتدائها البنطال، فقد كان النتوء في سرتها يزعجها. لكنها لم ترغب في أن تغيّر ثيابها وترتدي ثوباً أو زيّها الرسمي الذي حشرته في حقيبتها، لأن ارتداء أحدهما، لن يكون مناسباً لركوب الدراجة النارية. كان ماتان ينتظرها بجانب دراجة الفيسبا، المتواضعة شأن الألوان البنية الداكنة والرمادية المتواضعة التي يحبّها.

قال: «هيا بنا»، وبدأ يشغّل الدراجة.

جلست دنيا بشكل جانبي. فهذه هي أول مرّة تركب فيها درّاجة نارية، وقد أفزعها ذلك. كان على ماتان أن يتوقف مرتين أو ثلاث مرات، ليذكّرها بضرورة أن يوازنا جسديهما، لكي لا يسقطا ويصابا بأذى، وقال: «إنه أشبه بقارب فيه محرّك خارجي، مكرراً ما قاله له صاحب الدراجة. لكن لم يكن لدى دنيا أي فكرة عما يتحدّث، فلم يسبق لها أن ركبت مثل هذه الأشياء».

لكنهما ما إن انطلقا حتى بدأت تستمتع بالجولة، وبدأت الريح تهبّ على وجهها، وبدأت أذناها تمتلآن بالهواء، وفرغ رأسها من جميع الأفكار المقلقة، ما عدا شعورها اللطيف والجديد بركوبها دراجة نارية، ولم تعد تخاف. كانت تلك أشبه بالحرية التي اكتشفتها أخيراً. شعرت بأنها خفيفة. كان يقف على جانبي الطريق أناس ينتظرون إلى ما لا نهاية وسيلة نقل تقلّهم. وخيّل لها أن هؤلاء الناس قد جاؤوا ليرحبوا بها ويلوحوا لها بأيديهم وهما يمران أمامهما، مثل موكب رئاسي يحظى بترحيب حار وصاخب.

كان ثمة شيء مخيف في هذه التجربة. كانت السماء خارج الحدود وبدت الأرض تحتها إما بعيدة جداً أو قريبة جداً من قدميها المتدليتين اللتين تكادان تلامسانها. وبدا لها أن عددَ الحفر أكثر بكثير مما كانت تراه عندما تكون في سيارة بوساسو. لكن هنا يمكن رؤيتها سلفاً، وتحاشيها. كانت عينا دنيا

نشيطتين وتسجلان تفاصيل ثياب الناس. «إنه شيء رائع»، صاحت دنيا، «إنه شيء رائع».

«ماذا؟» صاح ماتان.

كرّرت ما قالته، وأضافت: «يجب أن نشتري دراجة نارية صغيرة».

لم يبد أيّ ردّ فعل. لعله لم يسمع اقتراحها.

بدأت خاصرتاها تؤلمانها وتمددت عضلاتها في ألم حادّ نتيجة جلوسها غير المريح بشكل منحرف، مثل شخص يحاول إن يبقي وزنه بعيداً عن شخص آخر يشاركه فضاء محدوداً. ومع ذلك، فقد وجدت في ذلك متعة أكثر من المهانة التي قد يشعر بها المرء وهو في رفقة شخص لا يعرفه. بمعنى آخر، كانت سعيدة عندما أثارت مع بوساسو مسألة أنه تتوفر لديها وسيلة بديلة للذهاب إلى عملها، وأنها لن تركن تماماً إلى نياته الحسنة ومبادراته اللطيفة، شكراً.

«انظر إليهم»، قالت دنيا.

أبطأ قليلاً من سرعته وسألها: «إلى من انظر؟».

«انظر إليهم وهم يرتدون ثياباً رائعة!» وأشارت إلى النساء والرجال الواقفين على جانبي الطريق، ركاب ينتظرون حافلات لن تصل مطلقاً، يرفعون أيديهم لعلهم يحصلون على توصيلة لا تُقدم لهم على الإطلاق. «أتساءل إن كانوا في طريقهم إلى حفل زفاف، أو إلى عيد موسميّ في مكاتبهم. كيف يمكنهم أن يهتموا بمظهرهم كثيراً وهم لا يملكون شروى نقير؟». بدأت أضلاعها تؤلمها بسبب صياحها الطويل، ولم يعد ثمة نفس في رئتيها. توقّفت قليلاً، ثم تابعت، «إننا كأفراد وكحكومات، نحن الصوماليين، بل نحن الأفريقيين، لا نعيش بحسب إمكانياتنا».

تابعا رحلتهما صامتين حتى وصلا إلى مدخل المستشفى، وترجّلت من على الدراجة. شعرت بالسعادة لأن الرحلة انتهت. أحست بخدر في قدميها، لكنها

أحست بأن باقي جسمها خفيف، وكأنها هبطت من سلّم طائرة. أوقف ماتان الدرّاجة على مسنديها وأعطاها حقيبتها اليدوية، وظلت حقيبته مدلاة من مقبضي الدراجة.

لم يكد يسمع صوتها عندما قالت: «أريدك أن تصرف لي ثلاثمائة وخمسين دولاراً أمريكياً، يا عزيزي ماتان»، وأعطته سبع ورقات من فئة الخمسين دولاراً، مستدعية إلى ذاكرتها كلّ ما حدث في الأيام القليلة الماضية، بما فيها اكتشاف اللقيط، ولقاؤها ببوساسو ووقوعها في حبّه، وحزمة النقود التي وجدتها محشورة في مجلة نسيبة الإيرانية. «سنحتاج إلى قليل من النقود عندما نبدأ البحث عن منزل جديد بعد ظهر اليوم، في حال أصرّ المالك على أن يحصل على المبلغ فوراً. لا تذهب إلى العمّ قاسم إذا استطعت».

«لكني لا أعرف أحداً غيره».

«اسأل»، اقترحت عليه، «سعر جيد، شخص أمين. إني واثقة من أن أحد أصدقائك سيعرف أحداً. فهذه النقود من مصدر جيد، كما تسميها نسيبة «نقود بوساسو» في هذه الأيام».

«سأرى ما يمكنني أن أفعله».

ابتعدت، متمنية له يوماً سعيداً ونصحته بأن ينتبه لنفسه.

جاء بوساسو ليوصلها بعد العمل، وبعد أن تبادلا التحيات الرسمية لاذا بالصمت. فقد رفضت الصور التي بدأت تتدفق إلى عقل دنيا أن تتماسك وتترابط. ربما كان ذلك بسبب نقطة عصبية في تجويف بطنها، ردّ فعل قلق إزاء قرار متسرع. لم يكن ثمة تراجع، يجب أن تنتقل، وأن تجد بيتاً آخر. لكن أين؟

من أين يبدأ المرء؟ فقد أخذت مدينة مقديشو تتوسّع أمام عينيها، وازداد حجمها ألف مرة، مع أنها أقنعت نفسها بطريقة ما أنها يجب ألا تفقد ثقتها بسهولة. من المؤسف أن الصحف لم تكن تعرض إعلانات عن شقق صغيرة

للإيجار، بل عن فيلات كبيرة فقط ينوي أصحابها تأجيرها إلى أجانب يعيشون في العاصمة يدفعون لأصحابها الصوماليين بالعملة الصعبة. أما السكان المحليون، فقد كانت الأخبار عن البيوت الشاغرة، شأن المعلومات الأخرى، تنتقل بالسماع في هذا المجتمع الشفوي في جوهره.

جعلها كبرياؤها وغريزتها بحفظ كرامتها لا تشرك بوساسو في عملية البحث. لم تكن لديها وسيلة للتنقل، وكان يستحيل إيجاد سيارات أجرة. بالإضافة إلى ذلك، كان على استعداد لأن يقلّها إلى أي مكان. أم أن هذا استغلال؟

وعندما فكرت بنفسها كامرأة، وفكّرت بجنس الأنثى في سياق «البيت» العام، شعرت دنيا بالاكتئاب. فقد اتسمت مسيرة حياتها، منذ الطفولة وحتى مرحلة البلوغ، «بمحطات» مختلفة، يمتلكها جميعها الرجال، ويسيّرها ويهيمن عليها الرجال. ألم تنتقل من بيت أبيها مباشرة إلى بيت زبير؟ ألم تهرب من زبير إلى شيري مباشرة؟ كانت هناك فترات فاصلة بين الحين والآخر، فترات قصيرة تصبح فيها سيدة نفسها ومالكة زمام أمرها، كمستأجرة حرّة عند طارق، لكن كلّ هذا توقف عندما أصبحا زوجاً وزوجة. في هذه الأثناء، سقط ظل أخيها الأكبر أبشير، الكلي الوجود، الكلي العلم، على كلّ بناء متداعٍ كانت قد شيدته، وراح يتابع كلّ حركة ونأمة تفعلها، كلّ خطوة تخطوها: كان أبشير محطة أخرى، رجلاً آخر. أما الآن فها هنا بوساسو. جوهر القصة؟ كانت دنيا امرأة مشرّدة، بدون مأوى شأن الكثيرات من النساء في أرجاء العالم. ولأنها امرأة، لم تكن تملك شيئاً.

على الغداء، لم تكلم أحداً، بل لم تكلم نسيبة (التي أعدت وجبة اليوم)، ولا حتى ياري (التي حاولت أن تجرها إلى حديثهما). وتذكّرت دنيا عدد المرات التي أجّلت فيها البحث عن بيت لها، بعيداً عن أخيها غير الشقيق شيري، حيث عاشت هي وتوأمها في جو من الرعب والذلّ. وبفضل تضليل إحدى الجارات (التي كان من الممكن أن تصبح جدة مارلين) قرعت الباب

الخاطئ، باب طارق. وعطف على امرأة لا تملك بيتاً ولديها طفلان توأمان تقوم على تربيتهما. هل سيعطف عليها أحد اليوم، وهناك رجل يوصلها في سيارة جميلة؟

سألتها نسيبة: «لماذا تبدين بائسة هكذا يا أمي. ابتهجي!» فأجابت دنيا، التي كان حزنها طويلاً كما هي ذقنها، «أعطني سبباً واحداً لكي لا أكون كذلك».

تبادل التوأمان النظرات التي استقرت أخيراً على بوساسو. ولم يستثنيا أحداً سوى ياري المنهمكة في تفكيك قلم باركر يخص بوساسو، ولم يوقفها أحد عن تخريب القلم.

وكما لو كانت تحدد موضوعاً للمناقشة، قالت دنيا، «الحقيقة البسيطة هي أني امرأة لا تملك بيتاً، ولا يوجد مفر من ذلك».

وسرعان ما بدأت المجموعة تتكلم باستفاضة عن فكرة التشرّد التي ينبع أصلها بحسب ما قال بوساسو، من أسطورة آدم المشرّد، لا حواء. لكن نسيبة عارضته وجادلته بأنه لا توجد في الإسلام الأسطورة التي تتكلم عن سقوط الرجل، بل توجد في الإسلام فكرة الهجرة التي قد تفسر أيضاً بأن المسلم التقي يهرب من الاضطهاد. وقالت إن المسجد في المجتمع الإسلامي المثالي، هو المكان الذي يلوذ إليه المشرّد الذي لا يملك مأوى.

«لكن بالتأكيد ليس النساء المشرّدات»، قاطعتها دنيا.

وأكد ماتان قائلاً: «هذا صحيح».

«في المجتمع الإسلامي المثالي...»، عَلّقت نسيبة.

«في هذه الحالة يقلّ عدد النساء المشرّدات»، قالت دنيا، «ربما بسبب الزوجات العديدات اللاتي يسمح للرجال بالاحتفاظ بهن كزوجات أو محظيات».

عندما أحسّ بوساسو أن التوتّر قد بدأ يزداد، غيّر الموضوع من المشرّدين في

المجتمعات الإسلامية إلى المشرّدين في نيويورك، الرجال والنساء الذين لا يملكون مأوى، والذين ينامون تحت الجسور، وعلى صناديق كرتونية سوّيت على الأرض، لتصبح فراشاً لهم. وتذكّرت دنيا أنها رأت مثل هؤلاء المشردين في ضواحي ستازيوني تينيني، محطة السكك الحديد الرئيسية في روما، القريبة من ساحة تدعى ميدان إنديبيندينزا (الاستقلال)، وهو المكان الذي يلتقي فيه الصوماليون والإريتريون في العاصمة الإيطالية. وتساءلت دنيا لماذا يتجمع الأجانب والمشرّدون بالقرب من نقاط المغادرة أو الوصول في بلاد منفاهم الاقتصادي. فلا ينكر أحد أن المغتربين الذين يعيشون في مقديشو يتوجهون إلى المطار لأدنى سبب لاستقبال أو لوداع مواطنيهم المسافرين. فمن عادة الصوماليين أن يأتوا بأعداد كبيرة إلى فيوميتشينو، مطار روما الدولي، كلما حطّت طائرة تابعة للخطوط الجوية الصومالية، أو كلما غادرت واحدة منها.

ورداً على سؤال طرحه ماتان، قال بوساسو: «يوجد مشرّدون في مدينة نيويورك أكثر من عدد سكّان مقديشو الرسميين، عاصمة الصومال. إن الرقم مثير للصدمة».

«الحقيقة محرجة دائماً»، قالت نسيبة.

«في الحقيقة»، تابع بوساسو، «أثير جدل مؤخراً عن فيلم أعدّته الأمم المتحدة عن المشرّدين في العالم. وستفاجئين عندما تعرفين أن عدداً من أعضاء الكونغرس وأعضاء مجلس الشيوخ الأمريكيين حاولوا منع عرض هذا الفيلم الوثائقي على عامة الناس. وأظن أنك سمعتِ بالهدية المؤلفة من البطانيات التي قدمتها حكومة بولندا إلى المشرّدين في نيويورك؟» ونظر نحو دنيا.

اعترفت دنيا بأنها لم تسمع بذلك.

وأخيراً قالت نسيبة: «ألم يبدأ كلّ شيء عندما أرسل الرئيس ريغان حليباً معلّباً إلى بولونيا بعد كارثة تشيرنوبيل، كهدية بهدف توجيه ضربة إيديولوجية؟ بولونيا مقابل الاتحاد السوفياتي. وتحولت إلى نكتة مؤسفة ضد ريغان على ما

يبدو، لأنهم اكتشفوا أن الحليب فاسد عندما فتحوه. ورداً على ذلك ـ أرجو أن يصححني أحد إن كنت مخطئة»، تابعت نسيبة، مستمتعة باهتمام الجميع بما تقوله، «قامت الحكومة البولونية بشحن البطانيات إلى المشرّدين في نيويورك، لكن الصناديق كانت موجهة إلى البيت الأبيض. ها، ها، ها!».

«وماذا فعل الأمريكيون؟» استفسرت دنيا.

«عناوين في الصحف»، قال بوساسو، «هذا كلّ ما في الأمر».

فقال ماتان: «ومع ذلك فإننا نعيش تحت الانطباع الخاطئ بأن الفقر والمجاعة والتشرد هي ظواهر ترتبط بضعف التنمية وشح العملة الصعبة وما إلى ذلك. من المزعج التصديق بأنه سيصبح في مدننا أيضاً مليون مشرّد إذا تقدمنا تقنياً».

«إنه شيء مأسوي»، وافقت دنيا.

ثم انتقلت الأحاديث من المواضيع الخاصة إلى العامة، ثم عادوا للحديث عن بعض الحقائق الاقتصادية والاجتماعية المحددة، ووافق الجميع على أن المشرّدين في معظمهم أناس ملوّنون، أو مسنون، وأن النساء السود يمتلكن القوة على البقاء، بالرغم من أعبائهن الهائلة، أكثر من نظرائهن الذكور.

ودون أن يسأل ماتان أحداً بالتحديد، قال: «أتعرفون المفهوم الإسلامي إكسابس؟» وراح يشرح من تلقاء نفسه: «يفسر العلماء الإسلاميون «إكسابس» بأنه حقّ الطاعة، مع أن الكلمة تشترك في جذرها بمفهوم آخر يعني الاحتجاز. وخلاصة الفكرة أنه لا يسمح للنساء بمغادرة بيوت أزواجهن دون إعلامهم مسبقاً، وقد توصف أيّ امرأة تنتهك هذا الحقّ بأنها امرأة عاصية ومتمردة. لذلك، فالبيت هو الحجاب، وبما أن النساء لا يستطعن الخروج من البيت إلى العمل في مكتب أو كممرضة في مستشفى مثلاً، فإن هؤلاء يقعن في دائرة إكسابس: حقّ الطاعة. والمرأة المشرّدة هي امرأة لا زوج لها أو قريب ذكر يوفر لها المأوى».

سادت فترة من الصمت، فاستغلتها دنيا، وتساءلت بصوت مرتفع إن كان عليها أن تأخذ ياري التي نامت، إلى السرير حيث ستكون مرتاحة أكثر. ولدى ذكر اسمها، ارتفع رأس ياري مثل رأس رضيع لم يتعلم الكلام، يستجيب لدى ذكر اسمه. وقالت: «ألا تتعبين يا نسيبة من الكلام؟».

«لم أكن أتكلّم»، قالت نسيبة تدافع عن نفسها.

«عندما نمت كنت تتكلّمين، وعندما استيقظت كنت لا تزالين تتكلمين»، قالت ياري، «ظننت أنك قلتِ إنك ستذهبين إلى بيت ميسكي؟».

نقلت دنيا عينيها من ياري إلى نسيبة وسألت: «ماذا عن ميسكي؟».

استيقظت ياري الآن تماماً وقالت: «لقد وعدتني ناسي بأنكما ستذهبان إلى بيت ميسكي وتقدمان لها قائمة بالأشياء التي أريد أن يجلبها لي خالي أبشير».

«ما كلّ هذا؟» سألت دنيا نسيبة.

«استرخي يا أمي».

«كيف يمكنني أن أسترخي وأنت هنا!» وبدت على دنيا تلك النظرة المرهقة التي تظهر على كلب هزيل في مدينة أفريقية، يعدو، وذيله دائماً بين قائمتيه، حذراً، متأهباً للهرب كلما رأى ظلاً متحركاً، واثقاً من أن أحداً سيرميه بالحجر.

فقالت نسيبة: «إن ما يدعونا للذهاب إلى ميسكي يا أمي، هو أنها تزمع أن تترك الشقّة المؤلفة من الغرفتين التي تعيش فيهما مع فريدة».

وعندما تهيأت دنيا لاستجوابها، سمعت ماتان يقول إنه نسي أن يعطيها الشلنات الصومالية.

بعد أن صرف الثلاثمائة والخمسين دولاراً أمريكياً، وعاد من غرفته وهو يحمل حزمة من الأوراق النقدية.

عندما غادروا في سيارة بوساسو لزيارة ميسكي، ذهبت ياري وماتان على

دراجة الفيسبا لزيارة طارق، وربما لزيارة قاسم. أقفلت نسيبة باب البيت، وكأنهم كانوا مسافرين في عطلة قصيرة. وانتاب دنيا شعور بالحزن. فمنذ أن مات اللقيط، أصبح بيتها يبدو وحيداً مثل يتيم.

لدى وصولهم دخلت ميسكي التي لم تبدّل ثيابها. كانت تتضوع من جسدها رائحة معطّر الهواء، وكان خداها، عندما قبلتهما دنيا، جافين. كانتا مسرورتين لرؤية إحداهما الأخرى. قادتهم نسيبة إلى غرفة الجلوس عندما انتهت شكليات تعريف بوساسو على ميسكي.

كان هناك بهو ضيّق، ثم غرفة جلوس. ولكي تصل إلى الغرفتين الأخريين، عليك أن تنعطف يساراً، وتجتاز المرحاض والمطبخ، وحينها تصبح في إحدى الغرف. لم تكن دنيا ترغب في أن يكون بيتها شبيهاً بهذا البيت؛ إذ سيكون كابوساً بالنسبة لها.

لعله ليس بيتاً مناسباً لكي تعيش فيه امرأة مع أخت أخرى، كما تفعل فريدة وميسكي. وستجد دنيا أيضاً صعوبة في إقناع ولديها بأن يكفّا عن الشجار.

في غرفة الجلوس، بعد أن أخذ الجميع أماكنهم، التفتت دنيا إلى ميسكي التي كانت في أواسط أو أواخر العشرينات من عمرها، وكانت متوسطة الطول، ذات مظهر جدي، ربما لأنها تعمل مضيفة. لكنها لاحظت أن فم ميسكي مستثار، وأن حركاتها التلقائية تجعل المرء يظن أنها تشعر بألم دائم، حبيس، لا يستطيع أن ينطلق إلى الخارج.

كانت ميسكي تمسك بورقة صغيرة كانت أختها الصغيرة فريدة قد تركتها، تقول فيها إنها ذهبت إلى أخصائي في العلاج الطبيعي، ولا تعرف متى ستعود. كانت ميسكي تتألم.

جلس بوساسو في الكرسي الذي أشارت إليه نسيبة، الكرسي الذي تفصله عن الكراسي الأخرى جزيرة صغيرة من الفراغ. أحس بأنه في المكان غير

الملائم، لا لأنه لم يفهم معنى رسالة فريدة، التي قرأتها ميسكي بصوت عال، بل لأنه لم يسبق له أن التقى بفريدة ولا يعرف من هي.

كانت تنبعث رائحة متعفّنة في غرفة الجلوس. لعل النوافذ لم تُفتح طوال النهار على الأقل. ثمة أحد دخّن سيجارته، وألقى الرماد بلا مبالاة، وترك أعقاب السجائر في طبق صغير؛ وربما كان هذا الشخص قد تناول بقايا الرزّ والبطاطا والصلصة من الطبق الصغير ذاته. كانت المنضدة الصغيرة مكسوة بفتات من الخبز، وكان أحدهم قد نام مؤخراً على الأريكة التي تجلس عليها نسيبة، وقد حال لون المخدات إلى البني من شدة تعرّقه عليها. كانت علامات الفوضى مبثوثة في كل مكان. وبدت ميسكي، التي تعرف أن دنيا امرأة تحب الترتيب والنظافة، غير مرتاحة لزيارة شخص غريب مثل بوساسو قبل أن تتمكن من ترتيب الشقّة قبل زيارته.

كان ثمة إحساس بالتعاطف بين الكبار. تذكرت دنيا لحظات من الإحراج عندما بلّل ماتان سرير طارق؛ أو المرات التي أحرجتها فيها نسيبة؛ وتذكّر بوساسو المرات التي كان فيها ابن زاوادي يطفئ سجائره في كوب الزبدة.

«نأسف على زيارتنا المفاجئة»، قالت دنيا.

«إني مسرورة بمجيئك. كنت سآتي لزيارتك لو لم تأتي»، أجابت ميسكي، وهي تبحث عن شيء في حقيبتها اليدوية.

«هل عدت للتو؟» سألها بوساسو.

«نعم»، قالت ميسكي.

«من أين؟».

«من روما».

«متى ذهبت إلى روما؟» سألتها نسيبة.

«لقد حللت محل مضيفة لم تسمح لها ظروفها بالذهاب»، أوضحت ميسكي

لنسيبة، والتفتت إلى دنيا وقالت: «وستكونين سعيدة عندما تعرفين أنني رأيت أبشير وأحمل لك منه رسالة».

«كيف صحته؟» سألتها نسيبة.

«إنه يتطلّع للمجيء إلى هنا»، قالت ميسكي، وأعطت دنيا مغلفين، واحداً أثخن من الآخر.

«متى سيأتي؟» سألت دنيا، ولم تفض المغلفين.

«كلّ شيء موجود في الرسالة، يا أمي»، قالت نسيبة بحماسة، واختطفت المغلفين من قبضة دنيا.

«لماذا لا تقرئينها؟» سأل بوساسو متلهفاً، «لكن متى سيأتي؟».

ارتعشت شفتا دنيا وكأنها تدمدم صلاة قصيرة.

في هذه الأثناء، حسبت ميسكي أيامها ولياليها، ودققت في ساعتها قبل أن تجيب عن سؤال بوساسو، «سأعود بالطائرة في وقت متأخر من الليلة. وهذا يعني أننا سنكون على نفس الطائرة بعد ظهر الغد».

«إني أتطلّع حقاً إلى رؤية أبشير»، قال بوساسو.

حدّقت دنيا في نسيبة المنهمكة في قراءة رسالة الخال أبشير. ولكي لا يزعجها أحد، انتحت نسيبة جانباً وجلست مثل قطّة لا تريد أن يشاركها أحد في طعامها.

«هل ستنتقلين من هنا؟» سألتها دنيا.

«هذه أول مرة أسمع فيها ذلك. إلى أين سأنتقل؟» سألت ميسكي.

كانت دنيا تريد نسيبة أن تقول شيئاً، تفسر من أين حصلت على هذا الخبر، لأنها هي التي قالت إن ميسكي قد قرّرت أن تنتقل من بيتها. لكن اهتمام نسيبة كان منصباً تماماً على رسالة أبشير.

«قد تكون فريدة قد فهمت أنك ستنتقلين»، تجرأت دنيا وقالت.

«متى فهمت فريدة شيئاً» قلت ميسكي بحدة.

«وإلى أين سأنتقل؟».

توقفت نسيبة عن قراءتها. نظرت أولاً إلى أمّها، ثم إلى ميسكي التي قالت لها، «هل تعرفين إن كانت توجد شقّة شاغرة في منطقة موكاليم جاماك، في وسط المدينة، يا ميسكي؟».

«نعم، أعرف»، قالت ميسكي.

«ألا يملك الشقة الشاغرة أحد من أقربائك؟».

«إنها تخص والد خطيبي السابق، هذا صحيح».

عندما تأكدت نسيبة من أن أمّها وميسكي ستواصلان حديثهما عن هذا الموضوع، فقدت اهتمامها بالحديث، وعادت لقراءة رسالة خالها. جلست غير عابئة بالعالم من حولها، ودسّت قدميها تحتها، وبدت مسرورة.

بعد فترة صمت طويلة، سألت دنيا ميسكي: «هل تظنين أننا نستطيع أن نلقي نظرة على تلك الشقّة؟ إننا متلهّفون للعثور على شقّة».

«لكن لماذا ستنتقلون من شقتكم؟» سألت ميسكي.

«إنها قصّة معقدة كثيراً ولا أستطيع أن أقولها لك الآن»، قالت دنيا.

اعترى ميسكي شعور مباغت بالحزن، وقالت: «أرجو ألا يكون لها علاقة بطفل فريدة؟» فقالت: «لم تكن فكرتي أن تهجرها».

انتصب بوساسو واقفاً وكأن نملة سوداء قد لسعته، لكنه لم يقل شيئاً.

«لا علاقة لانتقالنا من بيت قاسم بفريدة أو برضيعها»، قالت دنيا.

توقفت نسيبة عن القراءة وراحت تنقّل عينيها بين أمّها وميسكي وقالت: «إن أمي تكذب عليك. والحقيقة أن لطفل فريدة العلاقة كلها بانتقالنا من بيت العمّ قاسم. لكنها قصّة طويلة، كما قالت أمي. أعدك بان أقولها لك عندما نكون

وحيدتين معاً وتذهب أمي وبوساسو». وكأن شيئاً غير متوقّع قد حدث، تابعت نسيبة قراءتها.

لم تكن هناك حركة، لم يكن هناك صوت، بل مجرد عيون تتحرك بقلق. ربما كان يتلهى، لم يستطع بوساسو أن يبعد عينيه عن نسيبة. إن وصف دنيا بأنها محرجة وترك الأمر عند ذلك سيكون تشويهاً للأمر.

لكنها لم تكن غاضبة من نسيبة، وإذا كان ثمة شيء، فقد كانت مسرورة. ففي قمة تفكيرها كانت تتوقع أن يحتفظ بثقته فيها، التوقع الذي سبّب لها كدر عظيم. ماذا لو ظن الرجل المسكين أن دنيا تعرف كلّ شيء عن هوية اللقيط وأنها أخفت عنه ذلك؟ هل سيصدقها إن هي أخبرته بأنها لم تناقش الموضوع مع نسيبة أو فريدة، أو حتى ميسكي؟ فقد كان بوساسو يعني لها الكثير، ولم تكن ترغب في أن يفقد ثقته بها.

ربما كان هذا الكشف قد هزّه، تحاشت نظرة بوساسو نظرتها، متجهة إلى الأرض أمامه، ساهماً. لكنه لم يبد أنه غارق كلية في حطام سفينة الاكتشافات الجديدة عندما نظر إلى الأعلى وتشابكت عيونهم في عناق من الابتسامات العريضة. قالت لنفسها إن لديه أملاً، وأن الحبّ لا يزال بادياً في نظرته.

ثم قالت لميسكي: «هل تظنين أن أي اهتمام أولي بشقّة قريبك في المدينة مبرّر؟».

«فيها مساحة تكفيك وتكفي أطفالك، إذا كان ذلك ما تبحثين عنه»، أجابت ميسكي.

«إننا أربعة بالإضافة طبعاً إلى أبشير الذي سيزورنا».

أجفلت ميسكي، لكنها لم تسأل لماذا هم أربعة، لا ثلاثة، وخلّف ترددها آثاراً من الرعشة على شفتيها. كانت ركبتا الشابّة ضعيفتين، ولها قلب وديع وكبير وسخي. ربما كان اللوم يقع على فريدة لأنها هي عرّفت خطيب ميسكي

السابق، ابن صاحب الشقّة التي أبدت دنيا اهتماماً باستئجارها، على الفتاة التي جعلها تحبل ثم تزوّجها.

تهالكت ميسكي على كرسي ذي مسند. وبدأ ذلك يتحوّل إلى مشهد يصعب على أحد أن يعالجه؛ وكأنّ ذلك هو التصرف الوحيد الذي تقدر على القيام به. لوت ميسكي قسمات وجهها، وقالت: «توجد في شقّة المدينة غرفتان، وتطل على باحة كبيرة، وفيها حديقة صغيرة، ومطبخ ومرحاضان خارجيان، كان الهدف منها بناء غرفة للخدم لم تقم حتى الآن. والغرف كبيرة جدًّا، مجهّزة كل منها بحمّام منفصل، وفيه مرحاض وشطافة ووسائل الراحة الأخرى، وهي جيدة التهوية، والأسقف عالية. ويبدو أنها تخص مكتب بعثة الكرسي الرسولي الكاثوليكية في مقديشو».

«هل تعرفين كم يطلب صاحب البيت؟».

«إنه مرتفع الثمن».

«كم مرتفعًا؟».

«ما المبلغ الذي يمكنك أن تدفعيه؟».

ذكرت دنيا مبلغاً.

التردد جعل أنف ميسكي يرتعش، وقالت: «سأحاول أن أحصل على المفاتيح من صاحب البيت بذلك المبلغ، وسأقول إنني أنا التي ستنتقل، أو لعلي سأخبره بالحقيقة. أرجو أن يؤدي الصدق إلى نتائج إيجابية سخية».

«لندعُ الله أن نتمكن من تسديد المبلغ»، قالت دنيا.

وكأنها تنتظر دورها، قالت نسيبة: «ماما، لقد أرسل لك خالي أبشير مبلغاً كبيراً، ثلاثة آلاف دولار أمريكي»، وتوقفت الشابة برهة، ونهضت واتجهت إلى حيث تجلس أمّها، ووقفت فوقها وتابعت: «ها هو المبلغ الموجود في هذا المغلف، لقد عددت المبلغ بنفسي. وفي المغلف الآخر رسالة طويلة فيها خبر

مهم واحد: إنه سيصل بعد غد، بعد الظهر، على رحلة شركة الطيران الصومالية من روما ـ لا بعد ظهر الغد، كما قالت ميسكي».

أخذت دنيا المغلفين، وشكرت ميسكي على إحضارهما. وعندها ألحّت عليها، «أقترح أن تذهبي الآن يا أمي، وخذي بوساسو المسكين، الذي لا يهمه الموضوع في شيء. وستأخذني ميسكي، بعد أن تستحم، إلى صاحب البيت وسأحضر المفتاح عندما أعود إلى البيت. وإذا كانت قد أُجِّرت، فعندها سنفكر بشقة أخرى».

لم تتمكن دنيا من تجاهل حكمة اقتراحات نسيبة. وعندما عرضت عليها يد شابة أقوى مساعدتها على الوقوف على قدميها، لتنهض من على الكرسي ذي المسندين المتهدل الذي غاصت فيه، تناولتها بامتنان.

شعر بوساسو بالارتياح للاستعداد للمغادرة وعندما ساعدته، راحت نسيبة تستثيره (فقد أطلقت عليه «العجوز»)، وأضافت، «وخذا درساً في السواقة واتركانا نعالج موضوع الشقّة».

بدت ميسكي حزينة.

عندما ودّع أحدهما الآخر، ظهر القلق على وجه دنيا. لن يكون من السهل إقناع بوساسو بأنها لم تكن تعرف شيئاً عن اللقيط قبل عصر اليوم.

كان قد مضى على دنيا ربع ساعة فقط عندما بدأ بوساسو يعلّمها السواقة، أوقفت السيارة فجأة، وقالت إنها تريد أن تشرح له عن كلّ ما حدث، بما في ذلك السبب الذي دعاها لعدم إخباره بأنها كانت تشك في أنها تعرف شيئاً عن هوية اللقيط. وذلك إما أن يثق بها أم لا.

راحت تروي القصّة من بدايتها، ولم تحذف منها شيئاً، وقالت إن اللقيط أصبح وسيبقى بالنسبة لها رمزاً يوحّدهما هما الاثنان. وهل ستصمد مودّتهما ومشاعرهما تجاه أحدهما الآخر في وجه هذا الاستجواب الذاتي؟

كانت الطبيعة قد أمدّت بوساسو بروح طيبة. راح ينصت إليها بانتباه، لم

يتكلّم ولم يحرّك أيّ جزء من جسده لفترة طويلة. ثم أخذ يحكّ أنفه، وكأن رائحة جنسية من المسك، أو شيئاً حيوياً، فورياً قد غمره. ثم قال: «هل تتزوّجيني يا دنيا؟».

لم يفاجئها السؤال؛ كانت تتوقّعه منذ حين، ولم يزعجها توقيته. بل أزعجتها الطريقة التي قالها بها، وكأنه يطلب منها طلباً عادياً، كما يقول أحدهم: «أرجو أن تمرر لي الملح». قالت دنيا لنفسها لا بد أنه فكّر طويلاً بالسؤال إلى درجة أنه أفسده.

«أرجو أن تأخذني إلى البيت؟» قالت.

فأجاب: «بالطبع».

بدّلا أماكنهما، وأوصلها إلى البيت.

جنيف (وكالة الأنباء الفرنسية)

تعهدت جهات أجنبية مانحة مؤلفة من أكثر من ٨٠ حكومة ومنظمة إغاثة بدفع مبلغ ٣٠٠ مليون دولار لتغطية احتياجات موزامبيق الطارئة خلال السنة التقويمية القادمة. ومن المحتمل أن تقدم وعود بمزيد من الأموال في الشهور القادمة ليصل المبلغ إلى ٤٠٠ مليون دولار، وهو المبلغ الذي طلبته حكومة موزامبيق.

وقدم المؤتمر الدولي للجهات المانحة دعمه التام لما ذكرته حكومة مابوتو بأن السبب الرئيسي الذي يكمن وراء الأزمة الاقتصادية التي حصلت في البلد هي الحرب التي تشنها حركة الثوّار الموزامبيقية، التي تساعدها الولايات المتحدة الأمريكية وجنوب أفريقيا.

[15]

وفيه تقابل دنيا كاليا، المرأة التي تعاني من مشكلة الحَبَلِ الكاذب، وتعلم بحبلها. وفي وقت لاحق من عصر ذلك اليوم، تأخذ دنيا أول درس لها في السباحة في المركز الرياضي (سينترو سبورتيفو) حيث تقابل فريدة

جاءت دنيا إلى المستشفى. كانت المتسولات يستجدين وينشدن أدعية، وقد أعطتهن المريضات الحبالى الفقيرات اللاتي ينتظرن في العيادة الخارجية ما يمكنهن إعطاءه لكي تكون ولادتهن ميسرة وسهلة. وكنّ يجلسن بالقرب من بعضهن في الاتجاه نفسه. وكانت دنيا تروح وتجيء، وتملأ الاستمارات بمساعدة ممرضات أخريات.

لم يكن هناك عدد كبير من المريضات اليوم، وراحت الممرضات يتحدثن عن الحصول على استراحة في منتصف النهار، وإمكانية أن ينتهي عملهن عند الظهر. وكان الطبيب المناوب الأخصائي في الولادة الذي يدعى كاويل، متعجرفاً، معتداً بنفسه. فلم يكن يتكلم عن أحد إلا عن نفسه، ولم يكن يكف عن الحديث عن عدد الولادات التي أجراها، مانحاً نفسه درجة استثنائية من النجاح. ولم يكن يحب دنيا، ولم يكن يعتمد عليها عندما يكون مسؤولاً عن العيادة، ويكلفها بأكثر المهام مللاً. لكنها كانت تمتلك القدرة العقلية التي تجعلها تتغاضى عن دناءته. .

وقبل استراحة منتصف النهار، جاءت امرأة تدعى كاليا وقالت إنها تريد أن

تتكلم. بان لدنيا تغير في سلوكها وحالتها الجسدية، مع أنها لم تتمكن من تحديد طبيعة هذا التغيير بدقة.

«أريدك أن تلقي نظرة على هذه»، قالت كاليا، وقدمت إلى دنيا ورقة عليها خربشة طبيب تصعب قراءتها. أخذت دنيا الورقة غير المقروءة.

«هذا خط الدكتور ماير، صدّقي أو لا تصدّقي»، قالت كاليا.

أمعنت دنيا النظر في هذه الألغاز المشفّرة، وسألتها: «ماذا تقول؟».

فقالت كاليا: «إنها تؤكد بدون أدنى شك أنني حبلى»، بدا أن دنيا تريد أن تنصرف، لكنها لم تفعل ذلك.

«ألا تصدقينني؟».

ظهر على وجه دنيا أنها ستعطس. أحست بتقارب مفاجئ نحو كاليا، عندما قالت لنفسها إن من الممكن أن تكون هذه المرأة حبلى حقاً. سألتها: «هل رأيت طبيباً آخر؟».

ومرة أخرى راحت كاليا تنبش في حقيبتها تبحث عن الدليل الصيني على قصّتها التي لا تصدق: قصّة امرأة تتمتع بسحر دائم بجمع جميع الأوراق التي يخربش عليها الأطباء، وتحملها كإثبات على أمومتها، تماماً كما يبرز شخص مجنون وثيقة تثبت أنه سليم عقلياً؛ لقد أصبحت كاليا التي أصرّت منذ سنوات على أنها حبلى ـ لقد حبلت أخيراً!

أثناء الاستراحة، التقت دنيا بأحد الأطباء الصينيين في البهو. أسعدها أن تفكر بماذا يمكن أن يطلق الصينيون اسم حيوان على السنة التي أصبحت فيها كاليا حبلى، السنة التي عشقت فيها دنيا، السنة التي أكد فيها أبشير أنه سيأتي لزيارتها. وفي طريق عودتها إلى العيادة صادفت الدكتور ماير؛ وبما أن أحداً منهما لم يكن مستعجلاً، راحا يتحدثان قليلاً وأخبرته بقدوم أبشير الوشيك. دعته إلى تناول العشاء معهم في الليلة القادمة. ثم سألته هل صحيح أن كاليا حبلى؟

فأجاب: «صحيح».

لم تقل دنيا شيئاً لكي لا تبدو حمقاء.

«للجسد البشري ألغازه المتأصّلة فيه، ولا يستطيع المرء تفسير سلوكه دائماً، وليست جميع تعابيره ومظاهره كتاباً مفتوحاً أمام الأطباء. ربما لأنها ترغب في أن تكون أمّاً فقد أصبحت أماً».

«لكن لماذا ينبغي إعطاؤها رسالة تزكية «إلى من يهمه الأمر»؟».

«حسناً، لقد طلبت مني أن أعطيها وثيقة أصرّح فيها بأنها حبلى، لكي تريها إلى ضرتها، على ما أظن».

تركت دنيا ابتسامة ناعمة تهبط على وجهها، مثل طير يحطّ فوق شجرة عارية من الأوراق. ثم أومأ ماير نحوها وانصرف في اللحظة التي كانت تستعد فيها لأن تلمح له بما يجري بينها وبين بوساسو. قالت لنفسها حسناً، وعادت إلى العيادة.

بعد ساعتين كانت قد أصبحت في البيت تعدّ طعام الغداء. ثم جاء بوساسو ليأخذها هي ونسيبة إلى المركز الرياضي لتأخذ أول درس لها في السباحة.

وجدت دنيا صعوبة في تحريك قدميها في قاع حوض السباحة، ولم تتمكن من المحافظة على توازنها. وتذكّرت حلمها في الليلة الماضية الذي رأت فيه طيراً، وكانت تقف حارسة عند مدخل كهف. ثم وصل طير كبير. وكان هذا الطائر العملاق يحمل في منقاره قرصاً مضيئاً وقدمه إلى دنيا. كانت تغمض عينيها نصف إغماضة عندما أفاقت، وكانت أسنانها قد أخذت لسانها رهينة، وراحت تعضه حتى انبثق منه الدم؛ كانت شاحبة اللون من الخوف.

عندما قفزت إلى البركة، كان الوقت قد تجاوز فترة بعد الظهر. كانت مارلين هي التي بدأت تدربها على السباحة، وكانت نسيبة متوترة قليلاً، مثل أب أحضر طفله إلى حفلة يقيمها الكبار. وقد عزت دنيا هذا التوتر إلى الوضع الغريب الذي وجدا فيه نفسيهما: فقد كانت المرأة الوحيدة في عمرها، بينما كان

الآخرون جميعهم من سن نسيبة. وكان البعض يتدرّب للمشاركة في مسابقة السباحة لعموم أفريقيا التي ستقام في غرب أفريقيا، لذلك طلب إلى دنيا أن تظل عند طرف البركة، لتبقى بعيدة عن طريق المتدربين.

أبدت مارلين لباقة رائعة، فلم تكفّ عن القول لدنيا: «إن السباحة بسيطة جداً، إذا نفذت تعليماتي. أرجو أن تركزي وتنفذي ما أقوله لك». لكن دنيا سرعان ما فقدت تركيزها، وتابعت عينيها نظرة مارلين التي تركز على مدخل المسبح. كان يبدو أن مارلين ونسيبة تنتظران أحداً. من هو؟ «لنحاول مرة أخرى»، اقترحت مارلين بأناة.

لم تثق دنيا بقدرتها على أن تظل عائمة فوق سطح الماء. فقد كانت قدماها تسقطان في فتحة أكثر عمقاً في الماء، والماء الذي تبتلعه، وكأنها تبتلع قطعاً من دنيا التي لم تعد عيناها تفيدانها، ولم تعد أذناها تسعفانها، وضوضاء طرطشة الماء التي تحدثها كانت مرتفعة وخرقاء على نحو مخجل، مثل طفل.

قالت دنيا لنفسها إن الفزع يبرّر الهرب، والمرء يهرب. لكن خوفها من الغرق كان أثقل على قلبها من أيّ شيء يمكن أن تتخيّله. وعندما لم تكن تتوقع ذلك، لم تتمكن قدماها من الوصول إلى الأرض. وعندما كان أحدهم يضحك، كان يخيّل إليها أنه يسخر منها. وكانت تعتقد أن عيون الجميع شاخصة إليها، لكنها لم تشعر بالارتياح إلا عندما جاءتا إلى الطرف الضحل من البركة، حيث تمكنت من الوقوف على قدميها. وقالت لمارلين متوسلة: «أرجو أن تمنحيني لحظة لألتقط أنفاسي».

«خذي وقتك»، قالت مارلين.

لامت دنيا نفسها لأنها لم تناقش كلّ شيء قبل أن تلقي بنفسها إلى البركة. فقبل أن تأخذ الدرس الأول لتعلم السواقة، علّمها بوساسو الأشياء الأساسية، بتمهل شديد، لذلك فهمت النقاط النظرية قبل أن تشغّل المحرّك. أما هنا، فقد اختلف الأمر. أحست بالمهانة من الملاحظات المبتذلة التي كان يبديها بعض

الصبية والفتيات الصغار؛ وشعرت بأنها معرضة لتعليقات الشبان بدون خجل، ولم تعد نسيبة، التي تلاشت في مكان لا يعرف إلا الله أين، تهتم بها. كانت مارلين فتاة ودودة ولطيفة، لكن لم يكن بوسع دنيا الاعتماد عليها تماماً. كانت مارلين جميلة، وفيها شيء من العمق، ولم تتحدث كثيراً لتشرح لها نظرية السباحة، وراحت تعلم شخصاً آخر الخطوات الأولى في السباحة. وبدا لدنيا أن تعليمها السباحة نشاط ثانوي بالنسبة لمارلين ونسيبة. أرادت أن تعرف من كانتا تنتظران، ولماذا عيناهما مركزة على مدخل المسبح؟

«لا أنتظر أحداً»، أجابتها مارلين.

«إذًا لماذا تنظرين أنتِ ونسيبة بلهفة شديدة إلى مدخل المسبح؟» سألتها دنيا بفضول.

هزت مارلين كتفيها وكأنهما اهتزتا من تلقاء نفسيهما، وقالت: «إسألي نسيبة».

كانت مارلين من ذلك النوع من الفتيات، التي كانت تتخذ من نسيبة قائدة لها، ولم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً إزاء ذلك. كانت تنفذ كلّ ما تقوله لها نسيبة. كانت دنيا متأكدة تماماً من أن مارلين تعرف من تنتظران. إن بعض الأسرار أهم من الأسرار التي تفضي بها إحداهما للأخرى. في أذنيّ مخيلتها، تخيّلت دنيا أن ابنتها تقول سراً لمارلين ثم تطلب منها ألا تبوح به، وتضيف: «فقط علّميها السباحة وكوني لطيفة معها».

في وقت سابق، في غرفة تغيير الملابس، ساعدت يدا نسيبة البارعتين دنيا في حشر مايوه السباحة الذي استعارته من فريدة في جسدها. وأحست دنيا أنها مثل عروس تمُنح ذلك الحمّام الطقسي، وتدلك بروائح عطرة. قالت لها نسيبة: «إنك ستخففين من وزنك. ستتركين في المسبح ما لا يقل عن كيلو غرامين من الدهون كل يوم، أعدك بذلك». رافقتها نسيبة ومارلين إلى الماء، كوصيفتين تحضران حفل زفافها. وما إن لامست قدما دنيا الماء، حتى اعتراها

شعور بالخوف. قالت لها نسيبة: «لا شيء يدعو للخوف يا أمي، لا داعي للقلق. أغمضي عينيك واقفزي إلى الماء، وما إن تفتحي عينيك، حتى تجدين نفسك في الطرف الآخر من البركة». رأت دنيا الفتيات الشابات وهن ينزلن إلى البركة بالسهولة التي تزوجت فيها مرتين. ألم تفعل ذلك: أغمضت عينيها، ووجدت نفسها متزوّجة من زبير، ثم من طارق؟

ثم وقعت عيناها على فريدة تدخل عند البوابة. كانت تترنح في مشيتها، تجرجر قدميها، مثل شخص عجوز يؤلمه ظهره. بدا أن كلّ شيء قد توقّف، وهبطت لحظة من الصمت على المكان برمته. وتجمّعت بعض الفتيات حول فريدة، يحدثن ضجيجاً مثل الذباب الصيفي عندما يتجمع حول قطعة من الحلاوة. وكان ردّ فريدة على السؤال: «أين كنتِ مؤخراً؟» أنها ذهبت إلى المنطقة الشمالية وأنها وقعت في المنحدر عندما كانت تتسلق الجبل، وأصيبت بانزلاق في إحدى فقرات ظهرها، مما اضطرها للاستلقاء على ظهرها منذ ذلك الحين. فتحت صديقاتها درباً لها، ورحن يواسينها وهي تمشي أمامهن على قدميها الثقيلتين. فقد كن يعرفنها رياضية قديرة تمكّنت من انتزاع تاج بطولة السباحة مرتين. (وعلمت دنيا فيما بعد من نسيبة أن فريدة ذهبت إلى شرق أفريقيا مع قاسم، وتسلّقت جبل كيلمانجارو).

لم تستغرق هذه الجلبة طويلاً حتى همدت. وتحلّقت بعض الفتيات في مجموعات ورحن يتبادلن آخر الإشاعات والأقاويل. إذ قالت بعضهن إن فريدة كانت حبلى وأجهضت طفلها؛ وأصرّت فتيات أخريات على أن الحكاية طويلة بطول الجبل الذي قالت الشابّة إنها تسلقته.

ثم ظهرت نسيبة ثانية، وجلبت معها فريدة لتلتقي بأمّها التي فضلّت أن تبقى في الماء، عند حافة البركة. وكان من المحرج التظاهر بأنها رأتها مؤخراً. وراحت المرأتان تدردشان، شاعرتين بالارتباك. وفي الدقائق القليلة الأولى من حديثهما، تحاشت دنيا النظر في وجه فريدة. وقرفصت الشابة إلى جانب

البركة، وفضلت دنيا أن لا تغادر الماء لكي لا تهمد حماستها وتنبذ فكرة تعلم السباحة. وفي هذه الأثناء، التف ثوبها حول جسدها كما تلتف حية ضخمة حول ضحيتها.

ثم اقترحت نسيبة، البارعة في تنظيم حياة الآخرين: «لماذا لا تنضمين إلينا لاحقاً؟ سنستلقي أنا وفريدة بجانب البركة. افعلي ما تريدين، وسنفعل نحن ما نريد»، والتفتت نسيبة إلى مارلين وقالت: «تابعي تعليم أمي السباحة، أرجوك». ولما رأت دنيا فريدة تبتعد بتثاقل، ظنّت أن وزنها قد خفّ، لكنها لم تفقد سحر أطرافها الطويلة. كانت تمتلك عينين رائعتين، وكانت أطول من ميسكي وأجمل منها بكثير. وكانت فريدة التي تكبر التوأمين بعدة أشهر، ترتدي عباءة فضفاضة، لعلها العباءة التي كانت ترتديها عندما كانت حبلى باللقيط.

رأت دنيا الآن الماء الذي تقف فيه كما ترى الحبل السري والبراءة. وتذكّرت قول نسيبة إن دنيا لا تعرف أطفالها جيداً، أو ماذا يفعلون. كان اللقاء بفريدة بمثابة شيء يفتح العينين على أمور كثيرة، لقاء جديراً بالتذكر.

وبعد أن تراجعت فريدة ونسيبة إلى خلفية معتمة، كان صوت مارلين القلق يقول: «استرخي الآن ونفذي تعليماتي يا دنيا...».

«إني أغوص كالمرساة عندما أرفع قدمي عن أرضية البركة»، قالت دنيا.

«لا تفكري بذلك»، قالت مارلين وهي تخطو نحوها، وكأنها اكتسبت شجاعة من لقائها مع فريدة ونسيبة، «هذا أول شيء عن السباحة. دعي جسمك يعتني بنفسه، اتركيه يعوم عندما يشاء، ودعيه يغوص كالمرساة إذا أراد ذلك».

أومأت دنيا برأسها، مثل طفل اقتنع بأن أخذ حقنة ضد الحصبة لن يؤذيه. ربما كانت نبرة صوت الشابة هي التي نجحت في إقناعها أخيراً، لكن دنيا بدت وكأنها منوّمة مغناطيسياً. ابتسمت ابتسامة جميلة دون أن تفكر، ووضعت كل ثقتها بمارلين.

«هيا الآن!» قالت مارلين، ووضعت راحة يدها المفتوحة، العريضة مثل

رغيف مسطح، تحت جسم دنيا، ورفعتها إلى الأعلى، مثل متزلّج بهلواني يتزلج في ساحة تُزلج وتصفيق حماسي يحيط به. وقالت مشجعة: «هذا رائع. جيد، جيد جداً!».

ساد صمت، وخيّل إلى دنيا أن الجميع يراقبونها.

«إنها قصة نجاح»، قالت مارلين.

قالت دنيا لنفسها، أنا القصة، أنا النجاح.

كانت دنيا تكره الفشل. لم تكن تريد أن تُشعر مارلين أو نسيبة بأيّ إحراج. وأخيراً، وجد جسمها توازنه، وأحدثت قدماها الضجة الملائمة، وراحت ذراعاها تنثر الماء حولها. وبإشراف مارلين أخذت تسبح ذهاباً وإياباً، وبدأت تزداد ثقة بنفسها، تحثها على ذلك قصة النجاح التي كان جسدها يحدثها بها.

ثم أحسّت مارلين برعشة من القلق تسري في جسد دنيا. كانت مثل مسافر يصل إلى منعطف مفاجئ على الطريق، منعطف بدون إشارة طريق تشير إليه. رفعت مارلين راحة يدها المفتوحة إلى الأعلى، بالقرب من صدر دنيا. وبعد قليل، استعاد جسد دنيا توازنه المفقود. وقالت لنفسها إن المرء الذي يصل إلى قمّة إفريست، لا يجد جبلاً مرتفعاً آخر. ظنت نفسها وكأنها المحور الذي يدور حوله الكون، لذلك كان عليها ألا تغوص أو تغرق أو تهجر الباخرة. شعرت بالسعادة لأن مارلين صحّحت الخطأ الصغير في الوقت المناسب، وبلباقة. ثم راحتا تسبحان معاً، ذهاباً وإياباً، مبتعدتين عن طريق السابحات الأخريات. وفجأة، تلاشت يد مارلين مثل منديل ساحر، وراحت دنيا تنثر الماء وحدها. وعندما وقفت على أطراف أصابعها، والتقطت نفسها، قالت: «لقد حققت شيئاً، أليس كذلك، يا مارلين؟».

قالت مارلين بادعاء غير متواضع إنها هي التي علّمت نسيبة وفريدة السباحة.

لم تعبّر دنيا عن رأيها.

«أين هما؟» تساءلت مارلين، ثم أشارت بإصبعها وقالت: «هناك».

نظرت دنيا إلى حيث أشارت إصبع مارلين، ورأت فريدة ونسيبة تستلقيان جنباً إلى جنب على حافة البركة في الطرف الآخر. إن رؤية فريدة جعلت دنيا تتوق لمعرفة ماذا تنوي أن تفعله تلك الشابة الصغيرة. لكن هل ستتكلم فريدة، هل ستخبرها بكلّ شيء؟ «هل تستطيعين أن تجدي طريقك إليهما؟» سألتها مارلين، «لأنني أريد أن أسبح قليلاً»، وعلى الفور، انطلقت بعيداً.

خشيت دنيا أن تخرج من البركة، فقد تملكها شعور مرعب بأن الجميع سيحدّقون فيها وهي تسير نحو نسيبة وفريدة. عندما نظرت نحو الفتاتين، لتحسب المسافة التي تفصلها عنهما، لاحظت أن نسيبة تدخّن سيجارة. صدمها ذلك. لكن لماذا؟

كان لتساؤلها الذاتي تأثير إيجابي على سلوكها، وفجأة انتابها شعور باللامبالاة، لا مبالاة في كل بشيء. ولم تعد تكترث بمن سيرى جسمها المكشوف. خرجت من البركة وراحت تمشي بتصميم باتجاه نسيبة، وراحت تركّز على سيجارتها. لم يسر إحساس بالبرودة في أي جزء منها عندما أخذت تصعد الدرجات الحجرية لتخرج من البركة ولم تشعر بالغثيان، كما كانت تخشى. وذكّرت دنيا نفسها بأنه يسود بيتهم مظهر من الحرية وتبادل المشاكل، ولا توجد فيه سلطة لذكر: ألا يجب استيعاب مثل هذه الحريات؟ ماتان وفتاته واريس، ونسيبة وتدخينها السجائر.

عندما انضمت إليهما، قالت نسيبة: «اجلسي أو استلقي، كما تحبين».

ابتسمت فريدة ابتسامة عريضة مرحبة بدنيا.

الصدمات تأتي وتذهب، مثل طبقات الجلد المتقشر. استطاعت دنيا الآن أن تنظر إلى نسيبة وهي تدخن، من دون أن ينتابها إحساس بالعاطفة المنتهكة، متظاهرة بأنها غير متضايقة.

من موقعها المؤاتي، المطل على الجسدين الممددين، تبين لها أن اختيار فريدة للألوان يشبه قليلاً لون السلطة المغسولة بمياه عذبة. استلقت دنيا إلى

جانبهما فوق منشفة ممدودة، قبالتهما، وقالت: «ماذا يجب أن أقول لك يا فريدة؟ الحمد لله على سلامتك؟ إني سعيدة بأنك نجوت؟ أو لماذا لم تخبريني منذ البداية؟».

تحرك فكا فريدة البارزان، وفتحتهما على نحو أوسع عندما قدمت لدنيا جانب وجهها. نظرت إلى نسيبة، وكأنها لتوجهها، وقالت: «كنا سنحكي لك قصة مختلفة لو كنتُ قد حدثتكِ في ذلك الصباح، أليس كذلك؟».

«بالفعل»، قالت دنيا موافقة.

نهضت نسيبة وقالت: «سأترككما تتحدثان معاً»، ودون أن تنتظر ردّ فعلهما، ابتعدت، مهرولة بسرعة، حتى وصلت إلى منصة الوثب، وغاصت منها إلى حوض السباحة.

«أين كنت طوال هذا الوقت؟» سألت دنيا فريدة.

فقالت فريدة: «لديّ غرفة صغيرة في منطقة بوور كارول تبعد أقل من كيلومترين عن بيتك. ولم تكن نسيبة تداوم على الحضور إلى المدرسة في بعض الأحيان، وكانت تزورني. ولم يكن أحد يعرف بمكان وجودي لفترة طويلة، إلا نسيبة. كان حملاً صحياً من الناحية الجسدية، ولكوني رياضية فقد ساعدني ذلك كثيراً. لم أكن بحاجة لاستشارة طبيب، وعندما كنت أجري فحصاً للدم والبول والاختبارات الأخرى أو لأخذ درجة حرارتي، كنت أتصل بصديقة لي بواسطة نسيبة. لكن في ذلك الصباح، شعرت بشيء من الوهن، والتبست عليّ المواعيد ولم تأت نسيبة لرؤيتي».

«ماذا فعلت في الصباح الذي رأيتك فيه؟».

«لقد رحتِ تنادين وتنادين وجعلتني أشعر بالقلق. لذلك غادرت في سيارة أجرة كانت تنتظرني، وعدت إلى حيث أمكث».

«فهمت»، قالت دنيا.

«لكن بما أن زمرة دمي هي نفس زمرة دم نسيبة النادرة، فربما قلت إني أدين بحياتي لها». عندما تركتك في العيادة، أخذت التاكسي مباشرة إلى عيادة كنت أرتادها، وقد قبلني الطبيب. إن ولادة طفل في مثل هذه الظروف عار شنيع، لكن نسيبة كانت بمثابة ملاك، فقد تبرعت بدمها، وحرصت على رعايتي. وهي التي اقترحت أن أتخلى لها عن الطفل. لذلك أسأل نفسي ماذا يمكن للمرء أن يقول لك؟ «شكراً جزيلاً» «الحمد لله على السلامة»؟ أو أن «التجربة جديرة بذلك» رداً على قولك «إني سعيدة بنجاتك»؟ أو «كيف يمكنني أن أخبرك وأنا نفسي لا أعرف؟» على سؤالك «لماذا لم تقولي لي منذ البداية؟».

«تقولين إنه كانت هناك سيارة أجرة تنتظرك في يوم لم تكن فيه هناك سيارات أجرة تجوب شوارع مدينة مقديشو. كيف حدث ذلك؟».

«أرجوك لا تستعجلي في معرفة القصّة».

«آسفة»، قالت دنيا.

كان في نظرة فريدة كبرياء بأنها تجاوزت محنة ونجت منها، وقالت: «أنا من ذلك النوع من النساء اللاتي لا تنتفخ بطنها إلا بعد بلوغها الشهر الثامن من الحبل»، وأضافت: «لكنني لم أكن أرغب في المجازفة به، ولم أشأ أن تعرف ميسكي بأنني سأنجب الطفل. فالعلاقة بيننا متوترة كما ترين، بيني وبين ميسكي، بعد أن فكت خطوبتها من خطيبها، وهو شيء تلومني عليه، وهي مخطئة في ذلك. لذلك لم أُعلم أحداً إلا نسيبة، وكان الأوان قد تأخر للتخلص منه. إن فترات الحيض غير المنتظمة تخدع الشابّات اللواتي لا يستطعن تذكر إن كن قد تناولن حبوبهن أم لا. كانت فترات طمثي غير المنتظمة مشكلتي الرئيسية».

«ماذا فعلت بالضبط؟».

«ذات صباح حزمت حقائبي وذهبت، وتركت رسالة على الطاولة لكي تقرأها ميسكي عندما تعود من روما. كانت الرسالة القصيرة تقول إني هربت، لكن لا

داعي للقلق، ولا حاجة للذعر. كنت قد كتبت لها رسائل مماثلة من قبل عندما غادرت البلد، مرّة إلى نيروبي، ومرّة أخرى إلى دار السلام ـ وفي كلتا المرتين كنت مع قاسم، الذي كان يدفع تكاليف رحلتنا. وعندما حبلت، لم أرغب في أن يعرف. كنا نستمتع بعلاقتنا السرية. كانت كلّ لحظة فيها رائعة، لذلك لا يوجد داع للتأسف عليها. ربما كان سيطلب يدي لو عرف أنني كنت حبلى بطفله. لكنني قلت لا عندما أظهر اهتماماً بالزواج مني قبل أن يكون هناك أي دليل على وجود الطفل: لا، لا، لا».

«ما الذي جعلك تقرّرين بأن لا تتزوجي قاسم في المقام الأول؟».

«كان الفرق في العمر أحد الأسباب الرئيسية، كما أظن. تصوري عندما يصبح في السبعين من عمره، سأكون أنا في عمرك، إني لا أزال شابة، وأكون على استعداد لزواج آخر، أقع في الحبّ، أتعلّم قيادة السيارة، أو السباحة. لا مجال لذلك»، قلت.

«أين بدأ كلّ شيء؟».

«في بيتك».

«متى؟» إذا كان من المفروض أن تشعر دنيا بالذنب، لكنها لم تشعر به. ابتسمت فريدة متذكرة، وقالت: «جئت لأسلمك طرداً من أخيك الموجود في روما. لم تكن نسيبة هناك في ذلك اليوم، لم يكن هناك أحد غيرك. وصل قاسم، احتسينا الشاي، نحن الثلاثة. ثم غادر، وتوقف قريباً من دكان أو ـ كومار، وراح ينتظر. عرفت أنه ينتظرني لأن النساء وحدهن يعرفن مثل هذه الأمور، لذلك غادرت وراءه أيضاً، بسرعة بعض الشيء، ورفضت البقاء حتى عادت نسيبة إلى البيت. كنت متلهفة للمغامرة. لقد فض شاب في عمري بكارتي، وكنت أتوق لأن أجرّب ذلك مع رجل مسن لمجرد التسلية. أخذني قاسم إلى البيت. كانت ميسكي مسافرة وبقينا وحدنا فترة طويلة من تلك الليلة. هكذا بدأ كل شيء».

«ألم تتخذي أي احتياطات؟».

«كان هو يفعل ذلك».

«إذن كيف حدث ذلك؟».

«بسببي».

«كيف؟».

«دعينا لا نتحدث عن ذلك الآن».

«هل أخبرته أنك كنت حبلى بطفله؟».

«نسيبة أخبرته بذلك».

«وماذا قال؟».

«أوضح أنه مستعد لدفع تكاليف إجهاض الطفل إذا كنت أريد أن أتخلّص منه. والأكثر من ذلك، قال إنه مستعد ليتزوجني إن كنت أرغب في ذلك. ونقلت له بواسطة نسيبة أنه ليس من شأنه ما أفعله بنفسي أو بالجنين. وقلت إني ارتكبت خطأ، وسأدفع ثمنه».

«لكن لماذا؟».

«ربما لأنني بدأت أكّفر عن الألم الذي سببته لميسكي».

«لا معنى لهذا».

«القليل في الحياة له معنى»، قالت فريدة، «ألا توجد بضع آيات قرآنية تقول إن قدر المرء هو الذي يقوده وإن المرء يتجه إلى حيث يقرر قدره أن يأخذه؟ بمعنى آخر، هذا هو قدري وله ترتيبه ومنطقه»، توقّفت لتكفكف دموعاً بدأت تترقرق في عينيها.

«هيا، هيا»، قالت دنيا، وربتت برفق على رأس فريدة، «لم يكن الطفل مصدر إزعاج لنا ـ بل مصدر سرور في الواقع». أوقفت نفسها في الوقت المناسب عن إخبارها ما قاله مختلف الناس عن اللقيط: كيف أن ماير اعتبره

بمثابة محفّز؛ وكيف أنها اعتبرته هي وبوساسو مجازاً. «كيف عرفت ميسكي بكلّ ذلك؟» سألت دنيا.

«كان قاسم هو الذي تقدم إليها، عارضاً عليّ أن أتزوجه. هكذا عرفت للمرة الأولى بحبلي، وسبّب ذلك شيئاً من الاضطراب. كان هناك رعب حقيقي، واضطرت نسيبة لأن تحضر ميسكي إلى المكان الذي أختبئ فيه. لن تصدقي ذلك، لكن ذلك حدث قبل أسبوع من رؤيتك لي في العيادة. لا أزال أحمل الورقة المسجل عليها الرقم سبعة عشر، التي سأحتفظ بها كتذكار، لكي أتذكر كلّ ما حدث لنا».

«لكن لماذا لم تأتي وتخبريني بكلّ شيء؟».

«لم أكن أعرف تماماً ماذا يمكن أن تكون رد فعلك يا دنيا»، قالت فريدة بصراحة، «كان الوقت قد تأخّر كثيراً لعمل شيء، وبما أنني لم أخبرك بالأمر منذ البداية فقد رأيت أنه من الأفضل أن تبقي بعيدة عن الأمر».

«ماذا تظنين أنني كنت سأفعل لو أخبرتني؟».

عتّمت فريدة عينيها البراقتين، وقالت: «لو عرفت لما كنا نجلس هنا، نتكلم بهذه الطريقة».

لاذتا بالصمت لبضع دقائق، ثم انضمت إليهما نسيبة.

تبادلت الفتاتان الحديث لفترة عن صديقاتهما. وعندما تهيأت دنيا للمغادرة مع بوساسو، تذكّرت فريدة أن ميسكي أعطتها مفاتيح شقّة وسط المدينة، وأصبح بإمكان دنيا أن تنتقل إليها عندما تشاء.

ترك بوساسو ودنيا نسيبة وفريدة مستلقيتين بجانب البركة، في الغسق الذي بدأ يهبط، تتحدثان وتدخنان معاً. شعرت دنيا بالتعب الشديد، بعد أن استنفذت السباحة الكثير من طاقتها، بالإضافة إلى الاستماع إلى قصّة فريدة التي استنزفت من طاقتها أيضاً.

بينما كان بوساسو يقود في طريق غير مزدحم لا توجد فيه حفر، أعطى بوساسو دنيا صحيفة مطوية بأناقة بدا أنها لم تُقرأ، وقال لها: «يوجد في هذه الصحيفة مقالة طويلة بقلم طارق. أظن أنك تحبين أن تقرأيها».

أجفلت دنيا قليلاً، لأن صورة اللقيط الميت طافت في ذاكرتها لدى ذكر اسم طارق. لماذا بدأت تربط طارق باللقيط الميت؟

«هل المقالة جيدة؟»، سألت بوساسو.

أخذ يسوق بحذر لأن بعض الأطفال كانوا يلعبون كرة القدم في وسط الشارع. لم يقل شيئاً حتى وصلا أمام بيت دنيا، وعندها أجاب: «نعم، لقد وجدتها جيدة».

عندما نزلت من السيارة، قالت: «إني منهكة جداً ولا أستطيع أن أستضيف أحداً، لذلك هل تمانع في أن نلتقي غداً؟ عند الظهر؟».

«طبعاً لا».

بدأ أدبه الشديد يضغط على أعصابها المتوترة، لكنها كانت متعبة جداً، ولم تشأ أن تعلق على ذلك. وقالت: «أرجو أن نجد امرأتين أو ثلاث نساء لتنظيف شقّة المدينة التي يوجد مفتاحها معي الآن، لكي يقيم فيها أبشير عندما يصل».

«إنها فكرة رائعة»، قال بوساسو.

في تلك اللحظة بالذات، خطرت لها ملاحظة وقحة. أعطته قبلة، وقالت: «إذًا غداً بعد الظهر».

وشعرت بالسعادة لأنها ستتركه الآن.

«أحلام حلوة»، قال وهو يبتعد.

لم يعد ماتان وياري إلى البيت إلا بعد منتصف الليل بقليل. وشعرت دنيا بالرضى عندما استلقت على السرير، واستندت إلى عدد من الوسادات، وبدأت تقرأ مقالة طارق. لم تكن لديها قدرة على عمل أي شيء آخر.

العطاء والتلقي:
مفهوم التبـرعات

بقلم طارق

إن العطاء غريزة إنسانية، ربما كانت أقدم غريزة، إذا كان علينا أن نصدق قصة آدم وحواء المتعلقة بالتفاحة الفردوسية التي قدمتها الحية إلى المرأة وتقاسمتها هذه مع الرجل. إننا نعطي بأمل أن نتلقى شيئاً مقابل ما قدمناه. إننا نعطي بأمل أن تعبّر هديتنا عن مودّتنا وشفقتنا تجاه المتلقي. إننا نعطي، كأفراد في مجموعة، لنثبت ولاءنا. إننا نعطي لنلبي متطلبات عقد، أو لتنفيذ حقوق والتزامات لهم علينا. إننا نعطي، وقد نعتبر أن هذا التصرف جزء من كفّارتنا. إننا نعطي لنشعر بأننا متفوقون على الذين يضعون أيديهم المتلقية تحت أيدينا. إننا نعطي لنفسد. نعطي لنهيمن. هناك مليون سبب يجعلنا نعطي، لكن ما يهمني هنا هو سبب واحد فقط وهو: التبرّعات التي تقدمها حكومات أمريكا الشمالية وأوروبا واليابان كمساعدات غذائية إلى الذين يتضورون جوعاً في أفريقيا، وسبب تقديم هذه المساعدات.

في الأسبوع الماضي، كان العالم يجري وأفريقيا تتضور جوعاً. في الأسبوع الماضي، حطّم ملايين الأشخاص أرقاماً قياسية في الألعاب الأولمبية، واجتاز عدّاء سوداني الكرة الأرضية بالطائرة ليشعل الشعلة في مدينة نيويورك. في الأسبوع الماضي، التقطت ملايين الكاميرات صوراً صورت مشاهد رجال

ونساء قطعن شريط النهاية ـ مشاهد كانت ذروة الأحداث الإعلامية. كانت الألعاب الرياضية لإحياء ذلك اليوم الحدث الرئيسي على مدار الساعة، وانشغل جميع المعلقين الإذاعيين وأفرقاء تصوير التلفزيون في أوروبا الغربية وأمريكا الشمالية واليابان وجنوب شرقي آسيا والهند. وفي النهاية، تحوّلت هذه الأحداث إلى مجرد مجموعة من الإحصائيات؛ كم عدد المشاركين؟ ما هي المبالغ التي تم جمعها لمساعدة الجائعين في أفريقيا؟ في الأسبوع الماضي، بينما كانت الشعوب غير الجائعة في العالم تجري للمشاركة في البرامج الإعلامية التلفزيونية التي لا تتوقف، كانت أفريقيا تنتظر في مكان قريب، بعيداً عن عدسات آلات التصوير، تحمل في يدها زبدية فارغة، تطلب الصدقة، راجية أن تأتي تبرّعات كبيرة بسخاء من الحكومات وشعوب العدائين. إن الطاسات النحاسية الفارغة توفر صوراً رائعة. كاميرات الفيديو تلتقط صوراً لها، من كلّ زاوية يمكن تخيلها. أن تجوع يعني أن تصبح مركزاً لاهتمام وسائل الإعلام في أيامنا هذه. سامحوني على تهكمي هذا، لكني أعتقد في الحقيقة أن مجاعة أفريقيا أصبحت قصة تستحق أن تكون العناوين البارزة في الصحف عندما يكون باستطاعتك أن تبيع صور وجوه خاوية من كلّ شيء، إلا من آلام المجاعة. فقد كان جوناثان ديمبليبي من تلفزيون هيئة الإذاعة البريطانية أول من استخدم قوّة الرسالة المتلفزة، وراح يتهجى بوضوح شديد وبأحرف كبيرة، كما هي سياسة الجفاف، الموضوع الفرعي الوحيد الذي يدور حول موضوع الجوع على نطاق ضخم: وهو العجز. لقد أنتج ديمبليبي برنامجاً حساساً عن المجاعة الأثيوبية في مطلع السبعينات من القرن العشرين. وقد استخدم في هذا الفيلم الوثائقي الذي مدته نصف ساعة، لقطات بديلة عن جموع جائعة، وصوراً عن سياسيي العالم الأقوياء وهم يحضرون الوليمة الباذخة التي أقامها الإمبراطور والتي تحتوي على كل ما لذ وطاب من الطعام مثل الكافيار. وبعد أشهر قليلة، أُطيح بالإمبراطور.

إن السؤال المطروح هو، كيف تستخدم الحكومات في أنحاء القارة القصة

ذاتها التي حدثت في العام ١٩٨٥ و١٩٨٦ لصالحهم ولم نر رؤوساً تتدحرج، ولم يطح بأي نظام طاغية؟ فبدون تقديم أي مساعدة، ودون وصول مساعدات غذائية إلى البلاد، أُطيح بالإمبراطور. هل نستطيع أن نستنتج أنه إذا توقّفت الحكومات الأجنبية عن مساعدة الطغاة الأفارقة بمنح الغذاء، فإن شعوبهم ستثور عليهم عندئذ؟

إن المجاعة ظاهرة يعرفها الأفريقي جيداً. ففي الصومال، هناك أناس يحملون أسماء السنوات التي حصل فيها جفاف. لقد شدّ الناس أحزمتهم، لكنهم لم يستجدوا. رفعوا رؤوسهم عالياً، ولم يسمحوا لأحد أن يذلهم، ولم يتركوا أحداً يعرف أن نارهم لم تكن موقدة في الليلة السابقة. إن الذين حصلوا على تفويض الشعب بالحكم يوحدهم الاعتقاد بأن من يستجدي لا يتمتع بكبرياء ذاتي، ومن يريد أن يكون محترماً، يجب أن يعمل بمسؤولية. لكننا نعرف أن الكثير من الرجال الذين يديرون دفّة القيادة في القارة لا يملكون تفويض الشعب بوجودهم في مناصبهم في المقام الأول، ولا يوجد لديهم كبرياء، أو حكمة أو تبصر في العواقب، ونعرف أيضاً أنه لا يمكن تنفيذ خططهم الخمسية العاجزة بدون ميزانيات يجب تكميلها بمصادر أجنبية. هل نحن إذًا ضد الحكمة الواردة في المثل القائل بأن الشعب تحكمه الحكومة التي يستحقها، وإننا نستحقّ أن يكون قادتنا شحادين؟

وفي الصومال تقليد معروف، وهو أن يمرر المرء قبعة ليجمع فيها التبرعات، يسمى قاران. فعندما تكون في حاجة ماسّة للمساعدة، فإنك تدعو أصدقاءك وأقاربك وأنسباءك إلى بيتك أو بيت شخص آخر، حيث، كما تقول العبارة، تُمدّ الحصيرة. لكن هناك بعض الشروط للقيام بذلك. يجب أن تكون الحاجة حقيقية، ويجب أن يكون الشخص الذي يريد أن تقدم له المساعدة فرداً محترماً في المجتمع، لا متسكعاً، ولا كسولاً لا يصلح لعمل شيء، وأن لا يكون مديناً ولا لصاً. وهنا، تكون السرية على درجة كبيرة من الأهمية. فلا يذكر الأشخاص المبالغ التي يتبرعون بها، ولا يعرف المتلقي من تبرع وما

مقدار ما تبرع به. فالمرء الذي يتلقى أي مبلغ يتلقاه من المجتمع كله ويكون ممتناً له. لذلك لا يُسمح لذلك الشخص بأن يطلب المزيد بعد ذلك، ليس في فترة قريبة في جميع الأحوال. وإذا كان ثمة درس يمكن تعلمه من كل هذا، فهو أن حالات الطوارئ تكون لمرة واحدة، ولا تصبح عذراً سنوياً لطلب المزيد. الآن، منذ كم سنة نمرر الطاسة الفارغة؟

إن المجاعات تجعل الناس يفيقون من سبات سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي. لقد رأينا كيف تخلص الناس في أثيوبيا من إمبراطورهم منذ أربعين سنة. تخلق التبرعات الغذائية الأجنبية منطقة عازلة بين القيادات الفاسدة وبين الجماهير الجائعة. كما تخرّب التبرعات الغذائية الأجنبية قدرة الأفريقيين على العيش بكرامة. كما يجعل ذلك أطفالهم يشعرون بأنهم في مرتبة أدنى، وتثبطهم من تناول أوراق الفاصولياء الذابلة، والذرة القليلة التغذية والرزّ المكسور. أرجو أن تعذروني لأني أقدم لكم كليشيات، واسمحوا لي أن أقتبس تصريحاً قاله هيوبرت همفري، الذي قال في سنة ١٩٥٧ «لقد سمعت. . . أن بعض الشعوب قد تعتمد علينا في الحصول على غذائها. أعرف أن هذه ليست أخبار جيدة. لكنها أنباء جيدة بالنسبة لي، لأن الناس يجب أن يأكلوا، قبل أن يفعلوا أيّ شيء. وإن كنتم تبحثون عن وسيلة تجعلون فيها الناس يتكلون عليكم، وأن يكونوا معتمدين عليكم، من حيث تعاونهم معكم، فإن الاعتماد على الغذاء سيكون شيئاً رائعاً». لقد صيغ ذلك بشكل جيد، ألا توافقون معي؟ الآن يمكننا أن نتابع.

أجرى مؤخراً زعيم من أفريقيا الشرقية، يُعرف بقناعاته الاشتراكية، مقابلة مع مجلة أفريقية يقع مقرّها في لندن، قال فيها إنه يجب على البلدان المتقدمة أن تمدّ يد المساعدة إلى أفريقيا. لكن لماذا يجب أن تفعل ذلك؟ ما الذي يجعله يعتقد أن للأفريقي حقًّا في ممتلكات الآخرين؟ هل يتبرع البلد الذي يتزعمه هو منذ ربع القرن الماضي بسخاء إلى الجائعين في إثيوبيا أو تشاد؟ يستطيع المرء

أن يفهم ذلك إذا كان رجل الدولة الأفريقي هذا، الذي يحظى باحترام كبير، قد صرح بذلك في سياق مجتمع قبلي أو مجتمع يعرف أفراده بعضهم ويعتبر تبادل الهدايا الإلزامية أو الطوعية جزءاً من نظام السلوك المعهود لديهم. لذلك يكون التبادل في هذا السياق مباشراً. إنك تعطي شيئاً لشخص ما؛ وبعد سنة، عندما تصبح محتاجاً، يصبح المتلقي اليوم مانحاً غداً. هل رجل الدولة المثقف يتنبأ بان أفريقيا ستتمكن من التبرع بالغذاء إلى أوروبا أو أمريكا الشمالية أو اليابان؟ ألا يدرك بقوله هذا أنه يحوّل الأفريقي إلى شخص تابع إلى الأبد؟ لكلّ منحة شخصية ـ شخصية مانحها. فعلى كلّ كيس تتبرّع به حكومة أجنبية إلى شعب جائع في أفريقيا، خصائص وعقلية المتبرع، واسم بلده. إن طعم قنطار القمح الذي تتبرّع به جمعية خيرية تقع في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية يختلف عن طعم القمح الذي تتبرع به إحدى الدول الأعضاء في المجموعة الأوروبية.

أرجو ألا تختلف معي، في أن المرء يحمل، كأساس، فكرة الصدقة اللاهوتية؛ والأخرى، العقيدة الفلسفية الدنيوية الاقتصادية بخلق جيل قادم من المستهلكين المحتملين من هذا النوع من الحنطة العالية الجودة. لديّ مشكلتان هنا.

الأولى، اعتقادي بأن الشخص في منطقة الجنوب الأمريكي يعرف أن الله لا يغفر عن الأعمال الخيرية المعلن عنها. إن المسافة مجرد إحساس دنيوي بالزهو والعجب. والثانية، هي أنه ليس من الضروري إخبار بيروقراطية الجماعة الأوروبية أن القمح الذي تتبرع به ما هو إلا عيّنة من القمح الذي تأمل في أن تبيعه عندما يصبح الأفريقيون الجائعون اليوم مشترين محتملين غداً. هناك أدبيات تكفي لملء رفوف من الكتب، دراسات استطلاعية كتبها علماء، عن سياسة المساعدات الغذائية الأمريكية إلى أوروبا واليابان وجنوب شرقي آسيا. أقترح بأن تسير على هذا الدرب المجرّب في شركة سوزان جورج أو تيريزا هايتر. لكن دعني أتناول عقلية المتلقي ونظم المعتقدات وماذا تعني الهبات له.

إن معظم الأفريقيين (هل يدفعون؟) أفراد عائلات كبيرة ممتدة، وهي بمثابة مؤسسات تماثل اتحادات العمال. وفي الغالب، تجد أن ثروات فرد واحد تدعم شبكة احتياجات هذه الوحدة الكبيرة. لذلك فإننا نقول، على الصعيد النفسي، إن الأفريقي معتاد على تبادل الهدايا. فالذين يملكون الكثير يعطون؛ والذين لا يملكون شيئاً ليقدموه، يتوقّعون أن يُعطوا. وفي المناطق الحضرية، هناك آلاف من الشباب والنساء الأقوياء الذين يتلقون «معونة البطالة» من أحد أفراد أسرتهم الممتدة، شخص لديه عمل. لذلك، عندما لا يستطيع الشخص الذي يكسب رزقه أن يلبي احتياجات الجميع؛ عندما لا تعطي الأرض محصولاً جيداً، لأن العمل المكرس لزراعتها غير كاف؛ وعندما تُزرع محاصيل نقدية لكسب العملة الصعبة، وتدفع العائدات لسداد خدمة الدين؛ وعندما تكون البلاد كلها مستعدة لأن تثور ضد القيادة الاستعمارية الجديدة الفاسدة: ترسو سفينة محملة بأرز مقدم من جمعيات خيرية، ربما لم يُطلب منها ذلك، في الميناء ـ رزّ ذو نوعية ممتازة، زرعته عضلات وعرق شخص آخر. إنك تعرف النتيجة. إن المجاعة (اعتذاراتي لبيرتولد بريتشت) ما هي إلا خدعة يمارسها الرجل القوي؛ ولا علاقة لها بالدورات الموسميّة أو شح الأمطار.

لو كان باستطاعتي أن أكون ساخراً، لقلت إن الأفريقي، الذي لا يعرف الشيء الكثير، يقبل ما يُعطى له مهما كان ذلك الشيء، لأن رفض ما يُقدم له يعتبر إهانة. وإذا لم يعطه ابن عمه أو أحد أفراد عائلته الممتدة، فإن الله أو واحدًا آخر سيعطيه. فالله، كما نعرفه، قد «منح» لنا، مع كلّ الأشياء الأسطورية، الحقيقة البديهية بعرقنا ونسبنا التي تصنّفنا بأننا كائنات أدنى منزلة، غير ناسين الحكمة الفلسفية الشرق أوسطية بأن الله (بالمعنى التوحيدي) هو التقدّم. نعم، إن الحقيقة هي أن آلهتنا وآلهة آبائنا وأجدادنا، كما قيل لنا، لا تعطيك شيئاً؛ وبما أنه لها بداية، فلها نهاية أيضاً.

ويرى الصوماليون أن تقاسم الغذاء يكمن في طبيعته. فإذا صادفت مجموعة من الناس يأكلون، فإنك تُدعى للانضمام إليهم. وهناك بالطبع الميل الوقائي لتفادي شرّ عيون الجياع الحسودة، لكن ليس هذا هو السبب الرئيسي الذي يجعلهم يدعونك للمشاركة في وجبة الطعام التي يتناولونها. إن ما يرتبط بمفهوم الطعام هو الاعتقاد المتعلق بالفترة القصيرة التي تميز جميع الأشياء القابلة للفساد. تزدحم شوارع مقديشو بالشحادين الحاملين طاسات فارغة، ويتنقلون من باب إلى باب، يستجدون بقايا الطعام. وقد تساءلت قبل أيام، هل من الممكن مقارنة فائض الغذاء الذي تتبرع به الحكومات والذي يقدم إلى الأفريقيين الجائعين، مع بقايا الطعام التي نقدمها إلى الشحادين الجائعين؟ أم أنني أبالغ بعض الشيء؟

عندما ييأس الصوماليون من شخص ما فإنهم يصفونه بأنه بخيل، وهم غالباً ما يقولون: «فلان لا يقدم لك حتى كأساً من الماء» لذلك عندما يسمعون قصصاً تقول إنهم يخزنون الزبدة في سراديب مجمدة تحت الأرض، وإنهم يحفظون الأطعمة تحت درجة التجمد، ويخزنون فوق الرفوف طبقات وطبقات من اللحوم، وصفوفاً من الأرز، ويحفظون مواد رفاهية أخرى في قبو ضخم أبرد من القطب الشمالي، عندها يقول الصوماليون: «هؤلاء الناس بخلاء». وعندما تضغط عليهم وتسألهم لماذا يجب أن يمنحوا كل شيء، يلجأون عندها إلى التعميم. اسألهم لماذا لا تقدم لهم روسيا مساعدات غذائية، عندها يصبحون متهكمين. فالفرق الوحيد بيننا وبين روسيا، مع أننا نأكل القمح الأمريكي، هو أننا نأكله باستجدائنا، وهم يأكلونه من احتياطاتهم بالعملة الأجنبية.

في الأسبوع الماضي، كان العالم يجري وأفريقيا تجوع. لا شكّ أن التلفزيون يخلق الشخصيات، فقد التقطت صور للمتبرعين وهم يبتسمون، بالتناوب مع مشاهد الهياكل العظمية الأثيوبية. وللمرة الأولى أعطيت لأفريقيا

فترة تغطية تلفزيونية رئيسية، لكن للأسف، تظل أفريقيا صامتة وجائعة. وفي رواية «قلب الظلام» لكونراد، في اللحظة الأولى والوحيدة التي يعطى فيها الأفريقي فرصة للتكلم، يرتكب فيها المسكين أخطاء نحوية. كان لذلك أهمية أدبية كبيرة. بعد مائة سنة، وفي فيلم اسمه «خارج أفريقيا»، أخرجه مخرج أمريكي، مستمد من كتاب كتبته امرأة دانمركية عاشت في أفريقيا وربما أحبّت الجزء الذي كانت تعيش فيه من القارة، لكنها لم تحبّ شعبها، وكان من بين الممثلين في هذا الفيلم أكثر فتيات الصومال شهرة، إيمان. إحزر ماذا: كان دورها غير ناطق. افهم من كلّ هذا ما تشاء؛ لكن اسأل نفسك، الآن ماذا؟ من يحصل على ماذا، ومن يعطي من؟

ألوذ بصمت مطبق: عندما العالم يجري وأفريقيا الجائعة تتضور جوعاً؛ عندما تطقطق الكاميرات والعداءون يلتقطون أنفاسهم، بعد أن تلامس صدوُرهم شريط نهاية مجد موقت. وعندما تلتفت الجماهير التي تشاهد التلفزيون وأطقم إنتاج أفلام الفيديو ويطلبون مني أن أقول شيئاً، ينتابني الخجل، وينعقد لساني. مثل طفل قدم له شخص راشد هدية، فيبتسم خجلاً ويأخذها، وتقول له أمّه: «قل شكراً لعمك»، وأنا أقول أيضاً، شكراً لكم واحداً واحداً، شكراً لكم جميعكم، يا أعمام سام وسنغ وآل محمد أيضاً.

وضعت دنيا الصحيفة جانباً، وشعرت بالسعادة لأنه لا تزال لدى طارق لحظات إبداعية. لكن لماذا نُشرت المقالة الآن؟ هل رفضت الرقابة نشرها عندما أرسلها، بعد الأسبوع الذي كان فيه العالم يجري بينما كانت أفريقيا تتضور جوعاً؟

ومع أنها كانت منهكة، لم تستطع أن تنام، وراحت تتأمل العالم المحيط بها متجهمة. كان العالم مفتاحاً. وبالتحديق في مفتاح شقّة المدينة، المفتاح الذي

جلبته فريدة من ميسكي، اعترى دنيا شعور بأنها كانت تنظر إلى انحناءات وطيات مستقبلها.

وفجأة، عرفت ما ستفعله. «غداً مساء»، قالت لنفسها، ستمضي دنيا الليلة في بيت بوساسو لتقدم جسدها هدية له. مساء الغد.

الجزء الرابع
دنيا تعطي

[16]

وفيه تزور دنيا، التي يغمرها مزاج من الانتشاء والبهجة، شقّة وسط المدينة حيث انهمكت ثلاث نساء في تنظيفها؛ وفي هذه الحالة من الانتشاء تقترح على بوساسو أن تمضي الليلة في بيته

يُفتح المشهد في الظلام، ثم يتجه الضوء نحو امرأة تقف عند نهر، وبينما تتهيأ للسباحة، يتناهى إليها صوت رجل مجهول يقول لها: «اللثة إلى اللثة، التراب إلى الماء، النار إلى الأرض، وأنت في هذه الحالة الرائعة من السعادة حيث السبعة تأتي قبل الثمانية، والمهد قبل الرضيع، والسرير قبل الخاتم».

تنثر الماء كيفما اتفق، وتعوم المرأة مبتعدة، وينطفئ الضوء: نهاية سلسلة الحلم. وبعد ذلك بقليل، تحترق لمبة في غرفة دنيا ونسيبة.

بعد تناولهم طعام الفطور، توجهت دنيا وأطفالها وبوساسو إلى شقّة وسط المدينة وأبدوا جميعهم إعجابهم بها. كانت قد اتفقت مع ثلاث نساء يعملن في المستشفى على تنظيف البيت: كنسه ومسحه، وإزالة الغبار عنه، وغسل الأرضيات والجدران. ولم يتوقف بوساسو عن الذهاب والإياب ليجلب سبّاكاً لإصلاح الحنفيات التي يتسرّب منها الماء والمراحيض التي لم يكن يتدفّق منها الماء جيداً، أو نجاراً لإصلاح باب الحديقة الذي يصدر صريراً والذي لا يغلق بالكامل، أو يجلب مادة كيميائية أمريكية لتسليك المغاسل والبلاليع.

اتفقوا على أن يقيم أبشير في شقّة وسط المدينة، لأنها أكثر رحابة وتقع في وسط المدينة. وأن يأتي إلى بيت دنيا لتناول الطعام، واتفق على أن تنتقل نسيبة

للإقامة معه لمساعدته على العيش والطهو إذا لزم الأمر. وفكّرت دنيا باستئجار سيارة خلال فترة مكوثه في مقديشو، ليتمكن من الذهاب بحرية حيثما شاء. وتكرّم ماتان بالتخلّي عن سريره ذي النوابض، وقال إنه لا يمانع في أن ينام على فرشة تُمَدُّ على أرضية الغرفة. وعرضت نسيبة أن تمضي اليوم بكامله في الشقّة مع النساء الثلاث، وراحت تعمل معهن يداً بيد، هذا إن لم يكن أكثر منهن. وكانت يداها وذراعاها موسّخة حتى المرفقين، واكتسى شعرها البني ذو الجدائل، المضفور بالخرز، بالغبار وخيطان العناكب.

ومع أنه كانت تعيق الأخريات في عملهن أكثر مما تساعدهن، غسلت ياري الصغيرة المغسلة الصغيرة في المطبخ، وهدرت كمية كبيرة من المنظّفات والوقت والماء. وأقسمت دنيا أن لا تتوقف عن العمل إلى أن تصبح غرفة النوم، التي تطل نوافذها الكبيرة على الحديقة، جاهزة وأن تتأكد من أن أبشير سيفضّلها على الغرفة الأخرى مقابل المدخل. في هذه الأثناء، استأجر بوساسو شاحنة صغيرة وجلب من بيت دنيا سرير ماتان ذي النوابض، وكرسيين، وطاولات. وبعد فترة قصيرة، أرسلته دنيا في مهمة أسهل: أن يصنع نسخة من مفاتيح الشقّة الجديدة.

«هل يمكنك أن تبقي لليلة واحدة إذا دعت الحاجة؟» سألت دنيا إحدى النساء المنظفات الثلاث.

«بالتأكيد».

«ألن يشعر أحد بالقلق عليك إذا لم تعودي إلى البيت؟».

قالت المرأة الثانية: «عندما تصبحين في عمرنا يا دنيا، ستكتشفين ماذا يعني أن لا يفتقدك الآخرون. وفي جميع الأحوال، فأنا أقيم في مكان ليس بعيداً من هنا ويمكنني أن أساعد على إعداد الطعام لزميلاتي أيضاً».

«يمكنني أن أنام في أي مكان، حتى على الأرضية العارية»، قالت المنظفة الثالثة.

بعد أن عملن طوال تسع ساعات، عادت دنيا وفريقها إلى شقّتها القديمة، تاركة الشقّة الجديدة في أيدي النساء المنظفات الأمينة. كان قد اقترب المساء: أعدوا الشاي وشربوه، واستحمت دنيا، وارتدت ثوباً منزلياً واستراحت. وذهب بوساسو إلى بيته ليستحم، ثم ليعود إلى بيت دنيا كما اتفقا. كان متوتراً، قلقاً، لكنه كان رقيق البال وكأنه أصبح أصغر سناً. كان متوهجاً في الجوّ السعيد الذي أشاعه تلهف أحدهما للآخر.

عندما استدارا، تسلل الطفلان كلاهما من دون أن يحدثا جلبة، مثل مراهقين شقيين. كانت دنيا تمسك مفاتيح السيارة بيدها وقالت: «سأقود أنا السيارة».

قادها القمر الذي لم يتجاوز عمره تسعة أيام إلى بيت بوساسو.

كانت السماء رحبة تتناثر النجوم في أرجائها. وكانت السيارة تتوقّف فجأة بين الحين والآخر، لكن ذلك لم يثر قلق أي منهما، ولم يفعلا شيئاً سوى أن يضحكا. وكانت دنيا تشغّل المحرّك ثانية بإصرار كلما توقفت السيارة، وكانا يتصرّفان وكأنهما يملكان وقت العالم كله لقطع المسافة التي تفصل بين بيت كل منهما.

وتساءل: لكن ألن يفتقدها أحد؟ أم أنها أخبرت نسيبة بالمكان الذي ستمضي فيه الليلة؟ لكن التوأمين كانا في غاية الحماسة لاستقبال الخال أبشير، لذلك لم يفكرا بغياب أمهما للحظة واحدة.

ضغطت دنيا قدمها على دواسة الدبرياج، ثم على المكابح ثم على دواسة السرعة فسارت السيارة بسهولة، ولو بقلق، نحو بيت بوساسو، وكأنها تعتمد كلياً على غريزتها في العودة إلى البيت. ابتسمت عينا دنيا ببهجة التوقع. أسند بوساسو ظهره إلى المقعد، يحسدها على هدوئها. أبقى يديه ملتصقتين بجسمه لأنه يعرف أنها لا تحب أن يلمسها وهي تقود.

قال: «أحبّك».

لا شيء يوحي بأنها سمعت ما قاله.

كرّر الكلمات لنفسه: ثم لامس أحدهما الآخر.

كانت الطرق خاوية تقريباً من السيارات، وكانا يقودان السيارة في منطقة انقطع عنها التيار الكهربائي. لذلك، خرج الناس من بيوتهم إلى الشوارع حيث كان الهواء منعشاً أكثر، وحوّلوا إزعاج انقطاع الكهرباء لصالحهم، وأخذوا يتمشون تحت ضوء القمر، أو يقفون في جماعات، يتبادلون أطراف الحديث. وفي مكان ما، كان يقف في منتصف تقاطع للطرق جمع من الرجال والنساء منهمكين في المناقشة والجدال. اتجهت دنيا نحوهم دون أن تبطئ، فجعلتهم يتراكضون هنا وهناك، وراحوا يشتمون ويوجهون جميع أنواع السباب والإهانات، ووصفها أحدهم بأنها امرأة مجنونة.

«أنا آسفة»، قالت، عندما أصبحت في حالة عقلية تمكّنها من التكلم.

في ذلك الوقت، جعلت السيارة في حالة استسلام تام، وكان من الواضح أنها كانت في حالة من الغبطة والخفة، مجنّحة مثل العنقاء. ضغطت على دواسة البنزين، وزادت سرعتها. فعلت ذلك لكي تقصّر المسافة الموجودة ليس بين جسمها وبوساسو، بل بينها وبين أخيها أبشير. إذ لم يكن يفصلهما عن بعضهما سوى ساعات قليلة، وكانت تأمل في أن تمضي هذه الساعات القليلة في نكران الذات، في بيت بوساسو وبرفقته. كانت تريد أن تبعد عن طريقها أسئلة عديدة عن بوساسو قبل أن تعانق أبشير.

وعادت ذاكرتها إلى تلك المنطقة الغامضة بين الأسطورة والدين، حيث حكّت العنقاء الشبيهة بالبراق كتفيها مع الجن وهي تتنصت عند أبواب الجنة حيث يقال إن الملائكة تقذف الجن بالشهب لتثنيها عن ذلك؛ حيث تشغّل النساء الضجرات الجن في علاقات حبّ غير شرعية؛ حيث وقف الجن بدافع من الشرّ عند باب رؤية زبير مثل حارس.

في هذه الليلة، شعرت دنيا برغبة دفينة في أن تسلّم نفسها له؛ وهي رغبة استغرقت أياماً حتى نضجت واكتملت. كانت سعيدة بأنه لم يكن عجولاً. كان

الوقت ملائماً، وزادته فجائية هذا القرار قوة، مثل رعد غير متوقّع في فصل أمطار منتظر. كانت تريد أن تعرف كيف يتصرف في السرير؛ هل يشخر؛ هل هو كثير الحركة في طرف السرير الذي ينام عليه؛ هل يكون معكر المزاج عندما يستيقظ في الصباح؟

من الطريقة التي تحرّك فيها، أحسّ بأنها ترغب في أن تقول شيئاً.

«نعم؟».

«أمامنا متسع من الوقت لنتكلم»، سمعته يقول، ومع ذلك فقد بدا أنه شديد القلق، يكاد يكون شاحباً، وقد تلاشى الدم منه. لمست يده التي كانت باردة، ميّتة.

قالت: «قلها إذا لم تكن تستطيع الانتظار حتى نصل إلى بيتك».

تردّد. «إنها مجرد. . .» لكنّه لم يتمالك الشجاعة لينهي ما كان ينوي أن يقوله.

أبطأت سرعتها. عليه أن يدلّها على البيت بدءاً من هذه النقطة. لكنه كان يقول لها أن تنعطف يساراً عندما كان يريد أن يقول يميناً. قالت في قرارة نفسها إنه يمتلك إحساساً فظيعاً بالاتجاهات، وعزت ذلك لأنه كان يعيش في مدينة مليئة بالإشارات حيث يعتمد المرء على الخرائط ولا يعتمد على حاسته الفطرية في الاتجاهات. لم تفهم عما كان يتحدّث، لكنها تركته يتكلّم بدون توقّف، لأن ذلك جعله يشعر بأنه في حال أفضل، مخففاً من حدة توتره كثيراً. لكن ماذا يريد أن يقول تماماً؟

لا يمكن أن تفاجأ امرأة ربّت ثلاثة أطفال بسهولة؛ كان بإمكانها أن ترى بسهولة القلق على وجوه أطفالها، تعرف ماذا يريدون قبل أن يتكلموا بفترة طويلة. ولما كانت ممرضة، فقد كانت تنصت إلى عدد كبير من الأسئلة السخيفة من أناس يفترض أنهم أذكياء، لكنهم لكونهم مرضى، فقد فقدوا القدرة على استخدام رؤوسهم بحكمة.

سألها: «هل تعرفين كم سيمكث أبشير في مقديشو؟».

فأجابت: «لا أعرف».

إنه رجل قلق، قالت لنفسها. رجل يأكل قلبه، كثير التساؤل، لا يثق بنفسه كثيراً. لعله من ذلك النوع من الرجال الذين ينهضون في الفجر قلقين إن كانوا سيتمكنون من الإيفاء بمواعيدهم في منتصف النهار.

عندما وصلا عند باب بيته كانت تغمرها السعادة. ضغطت على المكابح أمام البيت. كانت الأنوار في الطابق العلوي مضاءة، ورأت شرفة متهالكة بحاجة ماسة للإصلاح. هل سقطت يسور وطفلها من تلك الشرفة ولقيا حتفهما؟ نزلت دنيا من السيارة والمحرّك لا يزال يشتغل، خرجت من السيارة، وقالت: «أدخلها أنت إلى البيت».

قادها حارس ليلي، من «شعب النهر» يحمل مصباحاً، ودلّها على البوابة الجانبية الصغيرة التي يدخل منها المشاة إلى بيت بوساسو. لكنه عندما أوقف سيارته في المكان المخصص لها وانضم إليها، وما إن أمسك يدها وقادها إلى الداخل، حتى انقطع التيار الكهربائي مما جعلها تجفل. أضاء مصباح الحارس الليلي الضعيف نوراً يكفيهما لرؤية درج الباب الرئيسي.

قال: «عندي مولّد كهرباء وكمية كافية من المازوت لتشغيله»، وأضاف: «إذا كانت الكهرباء مقطوعة في المنطقة كلها، فلماذا لا تكون هنا؟».

قالت: «صحيح».

لما دلفت دنيا من الباب الذي فتحه لها، رأت ظلّها يقسم ضوء القمر المتسرب إلى المدخل إلى نصفين. داست فوق ذيل ظلّها، وكأنه ممسحة أرجل وضعت خصيصاً لتمسح بها حذاءها. وعندما اجتازت مسافة أكبر، شعرت بأن شيئاً يخلو من الروح يسود البيت. اتجهت إلى الأمام مباشرة، لكنها وقفت بعيداً عن طريق بوساسو، متخيّلة أنه يريد أن يبحث عن علبة كبريت أو شموع أو أنه يريد أن يفتح الستائر أو النوافذ. لكنها سمعت بعد

لحظة صوت النوافذ الواسعة تُفتح وتصدر صوت خربشة، وسمعته يقول: «يوجد هنا كرسي ذو مسند. أرجوك تعالي واجلسي عليه».

فقالت: «في الحال».

«أم هل تفضّلين أن نجلس في العتمة في ضوء القمر؟».

التقيا في منتصف الطريق وتعانقا. كانت الليلة رقيقة كالشاش، ووجدت صعوبة في اختراق الغشاء الرمادي الذي يغلفها. وجّهها القمر نحوه، حيث شغل فسحة من المكان، وظلت الغيوم في الخلف، مثل جمهور يتصرف جيداً، مانحاً الفضاء والضوء المسلّط على الممثل الرئيسي، المناسبة التي توّجتها. لقد أحبّت الصمت، أحبّت شبه العتمة، أحبّت كلاهما وهما واقفان على أقدامهما، صدراً لصدر، لا أحد يفوه بشيء. ثم لم تعد ترى القمر. هل ذهب؟ أخذت تعد إلى ثلاثة عشر، وكأنه منارة يمكن حساب توقيت وميضها. ثم بدأ العالم الخارجي يتدخّل في هدوئها وسلامها الداخلي.

نادى الحارس الليلي اسم بوساسو.

«هل أجيب؟» قال هامساً.

تركت يده، وقالت: «لقد فعلت للتو».

كانت أنفاسه مشحونة بالتوتّر، مثل حنجرة سحلية خائفة.

بعد أن انفصل أحدهما عن الآخر، ألقى كلّ منهما ظلاً منفصلاً. كان ظله أقصر من ظلها. كان من الواضح أنه منزعج، لكنه لم يشأ أن يصرخ في الحارس الليلي، المسكين. كان غاضباً من نفسه. كان صوته يحمل عواطف مختلطة عديدة عندما قال: «ماذا تريد؟».

وقف الحارس الليلي بجانب الباب الذي فتحه بوساسو. كان يسمع لكنه لا يُرى، سلّم رسالته: «وابيري، أخت زوجتك، جاءت إلى هنا عدة مرات».

شعر بوساسو بالرغبة في تصحيح ما قاله هذا الحارس الليلي الأحمق،

ويذكّره أن وابيري هي أخت زوجته السابقة. لكنه لم يذكر ذلك، احتراماً لدنيا.

«ماذا كانت تريد، هل أخبرتك؟».

«لم تقل شيئاً سوى أنها تريد أن تراك بسرعة».

«هل قالت ماذا تريد؟».

«وكان ذلك الرجل معها».

«أي رجل؟».

كان الحارس الليلي يتكلم بلهجة بيدوان الصومالية، وكان صوته يؤذي بوساسو. كان من الممكن أن يفقد أعصابه لولا اقتراب دنيا منه التي أخذت يده وقبّلتها.

سأله: «هل تعرف اسم الرجل الذي جاء مع وابيري؟».

فقال الحارس الليلي: «صاحب السيارة التي تلمع أكثر من ضوء القمر».

وصف له بوساسو كاهين.

«إنه هو».

«متى قالا إنهما سيعودان؟».

«في وقت ما هذه الليلة».

عندما بدأ يتكلم ثانية، اكتسب صوت بوساسو نبرتين، تعودان إلى نمطين مختلفين من وجوده. فقد أعقب النصف الأول من كلامه توقف يكفي لمبادلة دنيا قبلتها. ثم قال: «إذا جاءت وابيري أو كاهين إلى هنا هذه الليلة... فلا تسمح لأي منهما بأن يزعجنا».

«وماذا لو سألا متى يمكنهما أن يرياك أو أين؟» سأله الحارس الليلي.

فقال بوساسو: «قل لهما إني سأذهب وأراهما بنفسي».

عندما أُغلق الباب وأصبحا في العتمة، أخذا ينصتان لوقع خطوات الحارس الليلي التي بدأت تبتعد وتتلاشى.

قالت: «إنك مؤدّب جداً، وهذا يجعلني أشعر بالخجل من نفسي، عندما أفكّر بحدة غضبي ومشاجراتي ومزاجي. هل ينجذب أحدنا للآخر لأننا مختلفان إلى هذه الدرجة؟».

فقال: «لدينا الكثير من الأشياء المشتركة».

قالت: «طبعاً، لكن لن يزعجني على الإطلاق إذا أظهرت غضبك بين الحين والآخر».

من دون أن ينبسا بكلمة أخرى، مشيا معاً، يمسك أحدهما يد الآخر، نحو النوافذ الكبيرة.

قال: «لديك مزاج متوحش، ألا تعرفين ذلك؟».

فقالت: «وتأدّبك الشديد لا يخفف من حدة الغضب بقدر ما يشكل تحدياً».

وهما يسيران، كانت عظام وركيهما تصطدم إحداهما بالأخرى، مثل اثنين يرقصان رقصة الأوراك.

أخيراً، توقّفا. كان هناك كرسي واحد ذو مسندين. عندما جلسا فيه، لمست أصابع دنيا شيئاً متصلباً، تبين لها أنه منظار. وبما أن حاستها بالاتجاهات ممتازة، لم تستغرق وقتاً طويلاً لكي تعرف أن الكرسي الذي يجلسان عليه هو باتجاه الغرب. هل هذا يعني أن بوساسو يحب مراقبة الطيور؟ لم يخطر ببالها أنه يحب التلصص؛ ومن هناك لكي يتلصص عليه؟

«أنا أحب مراقبة الطيور»، قال متطوعاً من دون أن تسأله. ثمّ قبّلها. كانت قبلة قوية ومفاجئة إلى درجة أن دنيا، في محاولة منها لكي لا تفقد توازنها، تمسّكت بكمّه. وقال، عندما استطاع، وقبل أن تتاح لها الفرصة للتكلم، «أحبّك».

أخذت يده في كلتا يديها وقبّلتها برقة.

ولأنها لم تقل شيئاً، أخذ أحدهما يقبّل الآخر، بسرعة هذه المرة.

قال: «سيزعجني إن كنت قد قلت أو فعلت شيئاً أزعجك».

فقالت: «أعرف».

جلس بجانبها في الكرسي ذي المسند، متمنياً أن يقول لها: «أحبّك»، أو شيئاً لطيفاً.

قالت: «كان طارق يقول إنني أشبه معظم الرجال، في أن التفاصيل تضجرني. وكان يقول إن الانجراف العامّ للأشياء يسحر طبيعتي البرّية، وعقلي المزاجي».

أزاحت الكتاب الملقى على الكرسي ذي المسندين. أصبح فضولياً، وتساءل ماذا كان يقرأ آخر مرة كان يجلس فيها هناك، ربما كان فجر يوم جافاه فيه النوم. من ملمسه عرف أنه الأخوة كارامازوف لدوستويفسكي.

قال: «أنا شخص يحبّ التفاصيل؛ إني أتمسك بها بشدة».

أجابته دنيا: «التفاصيل التي تتعلق بكيف يبتسم الشخص، ماذا يثير أعصابهم، كيف ينامون، أين ينامون، أي جانب من السرير يفضّلون: هذه هي التفاصيل التي تثير اهتمامي».

كان مضطرباً، ضيق الصدر، مثل رجل يقف على أرض خطرة. وقال: «هذا يتوقف على ما تقصدينه، بأن تعرفي الشخص جيداً».

«أين الحمّام الذي أستطيع أن أصل إليه بسهولة في هذه العتمة؟» سألته.

«يوجد حمّام في الطابق الأرضي. هل آخذك إليه؟».

ثم دغدغها. ضحكت. نهضت على قدميها وهي تضحك. قالت لنفسها إنه يثيرها مثل قطّة، تعتمد على حذرها السنوري، بعد أن آذاها كلب أكبر حجماً، وراحت تتلاعب بغريزة الكلب العدوانية، مترددة بعض الشيء. راحت أصابعه المغرية تصعد وتهبط فوق عمودها الفقري، الأصابع المفتوحة الحسّاسة مثل مخالب قطّة لعوبة، لكن غير مؤذية. وفجأة، أطبق إصبعان من أصابعه فوق إبزيم

حمالة صدرها، وقبل أن تتذكّر أن كلمة *أكان* تعني «الثدي»، راحا يخفقان بدفء الإثارة والحماسة. قبّل أحدهما الآخر. كان يتنفّس بصعوبة. كانت فتحتا أنفه تطلقان صفيراً مثل عجلة سيارة مثقوبة ويتسرب منها الهواء. لم تقل له: «لا تستعجل الأمر»، بل سألته، «أين الحمّام، الحمّام الذي في الطابق الأرضي؟».

دخل القمر، منيراً طريقهما، يريهما إلى أين يتجهان. كان يغمر منبسط الدرج ضوء القمر. في هذا الطابق توجد ثلاث غرف. انعطف يميناً فتبعته. فتح نافذة. فازداد سطوع القمر.

ثم قالت: «سأكون معك بعد دقيقة».

اقترب بوساسو من جسد دنيا وكأنه باب يريد أن يعرف أرقامه السرية قبل أن يتمكن من ولوجه. ربما كان أميراً من أمراء ألف ليلة وليلة. إنه من نسب متواضع لكنه يحسن التصرف. كان ثمة احتمال بأن لا يجيد الأداء، لكنه عندما أثبت لها أنه ساحر فقط، سمحت له بالدخول.

ثم شرّعت أبواب جسدها على نحو أوسع، واستلقت فوقه، العشيقة التي تتحكم بسرعة وتدفق نهر حبّهما المشترك. أراد أن يعرف إن كانت قد اتخذت الإجراءات الوقائية الضرورية. فقالت: «طبعاً»، موضحة بأنها لم تعد تريد مزيداً من الأطفال، «شكراً».

تتبع إيقاعات حركاتها المتناغمة، مركّزًا على ثنايا جسدها التي تشبه ثنايا وانبعاجات محفورة على درجات حجرية تفضي إلى باب كان قد استخدم كثيراً. بدا جسدها أكثر شباباً من جسده الرياضي. فقد كانت تستطيع أن تجلس نصف جاثمة ما دامت المضاجعة تتطلب ذلك؛ بينما شعر هو بألم في ظهره.

كان حبّه شيئاً رائعاً. كان ذلك واضحاً.

غيّرا وضعيتهما. فقد أصبح فوقها الآن، لكنه كان لا يزال يفكر، منهمكاً في نشاط عقلي، لأنه كان يريد أن يؤخّر وصوله إلى ذروة الرعشة.

«أين أنت؟» سألته مستثيرة.

تردّد، لم يفهم حقيقة ما تقصده. كانا لا يزالان في الظلام، وكان أحدهما يرى جسد الآخر، لا باللمس وحده، بل بواسطة نور القمر أيضاً. قال: «إنني أحلّق في السماء العاشرة».

«حيث يقبع الجن؟» سألته.

«الذين يتنصتون».

«إذًا فأنا هو الشهاب. راقبني وأنا أبلغ ذروة الرعشة، ضمني إليك».

ضمها إليه وهي تحلّق بعيداً، عابرة جميع الكواكب المعروفة وغير المعروفة في المجموعة السماوية من المتعة، خفيفة مثل عربة النبي المعروف، النبي الذي يطلق عليه البعض اسم *إلياس*، والبعض الآخر اسم *إيليا*، ويطلق عليه آخرون اسم *إدريس*، ويصفه آخرون بأنه ينحدر من سلالة *هارون*، أخي موسى؛ هذا النبي، صانع المعجزات، الأكثر تبجيلاً، الذي يعتقد المسلمون أنه *الخضر*.

قالت: «أليس كذلك؟»

وانفتح جسدها بشكل أوسع، ووجد بوساسو فيه عدداً أكبر من القصور، وأدرك أنه يمتلك عدداً من المفاتيح أكثر مما كان يتصور. تبادلا المواقع، لكن من دون أن ينفصلا، والتحم أحدهما بالآخر بفعل اتحادهما. كان مستمتعاً للغاية. كان ذلك جلياً لها.

جاء دورها لتفكّر بالأفكار التي راودتها: راحت تفكّر بالأجساد، عندما تسلم مسؤولية قيادة أوركسترا مضاجعتهما. أحسّت بالآثار التي أحدثها حزام بنطاله حول خصره، آثار جسدية بارزة مثل الشقوق التي ترتسم على بطن المرأة بعد عدة ولادات متتالية. كانت في جسمه ندوب كثيرة بالنسبة لرجل صومالي. هل كانت أمّه قد أحرقت بالكي كلّ شكوى لا يمكن تفسيرها، معتقداً فقط أن لتلك الجراحة الشافية أي معنى؟ وظلت تفكّر بأن رياضة الحبّ عظيمة، إذا حرص الاثنان على إطالتها، وكانا راضيين وسعيدين تماماً لأن يعيش كل منهما في

الحاضر، في ذات اللحظة التي يحدث فيها كلّ شيء. عندها يصبح الحبّ قدسياً.

انتابها شعور بالحرج لأنها كانت تفكّر بالخطيئة في ذات اللحظة التي قال فيها «أحبّك». إن الحبّ مفهوم عادي جدًّا لكي نربطه بالله؛ فقد يكون عطوفاً رحيماً، لكن التصرفات البشرية قد تكون جديرة بغضبه.

تملكتها هذه الشكوك الذاتية الغيبية، وسقطت نظرتها وراحت تتأرجح كما تسقط ورقة شجر إلى الأرض بحركة ملتوية مثل ثعبان يختبئ وراء شجيرة كثيفة الأغصان. فكّرت بآدم وحواء. فكّرت بحواء ورثت لحالها، التي لا يرد اسمها في القرآن، ولا حتى مرة واحدة.

لكنّها تذكرت أنه حتى في ما يسمّى الأشكال العلمانية من الثقافة مثل السينما الغربية، فإنك تجد مفهوم الخطيئة منتشراً بشدة. إذ لا يظهر الأزواج والزوجات عراة وهم يستمتعون بالجنس، بينما يظهر الزناة في لقطات طويلة، وينطبق الشيء ذاته على الرواية. لماذا؟

ثم توقفت عن التفكير، لأن حرارة جسده اشتدت فجأة وأحسا كلاهما بالدوار نتيجة الإثارة، ينادي أحدهما اسم الآخر. بصخب، بفرح، حتى بلغا رعشة الجماع.

لم ينبس أحدهما بكلمة واحدة لبرهة طويلة. استلقى إلى جانبها، منكباً على وجهه.

عاد التيار الكهربائي. لكن ضوء المطبخ وحده كان مناراً. رأت دنيا ذلك بأنه شيء رمزي، بسبب الحقائق المعروفة عن ماضي بوساسو: فقد كانت أمّه طباخة ممتازة تؤجر خدماتها في الطهو وتتلقى مقابل ذلك طعاماً لا نقوداً. وفي الأعراف الصومالية، يعد المطبخ شأناً نسائياً، ولا يُشجع الرجال على أن يضعوا أقدامهم فيه.

نهضت، متلمسة طريقها، ووجدت منشفة على الرفّ عند المدخل. ثم

استلقت إلى جانبه، بعد أن مدّت المنشفة تحتها، تساءلت إن كان من الممكن أن تكون ممارسة الجنس قد هدمت مودّة أحدهما تجاه الآخر؟ قالت له، وكانت ترجو أنه كان ينصت إليها: «هناك كثير من الرجال الأفريقيين لا يتزوجون امرأة إلا إذا كان لديها طفل. هل تعرف ذلك؟».

التفت لينظر إليها، ثم استلقى على ظهره، صامتاً.

انتصبت جالسة. كانت ابتسامتها كبيرة الآن، تغطي كلّ مساحة وجهها. لامست يدها شعرها. تذكّرت أن غطاء رأسها كان يسحل أحياناً وهما يمارسان الحب. رأته الآن على الأرض أسفل السرير، إلى جانب ثيابها الداخلية الرقيقة. مبتسمة، حاولت أن تحكّ بيدها الحرة بقعة في ظهرها. حاول أن يساعدها.

سألته: «كيف تنام؟».

«كيف أو أين؟» قال، بعد أن ألقى نظرة متسائلة.

«إن نومي قليل، وهي ميزة عظيمة عندما أعمل في نوبة ليلية في قسم الولادة، مع أني أعرف أن ذلك مزعج في أماكن أخرى»، ثم أضافت، «كان زبير يحدث كابوساً من الضوضاء؛ وكان طارق يشخر بقوة، ومع ذلك لم يكن أحد منهما يكذبني عندما كنت أوقظه. لذلك كيف تنام؟».

«عادة أنام نوماً عميقاً».

سألته: «ألا تتقلب في نومك في لجة اضطراب ذكريات النهار قبل أن تنام؟».

فقال: «بين الحين والآخر، نعم».

«جيد».

قال: «هناك خمس غرف احتياطية، وفيها أسرّة، لو تقلبت كثيراً وحولت نومك إلى كابوس مستحيل».

«لا أظن أنك سترسلني لأنام في واحد منها؟» قالت تستفزه.

«لا، طبعاً لا».

وهكذا، مثل رجل يتناول حبّة ذات مذاق مرّ يضعها وراء لسانه قبل أن يدفع الماء وراءها، لم تعد قسمات بوساسو متألّمة كما لو كان في ترقّب. أحسّ بجسدها يتحرك بحركات مدلّكة بطيئة متأنية، تدلّك جسد رياضي.

«هل تريدني أن أطوف بك في أرجاء البيت؟» سألها.

«ما الفكرة التي تريد أن تصل إليها؟».

«ألا تريدين أن تعيشي فيه إذا تزوجنا؟».

«بالتأكيد لا أريد أن أعيش هنا»، قالت دنيا.

«إذًا هل سيكون هناك مكان لي في شقّتك الجديدة؟».

«إنك تدفع الأمور بسرعة»، قالت، ثم ذهبت إلى الحمّام.

لم يتمكن أحد منهما أن ينام. وبدأت تفكر بكلّ ما جرى بينهما، وأفضى ذلك إلى مجموعة سعيدة من الأحداث؛ أما هو، فقد فكّر بهذه الأمسية بأنها ليلة زفافهما. لم يتمكن من البقاء صامتاً، قال: «لا أستطيع أن أنام لأني أخشى الشخير».

أعطته قبلة.

ظهرت ابتسامة متململة مثل عصفور يقف على رأس أنفه، فحكّه، ثم لامست الابتسامة خديه، الخد الأيسر أولاً، ثم الخد الأيمن. لوهلة، لم تكن دنيا متأكدة إلى أين ستنتشر في المرة القادمة. هل ستحط على جبهته، وتصقل التجاعيد؟ في النهاية، أنارت الابتسامة عينيه ونظر جانباً.

«أتعرفين ماذا سأفعل؟» واعتدل في جلسته.

«ماذا؟» قالت.

«سأبيع هذا البيت».

«هل ننام؟» قالت، «لدينا يوم طويل غداً».

«أتعرفين ماذا سأفعل بعد أن أبيعه؟».

ابتسمت ابتسامة عريضة. «لكن لماذا ستبيعه في المقام الأول؟».

«استمعي إليّ أرجوك».

«هل يمكننا أن ننام؟» قالت، «سيكون غداً يوماً طويلاً: سيأتي أبشير ويجب أن نذهب إلى الشقّة لنتهيأ لقدومه».

«إني في غاية الاستثارة ولا أستطيع النوم».

بدا بائساً. لم يكن من المجدي أن تقول له أن يكون مبتهجاً.

كان متوتّراً جداً مثلها، لكنها كانت تستطيع أن تتمالك نفسها وتحتوي توتّرها. كانت امرأة تعرف كيف تحتوي جميع تناقضات الحياة دون أن تفقد عقلها. «تعال»، قالت، «تعال واستلقِ بجانبي».

مدّت ذراعها لكي يستخدمها كوسادة. ابتسمت ابتسامة رقيقة. راحت تستمع إليه وهو يردد اسمها المرة تلو الأخرى وكأن ذلك صلاة صباحية مقدّسة. قالت: «حدثني عن زاوادي».

«ماذا تريدين أن تعرفي؟».

«كيف كانت تبدو».

«إنها شخص رائع».

«لم أكن أظن أنك تستطيع أن تعيش مع شخص لا يتمتع بالطيبة»، قالت، «صفها لي».

«هل تريدينني أن أريك صورها؟» سألها.

أومأت له بأن يستلقي حيث كان مستلقياً من قبل، وقالت: «إني لا أثق بالكاميرات بقدر ما أثق بوصفك العاطفي عنها. فالشخص ليس مجرد جسم تظهره الصورة».

«هذا صحيح»، قال موافقاً.

شجّعته وقالت: «كيف تصفها إلى شخص لم يسبق له أن قابلها قط؟».

«إنها عيناها»، قال وكأنه تحت تأثير تنويم مغناطيسي.

«ماذا عنهما؟».

«إنهما خضراوان تقريباً».

«تقريباً؟».

«كانت زاوادي مثل قطة زنجبيل، كلّ عين فيها مختلفة قليلاً، فاليسرى خضراء داكنة، واليمنى تكاد تكون زرقاء. لكن يجب أن تقتربي منهما كثيراً لتلاحظي ذلك».

«ألم تكن أي عين منهما اصطناعية؟».

«لا».

«ما جنسية أبويها؟» سألت.

«كان أبواها أمريكيين من أصل أفريقي».

«ربما كان هناك تفسير ما في مكان ما في نسبها، في جيناتها»، قالت، وأحست أنه على وشك أن يغفو، «ففي مكان مثل الولايات المتحدة، حيث يأتي الجميع تقريباً من أماكن مختلفة، لا بد أن يكون هناك تفسير».

كانت عيناه مغمضتين، وتنفّسه مستوياً مثل شخص نائم.

«هل تظهر صورها التي تريدني أن أراها هذا الاختلاف في لون عينيها؟».

لم تسمع منه جواباً. كان يغط في النوم.

«كيف تظن ستكون رد فعلها إذا سمعتك أننا تزوجنا؟ هل تظن أن ذلك سيزعجها؟ أعني، هل هي من ذلك النوع من الأشخاص التي يمكن أن ترسل لنا برقية تهنئة؟».

عندما لم تسمع جواباً، فصلت جسدها عن جسده. ثم أبرق شيء في رأسها، مثل أعمى يفتح غرفة بزغ فيها الفجر، مثل بيضة، لامعاً وخفيفاً.

كانت حزينة ولم يكن صاحياً ليسمع القرار الذي توصلت إليه.

[17]

وفيه تستيقظ دنيا في منزل بوساسو. ثم تأتي وابيري، أخت زوجته الراحلة الصغرى، وكذلك هيبو وكاهين

شابّة تعرف دنيا جيداً تتكلّم في الحلم عن كنز لا يعرف عنه أحد، مخبأ في قعر بئر ذات فوهة ضيقة. هل تريد دنيا أن تقفز إلى البئر وتأتي بالكنز؟ تفكر ملياً، ثم تستسلم في نهاية الأمر، وتغطس ورأسها تسبقها، بشجاعة، وبروح مليئة بالمغامرة لا تخشى الموت أو الغرق. بانتظارها، تجد دنيا بستاناً مقلمًا، في وسطه نبع ماء.

وفي مكان ما من البيت، كان المذياع يبث نشرة أخبار الصباح باللغة الإنكليزية. وكانت أصوات غريبة مختلفة تتغلغل في أحاسيس دنيا الناعسة، في حلقات متتابعة غريبة. كانت بعض الجلبة تصدر من المطبخ حيث خيّل إليها أن بوساسو يعدّ طعام الفطور، وبعضها يأتي من خارج البيت، وبعضها الآخر ينبعث من داخل رأسها. كانت منهكة إلى درجة أنها لم تكن تعرف ما هي هذه الموجات الغامضة التي دفعتها إلى اليابسة، ووضعتها على هذا الشاطئ الغريب. وقبل أن تتأمل الأشياء المحيطة بها، أخذت تستمع إلى أخبار الساعة السابعة:

«أُعلن في مؤتمر صحافي أن الحكومة الأمريكية ستقدم مساعدات إلى الصومال بقيمة ٣٠ مليون دولار لتغطية ثلاثة برامج: الأول بعنوان برنامج إعادة بناء وتأهيل المنطقة الشمالية الغربية الذي خصص له مبلغ ١٢ مليون دولار؛

والثاني (الذي خصص له نحو ٥,٥ ملايين دولار) للمساعدة على تحسين الأوضاع العامة لسكان المنطقة الذين عانوا من حرب أهلية؛ أما البرنامج الثالث فيشمل إعادة بناء جميع البنى التحتية التي دمرتها الحرب في المنطقة».

قالت في نفسها: لم تكن تلك حرباً أهلية، فقد وقعت مذبحة في المنطقة الشمالية راح ضحيتها مدنيون أبرياء، وقد أصمّ دنيا أزيز دبور مفاجئ. لم يكن ضجيجاً، أكثر من كونه صخب ألوان قبيحة. ألوان الستائر في الغرفة التي استيقظت فيها، والتي ضاجعها فيها بوساسو، تتضارب مع ألوان جدرانها، وألوان الجدران تتضارب مع لون السقف، ولون السقف مع الأبواب والنافذة. ولعله ليس من العدل أن تحكم على أذواق الآخرين. لكن من يتحمل المسؤولية: بوساسو أم يوسور؟ على من تلقي باللائمة؟ وما الذي جعلهما يختاران هذه الألوان؟ ولما كانت في مزاج رائق، فقد قررت أنه ربما تشاركت فيها أذواق مختلفة. لكن كيف يمكنه أن يستيقظ في غرفة كهذه صباح كلّ يوم؟ إذ تبدو الستارة وكأنها مصنوعة من البلاستيك، وملمسها كذلك؛ وكان ورق الجدران أخضر ناضراً، أصفر لامعاً، موشى بالأزهار، ومبهرجاً. هل ذلك لأن بوساسو رجل ولديه قدرة هائلة على تأجيل التعامل مع مشكلة منزلية إلى أن تأتي امرأة وتحلها له؟

لم تكن الأضواء منارة في الليلة الماضية. هل كانت ستبقى وتمارس الجنس وتنام هنا لو كانت قد رأت كلّ هذا القبح؟ ربما لا، ولعلها كانت ستقترح عليه أن يذهبا إلى شقّة المدينة. رفعت عينيها إلى الأعلى الآن، ورأت عنكبوتاً يغزل ألياف قصته الخرافية. تذكّرت دفء جسد بوساسو الذي كان يبث حرارة مثل مدفأة كهربائية.

كان نائماً على ظهره، واضعاً يده اليمنى على يده اليسرى، وكانت يداه مستندتين إلى صدره، وكأنه يصلي. كانت ابتسامة تزيّن شفتيه. لم يكن صوت

أنفاسه مسموعاً. كان جسده ممتداً باستقامة، ولم تكن هناك انحناءة في أي مكان. بالنسبة لمعشر النائمين، فهو رجل وسيم من الممتع مراقبته.

وتذكرت دنيا أن طارق كان يشغل جزءاً في الفراش أكثر مما كان مخصصاً له، وكان زبير ينام في وضعية رجل معذّب، مثل طفل جاءه الوسن وهو في وسط نحيبه المصحوب بالتشنج. أما ماتان فكان ينام ونصف فمه فاغراً؛ وذات يوم، رشت نسيبة مازحة قطرات من الماء في فمه الفاغر. هل كانت الفتاة المسكينة تعرف أن الناس في بعض مناطق الشرق الأوسط يصبون ماء بارداً في أفواه الموتى معتقدين أن ذلك يسهّل عليهم العبور إلى السماء؟ أما نسيبة، فكانت يدها اليمنى تبقى نصف مغلقة وهي نائمة، في وضعية شخص ينتظر أن يمسك شيئاً، بينما تقبض أصابع يدها اليسرى وكأنها تمسك كنزاً من كنوز الطفولة، قبضة ملمومة مثل فصّ من الثوم. أما ياري فكانت تنام بعد أن تخلع كلّ ثيابها، وتفرج ساقيها في وضعية تصفها نسيبة بأنها متمردة، وليست فاحشة.

سمعت وقع خطوات هادئة على الدرجات الحجرية. ثم ظهر رأس بوساسو عبر شق الباب.

«صباح الخير»، قال، وارتسمت على وجهه ابتسامة نضرة.

«صباح الخير».

«هل نمتِ جيداً؟» سألها، ويداه مستندتان إلى بطنها بينما انحنى بجسده كله ليقبّلها، وأضاف: «وهل حلمتِ أحلاماً جميلة؟».

«كنت منهكة تماماً»، كذبت.

جلس على حافة السرير وأخذ يدها في يده، وقال: «لقد أعددت فطوراً متنوعاً، لأني لا أعرف ماذا تحبين. أدركت أن هذا هو صباحنا الأول معاً».

قالت: «حقاً».

كانت كلماته مثل أزهار قُطفت حديثاً. كان قد استحم وحلق ذقنه، وبدت أسنانه أنصع بياضاً من قبل وهو يقول: «هل تريدين أن أحضر فطورك إلى هنا، أم تفضّلين أن نهبط إلى الطابق الأرضي ونتناوله معاً؟».

«كم الساعة؟» سألته.

«الثامنة تقريباً».

كان عالم النوم قد غمرها مثل ضباب. وقالت: «أريد أن أستحمّ أولاً».

ذهب ليجلب لها منشفة، وفتح الخزانة قرب النافذة. ثم رأت التناقض بين بساطته وصدقه وعقله المتواضع، وبين شعورها بالخيبة من أثاث الغرفة البلاستيك. كان شعوراً مريحاً أن تركّز نظرها عليه. كان يرتدي بنطالاً من الخاكي محلي الصنع، وقميصاً بلا ياقة من قطن مارايكان، وينتعل صندلاً. عاد إليها ترتسم على وجهه تقاطيع نادل مذعن.

وقال لها: «إذا أحببتِ، يمكنني أن أخرج وأنت تستحمين، وأذهب لزيارة شقّة وسط المدينة، وآخذ المفتاح من النساء المنظفات، وأدفع لهن أجرتهن، وأقوم بأعمال أخرى مثل أن أرسل برقية إلى نيويورك، إذا كان ذلك ممكناً، ثم أعود؟».

كانت جميع المهام الأخرى عادية بالنسبة لها، ولم تكن تعير اهتماماً إن قام بها هو أو أحد غيره. «لماذا سترسل برقية إلى نيويورك؟» أرادت أن تسأل في الحقيقة، «لمن سترسل برقية في نيويورك؟» وشكّت بأنها تعرف الجواب.

لم يكن يجيد الكذب، وقال: «لقد تذكّرت الآن أنه عيد ميلاد أحد الأصدقاء»، قال، لكنَّ عينيه كانتا زائغتين، مراوغتين.

فقالت: «لم لا تؤجّل ذهابك حتى نتناول الفطور؟».

«حسناً».

أخذت تجر المنشفة وراءها، لا يستر جسدها شيء. مشت من جانبه متجهة

إلى الحمّام. هل كانت تستفزه أم أنها كانت تكسر المفهوم الإسلامي «بالعورة» التي تكمن وظيفتها الأساسية في تنظيم الفوضى التي تخلقها الأنثى، والتي تفرض تحريماً أخلاقياً على جسد المرأة؟ ثم قالت: «أراك في الطابق الأرضي».

بعد نصف ساعة، انضمت إليه في الطابق الأرضي.

سألها: «هل تريدين شاياً؟ أم تفضّلين القهوة؟».

«شاي، من فضلك».

صبّ لها الشاي في كوب من الخزف.

«كم من السكّر؟».

«ملعقتان ونصف الملعقة من فضلك».

أحسّت دنيا بوجود يوسور الآن أكثر، وخاصة أنها ماتت ميتة مأسوية. تساءلت عما إذا كان مشط المرأة الذي أعاره لها بوساسو هو مشط يوسور، وعما إذا كان رفضها بالطواف في أرجاء البيت، لكي لا ترى الشرفة التي سقطت منها إلى حتفها. لكنه قرر أن يبيع البيت، أليس كذلك؟ وسيظن الناس أنها هي التي شجّعته على بيعه لبدء حياتهما من جديد، لكي لا تكون هناك ذكريات حزينة تربطه بيوسور.

سألها: «كيف تحبين عجتك؟».

قالت في نفسها إنه شخص كثير القلق.

«يمكنني أن أقدم لك شيئاً آخر إذا لم تحبيها».

«إنها رائعة، شكراً»، قالت.

أحسّ بأنها ليست في مزاج يجعلها تريد أن تتكلم.

«هل يمكنني أن أحصل غلى مزيد من السكّر، من فضلك؟ لسبب ما أشعر بالرغبة في تناول الأشياء الحلوة اليوم».

«لا أظن أنك تمانعين في التحدث أثناء الفطور، أليس كذلك؟ أم هل تفضّلين أن تظلي صامتة».

ابتسمت وقالت: «لا أمانع في أيهما، حقاً. إني أفكر فقط».

راحت تتطلع حولها وهما يتناولان الطعام، وتساءلت إن كان المطبخ الذي يجلسان فيه أوسع من غرفة النوم الرئيسية التي ناما فيها. فقد بدا لها المطبخ أكثر رحابة، ومرتباً بأناقة. فجدرانه مكسوة بالسيراميك، وفيه فرنان، واحد يعمل على الغاز، والآخر على الكهرباء، وثلاجتان ومجمّدة (فريزر). وخمنت دنيا أن الشمس تدخله أثناء النهار وتجثم عند قدميه اللتين دغدغتهما، مثل حيوان أليف مفضّل. وفي الليل، كان ضوء القمر يتسرب إليه، تسبقه ذرات تبرق وتلمع كالذهب. وعندما يعود التيار الكهربي، كان المطبخ أول مكان يعود إليه النور. كان بوساسو يمنح المطبخ مكانة مميزة في أفكاره. وبدا لها أنه هو الذي اختار ديكوره، وترك يوسور تفعل ما يحلو لها بما تبقى من البيت. ومن هنا جاءت الألوان القبيحة! غرفة النوم، والستائر وكلّ شيء.

قال: «هل يمكنني أن أشاطرك همومك يا دنيا؟».

قالت في نفسها إنها لم تعد ترتاح للأسماء التي يطلقها أحدهما على الآخر. فلم تكن سعيدة بمناداته بوساسو، وقد استقر ماكسمود ثقيلاً على لسانها، مثل اللبن الذي أصبح فاسداً. كانت تفضّل أن يختار اسماً مختصراً لها. راحت تفكر بكلّ هذا وهي تمضغ اللقيمات في فمها ثم ابتلعتها.

«لا توجد هموم يمكنني أن أشاركك إياها، شكراً»، أجابت.

«ماذا إذًا؟».

«كنت أفكّر بالمساحة والمطابخ».

بدا مهتمّاً بما قالته؛ أجفلت قليلاً، لأنها لم تكن تعرف كيف انزلق منها مفهوم طارق المفضّل عن «المكان». وقالت بحذر: «عن المطابخ».

«لقد اخترت وأشرفت على كلّ شيء هنا، بما في ذلك الديكور»، قال متباهياً.

«لماذا؟».

وضع سكينه وشوكته في شكل صليب، مما ذكّرها بقطعتي القش اللتين يضعهما الصوماليون عبر وعاء الحليب، لأن ذلك يثبّط عزيمة الجن عن تناوله، أو تسميمه. وقال: «في رأيي إن المطابخ ترتبط بأمّي، ولا يوجد أي انتقاص لأحد، لكن لأنه في عالم توجد فيه تعابير تحطّ من قدر المرء مثل كلمة «زنجي» و«امرأة» و«مواطن من الشعوب الأصلية»، فإني أعتقد أن امرأة مثل أمّي منحتني الفرصة لأرى الأمور على حقيقتها في العالم. وعندما عدت إلى بلدي، لم أجد وسيلة لإحياء ذكراها أكثر من أن أقيم مطبخاً بمثابة ضريح لها، وبهذه الفكرة في رأسي عملت شيئاً لأفراد عائلتها تقديراً لها ـ إذ إن أكسماد، سائق سيارة الأجرة وأبناء أخوالي الآخرين في الكومونة ينتمون إلى محور أسرتي، لا من طرف أبي. لكن هذا ليس هنا، ولا هناك».

«من المؤكد أنك لم تنشأ في بيت يقسم فيه البيت إلى أماكن منفصلة للجلوس والنوم والأكل والطهو؟ لذلك كيف يمكنك أن تفكر بأن المطبخ مثل ضريح؟».

بعد فترة صمت طويلة قال: «اتفق معك على أن الرجال خصّصوا لأنفسهم جميع الأماكن القوية المقدّسة، وحرموا النساء من الظهور أو الوجود في أماكن مثل المساجد أو في اجتماعات مجالس الرجال الذين يتخذون فيها قرارات تؤثّر على المجتمع بكامله، بمن فيهن النساء».

أومأت دنيا رأسها موافقة.

وأضاف بعد تمعن: «وأتّفق معك أيضاً بأن الأماكن المخصصة للنساء هي الأماكن الرمادية من الأسرّة والطعام وتربية الأطفال».

ثم دُقّ الجرس في المطبخ، بينما كانا لا يزالان يتناولان فطورهما في هدوء

تأملي. أجفل بوساسو. وعندما دقّ الجرس للمرّة الثانية، نظر إلى دنيا ليعرف رأيها. وعندما دقّ للمرّة الثالثة، رفع بصره ونظر إلى الجرس وكأنه شاشة فيديو عرضها عشرة ملليمترات تريه من يريد أن يدخل.

كان ثمة غضب في عينيه. لكن دنيا رغبت في أن يقرّر إن كان يريد أن يردّ على الجرس أم لا، من دون أن يورطها في شؤونه. من يستطيع أن يعرف من الذي يقرع الجرس؟ وابيري؟ ماير؟ كاهين؟ أحد أبناء أخوال بوساسو الكثيرين؟ أم نسيبة تحمل رسالة عاجلة لتفاجئ دنيا؟

لوى فمه متجهماً.

«أرجو أن تكون وابيري»، قال بنبرة رجل يستعد لمعركة.

انتظرا حتى دقّ الجرس للمرة الرابعة.

«هل سمعت أناساً ينادون اسمك ليلة البارحة؟» سألته.

«إني أنام نوماً عميقاً»، قال مذكّراً إياها.

دقّ الجرس للمرّة الرابعة. نهض، رجل يسرع لاختبار قوته إزاء أي شخص آخر. بينما كان يغادر بسرعة، سقط منديله على الأرض وانحنت دنيا لالتقاطه.

عادت إلى تناول العجة واحتساء الشاي، وأحست بالارتياح لأنها لم تضغط عليه في أي من الأمرين. فحياته شأن خاص به ويمكنه أن يفعل بها ما يشاء.

سمعت صرير البوابة الخارجية تُفتح ثم تُغلق، ودخلت امرأة بدأ صوتها الرقيق يشرح لبوساسو أنها جاءت عدّة مرات من قبل، لكنها لم تجده. وقالت: «أين كنت طوال هذا الوقت؟ حتى أنني ذهبت إلى بيت تلك المرأة هذا الصباح، أبحث عنك».

فقال بوساسو بصوت محايد: «لماذا لا تدخلين؟».

أنا هي *«تلك المرأة»*، قالت دنيا لنفسها، مبتسمة.

سار بوساسو أمام وابيري متجهين إلى المطبخ. تفحصت دنيا المرأة عندما

دخلت: كانت صغيرة الحجم، كبيرة الفم، وعريضة الوركين، تضع مكياجاً وأحمر شفاه كثيفاً، شعرها مسفوع، وترتدي ثوباً غالي الثمن له سحاب في المقدمة، مظهراً مساحة كافية من ثدييها الضخمين، مثل عرض فيلم أولي؛ وكانت تقبع وحمة داكنة في وادي ثدييها. كانت ذراعاها عاريتين، وإبطاها ممتلئين بالشعر، وتتمنطق بحزام عليه سلسال مدلى، وتضع قلادة من خرز الكهرمان، وفي معصميها أساور وفي كاحليها خلخالان أيضاً. كانت وابيري مستغرقة في التفكير ببوساسو إلى درجة أنها لم تر دنيا التي يمكن أن تكون جزءاً من أثاث المطبخ. ثم، مشيراً إلى دنيا، قال: «إنكما تعرفان بعضكما، أليس كذلك؟».

لم يصدر صوت من وابيري. فقط عينان مليئتان بالازدراء. وعندما بدت على وجهها تعابير يمكن تفسيرها، فكّرت دنيا بإمكانية أن تعود من المكان الذي أتت منه. لكنها كافحت مثل امرأة صيادة وقعت في الفخّ الذي نصبته.

طلب منها أن تجلس، لكن وابيري رفضت. ثم سألها: «هل ترغبين في تناول الفطور معنا؟».

«لا، شكراً»، قالت بشيء من العصبية.

هادئاً على نحو مهيب، أسند بوساسو يديه إلى وركيه مثل أستاذ رياضة يراقب تلاميذه وهم يتدرّبون على سلسلة من التمارين، أستاذ سعيد بالنتائج التي حققها، قال لوابيري: «إن كنت لا تريدين الجلوس معنا ولا تريدين أن تتناولي كوباً من الشاي أو كأساً من الماء، هل هناك شيء يمكنني أن أفعله لك؟».

تحدثت بصعوبة، وقالت: «لقد جئت لأراك، نعم».

«لماذا جئت لترينى؟» ونظر إلى دنيا، ليرى رد فعلها على ما يجري. كانت تضع يدها تحت ذقنها. لا شيء. وأضاف: «لا يوجد لدي الكثير من الوقت. لذلك تكلمي بسرعة أرجوك».

قالت وابيري شيئاً يكاد يكون همساً: «هل يمكنني أن أكلمك على انفراد؟».

«لا».

«لن آخذ منك أكثر من دقيقة»، وعدت.

«لا توجد لدي ولا دقيقة. بالإضافة إلى ذلك فإن دنيا ليست غريبة، ولا يوجد أي شيء لا أناقشه أمامها».

شبّهت دنيا بوساسو بأنه مثل طالب على خشبة المسرح يريد أن يري معلّمته ما يمكنه أن يفعله.

قالت وابيري: «أمّي مريضة».

«نعم؟» قال بوساسو وانتظر.

«وقد تلقينا للتو فواتير الكهرباء والماء وفواتير أخرى».

«لماذا تجلبين لي الفواتير؟ أَوَتُخبريني بأن أمّك مريضة؟».

«لأنك كنت تساعدنا في تسديد بعض الفواتير».

«هل كنت أساعدكم أم أنني كنت أسددها كلها، كلّ سنت من فواتيركم؟».

نظرت وابيري إلى دنيا للمرة الأولى، ثم إلى بوساسو، وقالت: «كنت تسددها جميعها. أنا آسفة»، وانحنى رأسها من تلقاء نفسه، وأضافت: «كنت دائماً كريماً معنا».

فقال: «هل تتذكرين كلماتي عندما زرت أمّك في آخر مرة، منذ ثلاثة أيام، لم يمض وقت طويل على ذلك».

تكلّمت بعد وهلة وبصعوبة وقالت: «لقد وصفت نفسك بأنك رجل مُستَغلّ، يُبتز اجتماعياً، يعطي ما لم يعد يريد أن يعطيه؛ لقد طلبت منا أن نكفّ عن تقديم فواتيرنا لك».

«وماذا طلبت منكِ أيضاً؟ أنتِ بشكل خاص؟».

بدت محرجة جداً.

«هيا تابعي»، قال بوساسو يحثّها.

«سألت كم تكلف مجوهراتي، كم ثمن الثوب والأحذية التي أنتعلها، وجميع الأشياء الغالية الأخرى لديّ، وذكّرتنا أنه مع أنك تتعب في كسب نقودك، فإنك لا تستطيع أن تدفع ثمن الثياب التي أرتديها، بل حتى لو كان بإمكانك ذلك، لما اشتريتها، بل تستخدم ما لديك بحكمة، وأنك لا تعتني كثيراً بالمظاهر الخارجية، ولا تشحد».

وقال: «وماذا اقترحت أيضاً؟».

«أن أبيع المجوهرات لديّ لأسدد ثمن الفواتير».

«الآن قولي لي لمن كانت هذه المجوهرات في المقام الأول؟».

«ليوسور».

«ومن هي يوسور؟».

«زوجتك السابقة».

«هل أعطتها كلها لك، جميع القطع؟».

«لقد استعرت بعضها، وأعطتني بعضها».

«ومنذ متى أعيلك أنت وأمّك وذوقك الغالي بعد وفاة يوسور؟».

«سنة ونصف السنة».

وكما لو كان مستشار ادّعاء يجري استجواباً قال: «هل يمكنك أن تذكّريني متى دار هذا الحديث، يا وابيري؟ هل تتذكّرين؟».

«قبل ثلاثة أيام».

أحسّت دنيا بأنها كادت تضيف كلمة «يا سيدي» في ردّها الأخير.

جلس بوساسو. لعله كان محامياً سعيداً يحتفل بنهاية قضية ناجحة، لكنها كانت صعبة. قد يظن أي شخص أنه قد لا يكون قادراً على مثل هذا المواجهة القاسية.

ساد صمت. نظرت وابيري إلى دنيا. هل كانت وابيري تناشدها لكي

تتدخّل؟ بدا وكأن شخصاً رابعاً قد انضم إليهم. كان التوتّر هو الشخص الرابع الموجود في المطبخ، الكلي الوجود، الذي لم يسمح لأحد بأن يجلس بهدوء. قالت دنيا في نفسها ليست هذه قصّة مكاشفة بين أنداد؛ ليست قصة دنيا وهي تواجه وحشيّة الأخ غير الشقيق؛ أو يوسور تدخل في شجار شامل مع أمّها. كان ذلك أشبه بحكومة أوروبية أو أمريكية مانحة تقول «كلاماً صريحاً» (العبارة ذات الأغراض المتعدّدة التي تظهر في البيانات الرسمية) مع ممثلي بلد أفريقي، يقال فيها لهم إنهم لم يكونوا متواضعين في عدد سيارات المرسيدس التي يشترونها والتبذير والبذخ الذي يعرضونه أمام بقية دول العالم.

سألته وابيري: «ألن تعطينا شيئاً؟ حتى في آخر مرّة هذه؟».

«سلمي لي على أمّك، هذا كلّ ما في الأمر».

عندما غادرت، خلّفت وابيري وراءها توتّراً خنق دنيا وبوساسو معاً، ومنعهما من التحدث، حتى بعد أن أغلقت البوابة الخارجية.

وبعد صمت طويل، قال: «لقد تأخر الوقت».

وبشرود سألته دنيا: «تأخر عن ماذا؟».

«يجب أن أذهب وأجلب المفاتيح من عاملات التنظيف، وأزور كومونة ابن خالي وأرتّب أن يأتي أكسماد في سيارة أجرته بعد ظهر اليوم لنذهب إلى المطار». توقّف برهة. كان متأكّداً من أنه نسي شيئاً.

لم تنبس بكلمة.

«هل ستأتين أم ستبقين؟».

قالت لنفسها إن توتّره سيرافقه؛ لذلك قالت: «سأنتظرك هنا، سأغسل الأطباق وكلّ ذلك. لكن هل يمكنك أن تمر ببيتي في طريق عودتك؟ فقط لأعرف كيف تسير الأمور؟».

قبلّها قبلة خفيفة وقال: «إلى اللقاء».

«إلى اللقاء!».

راحت دنيا تقلّب بسرعة في رأسها سؤالاً طالما أرّقها، حتى تصادمت الكلمات التي تشكل السؤال.

مضى على ذهاب بوساسو نصف ساعة تقريباً، غسلت خلالها الأطباق. ثمّ رنّ الجرس في المطبخ.

ذهبت لتفتح الباب. فوجئت بهيبو وكاهين يلقيان عليها التحية.

دعتهما دنيا للدخول وسارت أمامهما، راجية أن يغلق أحدهما الباب ثم يتبعانها. وعندما لم تسمع وقع خطواتهما، التفتت دنيا. وعلى نحو غريب، رأتهما يتكلمان همساً، يتجادلان في أمر ما. كان من الممكن ألا تدعو كاهين إلى بيتها، لكن هذا ليس بيتها، ومما كانت تعرفه من علاقة كاهين وبوساسو، بأنه كان مرحباً به في بيت صديقه. لكنها ترددت الآن، ولم تعرف ماذا ستفعل. هل ثمة علاقة هادئة بين كاهين وهيبو لكي يأتيا إلى هنا، ظناً منهما أنهما سيجدان بوساسو فقط الذي يعرف بعلاقتهما؟ ازدادت توتراً، وقالت لهما: «لماذا كلّ هذا؟ لماذا لا تدخلان؟».

تحرّكت عينا هيبو مثل نمل دبّ فيه الذعر فتبعثر وتشتت في كل الاتجاهات. لكن لم يبد على كاهين أيّ توتر.

راحت تنقّل نظراتها من الواحد إلى الآخر، ثم قالت: «إذا لم تدخلا، فإني سأدخل وأصنع لنفسي كوباً من شيء وأجلس في غرفة الجلوس».

بتجهّم، قالت هيبو لكاهين: «سأدخل مع دنيا، لكن اجلس وانتظرني في السيارة».

كانت دنيا تعرف أنه ليس من شأنها أن تتدخل، لكنها قالت، ربما بدافع من الرغبة لتحاشي إساءة فهم: «ادخل يا كاهين».

بدا مثل رجل جُرِّد من كلّ ما بحوزته. قالت دنيا لنفسها إن كاهين يشبه ماتان

قليلاً، بأنه يصبح أفضل حالاً عندما يُعامل مثل ابن. تساءلت إن كانت زاوادي تعامله دائماً بهذه الطريقة، مثل ابن، مع أنه لا يصغرها بالعمر. كان يفغر فمه مثل ماتان ولا يغلقه، وكان في عينيه الصغيرتين بريق، تعكسان الضوء كالفضة، عندما تشرق الشمس عليهما. وقال: «لا أمانع إذا انتظرت في السيارة حقاً».

«هيا، لندخل»، قالت دنيا لهيبو.

«لكني أتيت لأتكلم معك».

«هيا لندخل، نحن الثلاثة»، أصرّت دنيا.

مشت أمامهما، وشعرت بالارتياح عندما سمعت صوت البوابة الخارجية يغلق بقوة ووقع خطواتهما يتبعانها. إذا لم يكن ثمة شيء يدور بينهما، فما الذي يقوله احدهما للآخر طوال الوقت؟

عندما دخلوا إلى المطبخ، قالت دنيا: «بوساسو ليس هنا. لذلك ماذا يمكنني أن أقدم لكما؟ شاي؟ قهوة؟».

قال كاهين: «التقينا به في البلدة وهو يقوم بأعمال معينة. وهو الذي أخبرنا أنك هنا. في الحقيقة، كنت سآخذ هيبو إلى بيتك»، وارتسمت على وجهه ابتسامة ساحرة.

قرّرت دنيا ألا تخبرهما بأن وابيري جاءت لزيارة بوساسو من تلقاء نفسها وأنها لم تلق ترحيباً حاراً.

«ما خطبك؟ تبدو مثل «سوتي» الذي يأتي ليخرجها من العالم الذي تحبه»، قالت لهيبو، التي جلست في كرسيها متدثرة بأسمال الحزن.

لم تسأل هيبو ماذا تعني «سوتي»، لكن كاهين سألها.

تذكّرت دنيا التفسير الذي قدمته لها نسيبة، والذي كرّرته، وهي لا تنظر إلى كاهين الذي كانت تجيب على سؤاله، بل إلى هيبو التي اختارت أن تظل صامتة. «إن سوتي هي عادة هندوسية كانت تحرق فيها الأرملة مع جثمان زوجها».

جعل هذا كاهين في غاية التوتر فنهض وكأن كرسيه قد تحوّل إلى كرسي كهربائي على الفور. وقال: «يجب أن أذهب حقاً، لكي أدعكما تتحدثان. شكراً لك يا دنيا. حظاً سعيداً يا هيبو»، وخرج مسرعاً من باب المطبخ، مرتطماً به. لكن ذلك لم يوقفه. لأنه هزّ رأسه بدهشة، مكشراً وخرج بأسرع ما يمكنه. وبعد قليل، بعد أن توقفت الجلبة كلها، سألت دنيا هيبو «ما الذي يزعجك؟».

وبصوت يخلو من العاطفة، قالت هيبو: «أظن أنني قتلت غالاير، زوجي».

«تظنين أنك قتلته؟».

«نعم»، قالت هيبو، بصوت يخلو من أي نبرة حزن.

«وأين جسده؟».

«في البيت».

تذكّرت دنيا الروايات البوليسية التي كانت قد قرأتها وقالت: «هل هو مدفون تحت تلة التراب المتوارية وراء الأجمة أم أنك تخفين جثته في المجمّدة (فريزر)، تنتظرين الحانوتي لكي يعدّه للدفن، وحتى يأتي مفتش الشرطة وهو يضع غليوناً مطفأ؟».

لم تقدّر هيبو مزحة دنيا، وقالت بحزم: «عندما تركته كان على سريرنا، يعتصر ألماً، ووجهه شاحب ومنتفخ، وعيناه محتقنتان وجميع عروقه بارزة».

«أين أخفيت السكين؟» سألتها دنيا.

«لم أستخدم سكيناً».

«وأين هم أطفالك؟».

«قضوا الليلة في بيت أحد الأقارب».

أحست دنيا بالارتياح عندما علمت أنها ليست هي وحدها التي باتت هذه الليلة خارج سريرها المعتاد، لأن الجميع يعرفون أن هيبو قد أمضت الليلة في

بيت كاهين، وتحمل عدّة مكياجها في حقيبتها اليدوية التي تمسكها بقوة أثناء زيارتها.

«إذًا هذه جريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد؟» قالت دنيا.

لم تتحرك ولا عضلة في وجه هيبو، وقالت: «نعم».

«أين رميت المسدس؟ أم هل كان هذا هو ما تتهامسين به أنت وكاهين عند المدخل؟» سألتها دنيا.

«لم أستخدم مسدساً».

«إذا لم تستخدمي سكيناً أو مسدساً، فماذا استخدمت إذًا: سمّ؟».

أومأت هيبو برأسها، وللمرة الأولى منذ أن بدأتا تتحدثان عن كلّ هذا، أجفلت. لكنها حبست دموعها. لقد فعل زوجها، غالاير، شيئاً كان يجب أن يُعاقب عليه، وهذا ما فعلته. لم تكن هناك حاجة لأن تذرف دمعة واحدة.

«ألا تريدين أن أخبرك السبب؟» سألتها هيبو.

«لقد نقل لك مرض السيلان فقتلته بتسميم طعامه»، قالت دنيا. إذ كانت هيبو قد قالت إنها إما أن تقتله أو أن تنتحر إذا ما نقل لها مرض السيلان؛ قالت ذلك في اليوم الذي قالت فيها إحدى المريضات إن زوجها قد نقل لها المرض. وقالت دنيا لنفسها إنه من الممل أن تتنبأ بذلك مثل هيبو.

ثم انفجرت هيبو في بحر من الدموع والانفعالات، لكن كان ثمة شيء ضحل، شيء يشي بالتظاهر في بكائها. وبعد بضع ثوانٍ، تأكدت دنيا أن كلّ هذا البكاء سيتلاشى مثل نهر ينتهي به الأمر في الصحراء.

هدأت هيبو الآن وسألت دنيا: «ماذا ستفعلين لو كنت في مكاني؟».

وجدت دنيا أن من الصعب أن تتخيّل نفسها في مكان هيبو، لكنها كانت امرأة ذكية، لذلك قالت: «لو كنت مكانك يا هيبو، لذهبت إلى البيت، وأعطيت نفسي حقنة واحدة فعالة فيها ٤,٢ أو ٨,٤ وحدة من بنيسيلين بروكين».

«وماذا أفعل به؟».

قالت دنيا لنفسها إنه عندما يُختزل الزوج إلى كلمة «به» والزوجة إلى «بها»، فقد حان الوقت لحلّ الزواج، أو يجب النظر في علاقة غير شرعية. وكونها امرأة تحمل شرف المناطق الشمالية، ومن بوركو حيث تربى مثل تلك النساء، فقد فكّرت هيبو بأن تقتله. قالت دنيا: «هذا يتوقف عما إذا كان قد مات أم أنه لا يزال حياً يرزق».

«ماذا تقصدين؟».

كانت هيبو هادئة إلى درجة مخيفة بالنسبة لامرأة دست السمّ في طعام زوجها، وتساءلت دنيا إن كانت هذه مجرد مزحة؟ لكنها قالت: «إذا كان قد مات، عندها يجب أن تعيشي مع سرّك طوال حياتك، ولا تخبري أحداً بما فعلت».

«أو أن أفعل «سوتي»، هل قلت إن العادة الهندوسية تسمى هكذا؟».

أعجبت دنيا بهدوئها؛ أعجبت بأنها كانت تتصرّف وكأنها تقتل زوجاً في كلّ يوم من أيام كذبة نيسان، وكأنها مسألة سنوية بالنسبة لها. كان الأمر لا يصدق وتمنّت أن تكون نسيبة هنا، فربما تكون الشخص الوحيد الذي يقدّر مثل هذه الحكايات البشعة.

«إن أداء سوتي شيء بارع حقاً. فالناس هنا في الصومال لا يفهمون جيداً هذا النوع من الدوافع أو الموت، ولا نريد أن نضيّع ذلك عليهم».

سألت هيبو متوسلة: «ماذا أفعل إذا لم يمت؟».

«خذيه إلى المستشفى واتركي الأطباء يقرّرون الأدوية التي يجب أن يعطوه إياها له بعد أن تخبريهم بنوع السم الذي دسسته في طعامه»، أشارت عليها دنيا.

«الرجل يستحقّ أن يموت»، قالت هيبو.

«إذًا لماذا تأخذين رأيي إذا كنت قد قررت؟».

«أنا زوجته المحترمة جداً، ولست امرأة من الشارع»، قالت هيبو، «لكي ينقل لها السيلان، ويفلت بدون عقاب».

«لا تدعي الأمور تجرفنا بعيداً. إنسي كلّ هذا الكلام المنمق عن الشرف في المناطق الشمالية والعار في المناطق الجنوبية. لقد دسّ غالاير السمّ فيك وأنت دسست السمّ في طعامه، فقد سمّمته أنت أيضًا». ساعدت دنيا هيبو في الوقوف على قدميها، وقالت: «لا يوجد مزيد من الوقت لإضاعته. اذهبي إلى البيت وانقليه إلى المستشفى».

ثم رافقتها إلى البوابة. كانت هناك دموع في صوت هيبو عندما قالت: «إنك امرأة قوية جداً وأنا أحسدك على ذلك».

ثم قبع لسان هيبو، سميكاً مثل قطعة من جبن غورونزولا الإيطالية، خامداً في فمها. وتمنت لها دنيا حظاً سعيداً، وعانقتها.

في الخارج رأتا سيارة كاهين مركونة خارج البوابة، وكان بوساسو يتكلّم معه هناك. وبعد قليل، غادرت دنيا وبوساسو بسرعة كبيرة إلى بيت دنيا.

توقّفت ثرثرة الأطفال عندما دخل بوساسو ودنيا. وعندما عادت القدرة على الكلام أو التقاط مكنسة أو ممسحة، عاد الأطفال إلى عملهم. وكان الثلاثة يعاملون بوساسو باعتباره الأخ الأكبر. وكانت مارلين وفريدة هناك أيضاً، لكنهما كانتا تعاملانه برسمية شديدة.

قدموا إلى دنيا وبوساسو كرسيين ليرتاحا، وكأنهما وصلا من رحلة طويلة منهكة.

جاءت نسيبة لتقول لهما إن شقّة المدينة أصبحت جاهزة، أو على الأقل أن غرفة الخال أبشير قد أصبحت جاهزة ليستخدمها الليلة وأضافت: «سنأتي بباقة ورد».

اعتدلت دنيا في جلستها، وقالت: «ماذا؟».

«باقة ورد وكل ما هنالك».

«فكرة من هذه؟» قال بوساسو.

«سأرتدي ثوباً أبيض يا دنيا، وقفازات وكلّ شيء»، تطوعت ياري.

«لكن فكرة من هذه؟».

«فكرتي»، قالت نسيبة.

«إننا نرحّب به مثل رئيس دولة زائر»، تابعت ياري كلامها، مكررة شيئاً قالته لها نسيبة، «كما يزور رئيس بلد آخر الصومال، فتاة صغيرة تتشح بثوب أبيض تقدم له باقة من الورود. كثيراً ما نرى هذا في التلفزيون».

قررت دنيا أن لا تناقش هذا الأمر مع نسيبة أو ياري، ولهذا شجّعتهما بطريقة لطيفة أن تعودا إلى ما كانتا تفعلانه.

قال بوساسو: «طبعاً، لا يبدو أن المسكينتين تدركان أن هذا تقليد استعماري جديد، موروث، بالإضافة إلى فكرة الأعلام، عاصمة الدولة وكل هذه الأشياء، لكن ينطوي فيها أيضا مفهوم ذكوري حيث تقوم عذراء شابة بريئة تتشح بالبياض بتقديم باقة زهور إلى رجل زائر يصادف أنه رئيس دولة أخرى. ولا يجب أن أذكّرك بأن الرجل، في تقاليدنا، الذي يُمس شرفه يُكافأ غالباً بعذراء كجزء عن التعويض الذي يقدم له. وعندما يزور ذكور أصدقاء لهم في بلدة أخرى، يقدم له المضيف امرأة لامتاعه».

«ربما يجب أن تخبرهما»، قالت دنيا.

«ربما أفسد ذلك مرحهما»، قال بوساسو.

«ربما»، وافقت دنيا.

صمت كلاهما واعتراهما شعور بالجدية كشخصين يدخلان مكاناً للعبادة. وكان كلاهما يفكران بأبشير ويتطلعان للقائه. واستعاد كل منهما ذكرياته اللطيفة

من الليلة الماضية. من جهتها، كانت فخورة بأنها لم تخبره إن كانت ستتزوّجه أم لا؛ ومن جهته، فقد أحسّ بالفخر لأنه لم يلّح عليها بأن تخبره بقرارها.

أهلا بك يا أبشير، يا أخي العزيز، قالت دنيا لنفسها.

[18]

وفيه تتوجه دنيا مع أطفالها وبوساسو وبعض الأصدقاء في قافلة من السيارات لاستقبال أبشير في المطار. وتستمر الحفلة التي بدأت أثناء النهار حتى وقت متأخر من الليل

كانت سيارة بوساسو تتقدم قافلة مؤلفة من ثلاث سيارات، وكانت دنيا الراكبة الوحيدة معه. يتبعهما، في سيارة أجرة يقودها ابن عمه أكسماد، ياري وماتان وفريدة ومارلين. أما السيارة الثالثة فيقودها قاسم، ويجلس طارق في المقدمة، ولكي تبدو مختلفة عن الآخرين، كانت نسيبة تجلس في المقعد الخلفي. وكانت إحدى عادات أكسماد المشينة كسائق سيارة أجرة عدم التوقف عن الضغط على بوق السيارة، مما لفت انتباه الكثيرين من المشاة إلى القافلة والنظر إليها. وعندما تباطأت حركة المرور، وظل صوت البوق ملعلعاً، ظنت إحدى النساء أنه ربما كان حفل زواج، مما أثار فضول عدد من الواقفين وبدأت كلمة «زفاف» تتردد على ألسنة الواقفين على جانبي الطريق. وأخيراً تناهت الهمسات الصينية إلى سمع دنيا وبوساسو، ثم أطلقت امرأة زغرودة، وسُمعت أخرى تلفظ اسمي دنيا وبوساسو.

ارتسمت على وجه دنيا ابتسامة لعوب، بينما جلس بوساسو متصلّباً، ظهره صلب كذيل فيل، عيناه مركزتان إلى الأمام، وكأنه يقود عبر ضباب كثيف. ثم سألها: «هل سنخرج جميعنا لتناول وجبة هذه الليلة يا دنيا؟».

فقالت: «بشرط أن تكونوا ضيوفي».

«وكم عددنا؟».

قالت: «أسرتي فقط».

«هل ندعو ماير أيضاً؟».

«نعم»، قبلت بسرور.

«وهل ستنضم إلينا فريدة ومارلين أيضًا؟».

«قلت أسرتي فقط. لا أصدقاء»، ذكّرته دنيا.

راحت دنيا تذكر قائمة الأسماء، وحسبت عدد المدعوين عدّة مرات. كانت مثل الأعرابي في القصة الشعبية الذي يعرض عشرة حمير للبيع، ونسى أن يحسب الحمار الذي يركبه، لكن عدّه كان صحيحاً بعد أن ترجّل عن ظهر الحمار.

«هل فكّرت بمطعم يمكننا أن نذهب إليه؟» سألته.

قال: «هذا يتوقف على ما إذا كنا نريد أن نذهب إلى مطعم في وسط المدينة أم خارجها».

سألته: «ماذا تفضل؟».

فقال: «قرّري أنت».

هنا نحن، قالت لنفسها، غير قادرين على اتخاذ قرار لكي لا يؤذي أحدنا مشاعر الآخر. هل سيحدث ذلك عندما نصل إلى الشارع الذي يتفرع فيه الطريق إلى طريقين؟ فقالت بحسم: «لنذهب إلى كروس دول سود».

فقال: «حسناً، سأحجز طاولة».

وبسرعة أغمضت عينيها وفتحتهما، وبذلك تبعت لحظة ظلام موقتة لحظة مشرقة من الشمس. كانت منهكة. كان ظهور قاسم لدى وصول فريدة قد عقّد الأمور بعض الشيء. فقد ذهبا لزيارة شقّة المدينة التي بدت مريحة وجميلة إلى درجة كبيرة. وتمنّت أن تعجب أبشير.

ظهر الآن برج المطار، وسألها بوساسو: «كم عدد الأشخاص الذين سيأتون إلى العشاء إذًا؟».

«سبعة»، قالت.

«سبعة عدد مشؤوم يجلب الحظ السعيد».

ثم ناور بسيارته ليلج الطريق الضيق إلى مكان وقوف السيارات. وبحث عن مكان يمكنهم أن يركنوا فيه سياراتهم الثلاث جنباً إلى جنب. ووجد مكاناً عندما رأى الطائرة قد بدأت تهبط. بعد نصف ساعة، كان أبشير، أخوها المحبوب، يغادر الطائرة، وكان أول مسافر يفعل ذلك. تدفق الدم في أذني دنيا التي لم تكن تفكّر بأبشير فقط، بل كانت تتساءل أيضاً من هو أول شخص ستزف له خبر قرارها بالزواج من بوساسو: العريس نفسه أم أخوها، الخبر الجيد الذي تستقبله به.

مثل صوص يشق قشرة البيضة التي تكتنفه ويخرج منها؛ مثل عينيّ طفل يرى للمرة الأولى؛ مثل عثّة تفرد جناحيها الصغيرين لتبدأ الطيران؛ مثل الأشكال التي تأتي وتذهب وتعود، أشكال إنسانية لها أصوات، تستجيب للأسماء إذا تذكّرت ماذا تدعوها، أشكال بشرية تلفظ اسم شخص «دنيا». تذكّرت أنها ذات مرة، أحست بأنها خفيفة مثل الرحلة الليلية الأسطورية الواردة في القرآن وتحلّق بعيداً؛ وتذكرت أنها غطت في النوم ذات مرة، وعندما أفاقت، كان اللقيط قد مات. تساءلت دنيا الآن في نفسها إن كانت تهذي، وكانت واثقة من أنها فقدت الاتصال بالأشياء الحقيقية التي تحيط بها، وأحسّت بالهذيان يبتلعها، ويجعلها تشعر بالدوار، بالطريقة التي تجعل فيها آلام المخاض المرأة أن لا تشعر بالألم بسبب شدة الألم.

كانت مسافرة عادت لتوها وتشعر بإرهاق جسدي شديد. لم تكن واثقة من أن قدميها ستحملانها إلى أي مكان، وامتلأت أذناها بهواء مضغوط، وراحت تدور في رأسها ألف فكرة وفكرة كان عليها أن تنتظر حتى يحين الوقت

المناسب. كانت الخال الذي يلتقي ببنات أخته وأبناء أخته للمرة الأولى؛ كانت الأخ الذي يلتقي بأخته دنيا بعد سنوات عديدة؛ كانت الرجل الذي يصادف زوج أخته المختار، الشخص الذي يعرفه من قبل، في سياق آخر؛ لقد كانت رجلاً يلتقي بمراهقتين جميلتين. *لكن ها أنتِ، لعلك كنت تهذين!*

كانت ذاكرة دنيا، وهي أول من يعترف بذلك، مشتتة ومليئة بالثغرات والفجوات، مثل مصوّر، بينما كانت المجموعة التي هي من بينها تقف أمام الكاميرا، لم تحسن التوقيت، ومنحت نفسها وقتاً غير كاف قبل أن تأخذ مكانها في الصورة الجماعية.

لا يوجد ثمة شيء مثل الوعي المتصاعد الذي يجعل مركزه ينحرف. وستشرح دنيا لبوساسو في وقت لاحق من ذلك المساء بأنها كانت تعاني من نوع من الاضطراب النفسي، ذلك النوع الذي قد يظهر عندما تتلقى خلايا دماغ المرء كمية من الانطباعات أكثر بكثير مما يمكن أن تستوعبها. لم تكن تعرف كيف تصف مشاعرها هذه.

بالرغم من كلّ هذا، كان كلّ شيء يسير على ما يرام. فقد رتب قاسم أن يدخل أبشير من الممر المخصص للشخصيات الهامة، وأن لا يضطر إلى فتح أي من حقائبه السبع أمام رجال الجمارك. وساعد جميع الحاضرين على حمل الحقائب إلى السيارات المنتظرة. لم تعرف دنيا معظم ما حدث، إلا بعد أن وصلوا إلى البيت. وكان الآخرون جميعهم قد ذهبوا، ولم يبق سوى أفراد العائلة، وقد اعتبر بوساسو واحداً من أفراد الأسرة.

كانت تدور في رأس دنيا أسئلة كثيرة منها: كيف قدّمت بوساسو؟ هل باعتباره زوج أخت أبشير المختار؟ أم باعتباره مجرد صديق؟ كانت متأكدة من أن أبشير استطاع أن يرى أن علاقتها مع بوساسو تستحق تقديماً لائقاً. لكن هل لخبطت الأمور كلها؟ ومع من ذهبت فريدة؟ أمع قاسم، أم في سيارته؟

ما إن ثابت دنيا إلى رشدها، حتى أصبح عالم خيالها طوع بنانها. فقد

أصبحت ترى أبشير الآن جيداً، تسمع صوته العميق، تتذكّر جميع لفتاته اللطيفة، كرمه غير المحدود. وظل لغزاً بالنسبة لها السبب الذي كان يجعلها تقبل هدايا أبشير دائماً، ولا تشعر بالارتياح عندما تتلقى هدايا من آخرين.

كان أبشير رجلاً طويلاً، له حدبة قليلة عند الكتفين، وكان يبدو أن طوله يزيد على ست أقدام. كانت بشرته داكنة جداً وله أطراف طويلة، وفم واسع وشفتان سميكتان. وبالنسبة لرجل في عمره، كان شعره كثيفاً، مع أن شعرات قليلة رمادية كانت قد بدأت تظهر. وله يدان ضخمتان، وأصابع طويلة. وعندما كان ينصت، كانت عيناه تلمعان بتوقّع متلهّف. وكان أبشير يدخّن كثيراً، سيجارة كلّ ربع ساعة، ويسعل سعالاً جافاً. وكان يحب مضغ الثوم النيء، وهي عادة تشاطره فيها نسيبة، وكان مزاجه ومزاج ابنة أخته متشابهين، مع أن ماتان كان أكثر شبهاً به.

كانت لديه ضحكة لطيفة، رقيقة، لا يكاد يُسمع صوتها. أخذ يضحك الآن لأن أحداً قال له إنه أُعفي من المراسم التي كانت ستقدم له فيها ابنة أخته المتشحة بثوب أبيض باقة من الورود الذابلة.

بعد أن رأى دراجة الفيسبا التي استعارها ماتان من ابن عم واريس، عرض أبشير على ابن أخته أن يشتري له دراجة نارية صغيرة إذا كانت درجاته جيدة في امتحاناته. وعندما قيل له إن دنيا والأطفال سينتقلون من شقّة قاسم إلى شقّة أخرى في وسط المدينة، سأل أبشير إن كان بإمكانه أن يشتري بيتاً صغيراً، تشرف عليه دنيا، أو تقيم فيه. لا عجب أنهم كانوا يلقبونه بـ «سيلارو». فقد كان سريعاً.

كان بوساسو وماتان يجلسان في الفناء، يدردشان. كان للرجلين العديد من الأصدقاء المشتركين، وكان كلّ منهما يستفسر عنهم من الآخر. كان ماتان ينصت بانتباه شديد، فاغر الفم، ينقل بصره بإعجاب من الواحد إلى الآخر. كان بوساسو متحمساً للتحدّث عن الأوقات الطيبة التي كان هو وأبشير

يستمتعان بها عندما كانا في روما. كيف حال زوجة أبشير الإيطالية وابنتاه؟ هل ما زالوا يعيشون في تراسنفير أم انتقلوا من هناك؟ ماذا عن أصدقاء بوساسو الأستراليين والأفارقة الجنوبيين، ألا يزالون هناك، يعملون في منظمة الأغذية والزراعة؟

«كيف حال ماير؟» سأله أبشير.

قدم بوساسو لأبشير موجزاً سريعاً عما يفعله ماير إلى درجة أن ماتان تساءل عما ينوي بوساسو وماير عمله، بعد أن عاد بوساسو من ألمانيا وماير من الولايات المتحدة الأمريكية، وتبرّعا بخدماتهما لبلدهما.

«أحبّ أن أرى ماير»، قال أبشير.

«سيأتي إلى العشاء الليلة»، قال بوساسو.

التفت أبشير إلى ماتان، وسأله: «أين سنتعشّى هذه الليلة يا ماتان؟».

«لعل أمي رتبت شيئاً، لكني لا أعرف».

«إن دنيا تدعونا إلى العشاء الليلة»، أعلن بوساسو.

«أين؟» لمعت عينا أبشير بلهفة.

بعد فترة صمت، قال بوساسو: «كروس دول سود».

انضمت إليهما دنيا ووقفت صامتة بين القوسين اللذين فتحهما وصولها. نظر إليها أبشير نظرة مليئة بالمحبة، وبعد أن جلست أخته إلى جانبه، قال لبوساسو، «ألم يغلق مطعم كروس بعد؟».

«لا»، قال بوساسو، «لقد أصبح رثاً بعض الشيء، لكن بعض الندل ما زالوا هناك منذ ما قبل الاستقلال، ولا يزالون ينحنون عندما يظهر لهم وجه أبيض، لأن الأيدي البيض تعطي بقشيشاً أكثر من الأيدي السود. لكنك تحصل على خدمة ممتازة إذا ما قدمت يدك السوداء بقشيشاً بنسبة خمسة عشر في المائة، أعلى بخمسة في المائة من اليد الوردية».

متذكراً، التفت أبشير إلى ماتان ودنيا، وقال: «أتعرفان أنه لم يكن يسمح لنا الاقتراب من كروس دول سود في الخمسينات، عندما كان الإيطاليون هم الجنس المتفوق والسيد هنا. ولم يكن يسمح للندل أن ينتعلوا أحذية».

أحست دنيا بالحماقة عندما قطعت تدفق الحديث بسؤال، لكنها سألت: «لماذا يعتقد الإيطاليون أنهم هم الذين علّموا الصوماليين أن ينتعلوا الأحذية، وكأن كل مهمتهم فيما يدعى «الحضارة الأعلى» ينحصر في هذه العادة الاحتيالية بتغطية قدمين بشيء، يا أبشير؟».

«لماذا، لم أفكّر بهذا على الإطلاق»، قال، لائماً نفسه.

«ولا أنا»، أضاف بوساسو.

ثم سعل أبشير، وارتعشت أضلاعه كلها. انفجر صدره بسعال مرتفع للمرة الثانية والثالثة. قال: «الا يطلب مني أحدكم أن أتوقف عن التدخين، لأنني لن أفعل ذلك»، وابتسم، مجعّداً زوايا عينيه.

«لن يفعل أحد ذلك»، قالت دنيا.

«أتقصدين أن شيري لن يفعل ذلك؟» سألها أبشير، مفاجئاً الجميع.

دنيا، التي لم تتكلّم، فكّرت بأن أبشير وثيق الصلة بنسيبة؛ لكن لا يهم.

بعد فترة صمت، قالت أبشير لدنيا: «كيف حال أخينا غير الشقيق، على أي حال؟».

صدرت خشخشة من تنفّس دنيا مثل حرير يلامس جلد خشن، عندما دمدمت شيئاً قصيراً وغير سار عن شيري.

«هل تظنين أن شيري سيعطيني حصتي من المهر الذي يقال إنه قبضه من زبير عندما طلب يدك؟» قال أبشير مستثيراً إياها: «أو نصف ما أخذه من طارق؟» ومد يده وأخذ يدها بين يديه بحنان.

«أشكّ بذلك كثيراً»، قالت دنيا.

عندما سعل أبشير سعاله الجاف مرات عديدة أخرى، حرر يد دنيا من قبضته. غادرت، مستأذنة وكأنها ستهتم بأمر عاجل جداً.

«حدثني شيئاً عنك»، قال أبشير لابن أخته.

«لا يوجد شيء حقاً»، أجاب ماتان خجلاً.

«كيف ذلك؟» قال أبشير.

«إنه تلميذ متفوق في المدرسة، أفضل تلميذ في مادة الرياضيات، كما قيل لي»، تدخل بوساسو قائلاً.

وبشيء من التأكيد، قال أبشير، «نعم»، وكأنه يعرف أكثر مما كان يريد أن يظهر، ثم واصل كلامه: «ماذا تريد أن تدرس عندما تذهب إلى الجامعة يا ماتان؟».

«لم أقرر بعد»، قال ماتان.

«بقي أمامك سنة دراسية أخرى لدخول الجامعة، أليس كذلك؟» قال أبشير.

قال بوساسو: «بالإضافة إلى سنتين، سنة لأداء الخدمة الوطنية وسنة ثانية للخدمة كجندي في الجيش».

«كيف هي لغتك الإيطالية؟» سأل أبشير ماتان.

«ليست جيدة بما يكفي للدراسة في جامعة إيطالية إلا إذا أجريت دورات مكثفة كالتي يقدمونها في بيروجيا». بالنسبة لماتان، كانت الأشياء تحدث بسرعة كبيرة. كان الخال سيلارو سريعاً جداً، لكنه كان بطيئاً جداً؛ مع أنه كان يجيب بحماسة متصاعدة تلائم المناسبة.

قال أبشير: «أم أنك تفضّل أن تذهب إلى جامعة ناطقة بالإنكليزية، في الولايات المتحدة الأمريكية أو في كندا، أقصد هل تجيد اللغة الانكليزية بما يكفي لأن تأخذ دورة في الرياضيات؟».

لم يكن ماتان واثقاً من أنه سيدرس الرياضيات، لكنه لم يقل ذلك. أحس بالخوف وكانت الأشياء تحدث بسرعة أكبر مما كان يتصور.

«إذًا سنتحدث في هذا الأمر بعد حين»، اقترح أبشير، وأضاف بعد فترة قصيرة من التوقف، وبعد أن نقل نظره من بوساسو إلى ماتان، «إني واثق من أننا نستطيع أن نجد وسيلة تعفيه من الخدمة الوطنية والعسكرية؟».

«إني واثق من وجود طريقة للقيام بذلك»، قال بوساسو.

كتم أبشير ابتسامة قبل أن يفسد ابتسامة عريضة ملأت وجهه. قال: «وماذا عن نسيبة؟».

وبما أنه لا يجرؤ أحد على التكلم بالنيابة عنها، نودي على نسيبة، فخرجت وذراعها محمّلة بالثياب التي كانت تخرجها من الحقائب التي أحضرها لها خالها هدية من روما. كانت ترتدي بنطال جينز ماركة ليفي وقميصاً مطابقاً من الدينيم. قالت، مستثارة أكثر مما عهد عنها: «كيف عرفت طولي، وخصري وكلّ هذه الأمور يا خالي؟».

فقال: «أعطتني إياها ميسكي».

تعثّرت نسيبة ببعض الثياب التي كانت تحملها، وبرزت ياري وهي تحمل كمية كبيرة من الهدايا التي قدمها لها خالها. إن وصول الفتاة فجأة حوّل المكان إلى مكان صاخب، ونهض بوساسو وقال: «ربما يجب أن أذهب الآن».

«متى نراك؟» سأله أبشير.

«لماذا لا تأتي معي ونحضر السيارة؟ عندها لن يتعين عليّ أن أحضرك هذا المساء»، قال بوساسو.

فكّر أبشير برهة، وكأنه لم يكن متأكداً في أي مكان من العالم هو موجود، ثم قال: «أقصد أن نذهب إلى وكالة تأجير السيارات بأسرع ما يمكن. كيف ستنتقل بسهولة إذا أعرتني سيارتك؟».

«لديّ سيارة أجرة أستعملها عندما لا تتوفر لدي وسيلة نقل»، قال بوساسو.

نودي على دنيا، وفكرت هي وبوساسو وأبشير بأفضل وسيلة لمعالجة هذا الأمر. ولم يمر ابتعاد نسيبة عن هذا الأمر بدون ملاحظة.

«ماذا تقترحين يا دنيا؟» قال أبشير.

اقترحت دنيا بأن يذهب ماتان معهما ليري أبشير طريق العودة.

«هل نذهب في جولة بالسيارة، أنا وأنت عندما أعود؟» قال أبشير.

«إنها فكرة رائعة»، قالت دنيا.

كانت حماسة نسيبة واضحة، وكانت تدخل في أمزجة سعيدة وتخرج منها بسرعة. وفي لحظة ما، عندما أصبحت هي وأمّها وحدهما، خرجت إلى حيث تجلس دنيا، وهي ترتدي ثوباً على الموضة أحضرها لها أبشير. بصوت متوتّر، قالت ما توصلت إليه أمّها، بأنه نتيجة خاطئة: «هل لاحظت مؤخراً كم عدد الكلاب في أيّ مدينة أفريقية؟ فالكلاب تجوب الشوارع في مجموعات، خطيرة ومرعبة مثل ذئاب أطلقت من حديقة حيوانات؟ ترينها في كل مكان، تبحث في صناديق القمامة وتفرغها من كلّ شيء سوى العظام التي لا تستطيع مضغها؛ وتهاجم هذه الكلاب المشاة الذاهبين إلى أعمالهم بعد أن يحل الظلام. هل لديك فكرة من أين تأتي هذه الوحوش المرعبة؟».

لم يبد أن دنيا قد تأثرت وظل الأمر لا يعنيها.

وتابعت نسيبة: «بحسب ما قاله طارق، كان أصحاب معظم هذه الكلاب من الأوروبيين أو الأمريكيين الذين لديهم الكثير من الطعام الذي يقدمونه إلى هذه الحيوانات والكثير من المودّة التي يضفونها عليها، والتي كانت تعيش في بيوتهم الواسعة والثريّة مثل أطفالهم». وكانت هذه الكلاب تحصل على كمية أكبر من الطعام وعلى اهتمام وحب أكثر مما يناله معظم الصوماليين، وبين ليلة وضحاها، غادر هؤلاء السادة وعادوا إلى وطنهم، وتركوا وراءهم هذه المخلوقات الفاسدة. كان ذلك نمطاً أيضاً، الكثير من الحبّ، ثم بسرعة

مخيفة، وفجأة أصبحت مشرّدة في مجتمع إسلامي مستعد لرميها بالحجارة لأدنى ذريعة. باختصار، أصبحت الكلاب مصابة بالفصام».

«إلى ماذا تهدفين يا نسيبة؟ أرجو أن توضحي النقطة التي تريدين أن تصلي إليها!»، قالت دنيا.

توقفت نسيبة لبرهة طويلة، وقالت أخيراً: «يمكنك أن تدركي شيئاً من التشابه بين الكلاب ودكتاتوريي العالم الثالث الذين يحصلون على موافقة ودعم أسيادهم الأوروبيين والأمريكيين، وعندما لا يعودون ذو نفع لهم، يتُرك هؤلاء الدكتاتوريين مثل الكلاب المنكودة الحظ. أما على الصعيد الشخصي، فإن الأوروبيين والأمريكيين الذين يعيشون في أفريقيا يتصرفون بأسلوب يشبه تصرفات حكوماتهم على الصعيد الوطني. إن ما أحاول أن أقوله...».

تصلب جسد دنيا. ابتسمت في وجه نسيبة، وسألتها: «هل تظنين أنني مكتنزة؟».

«لماذا؟».

«لست مكتنزة!» قالت دنيا، «هذا كلّ ما في الأمر».

مشوّشة، أخذت نسيبة تحدق في أمّها التي غادرت الغرفة لتستعد للقيام بجولة في السيارة مع أبشير.

كان أبشير جالساً وراء المقود، يقود شرقاً باتجاه البحر. ثم قال: «لا يمكنك أن تتخيّلي كم أني مشتاق لرؤية المحيط الهندي والسباحة فيه أو أن أكون قريباً منه».

راحت تراقبه وهو يقود السيارة. كان مثل مدخنة ينفث الدخان من رئتيه؛ وكان جسمه، بين الحين والآخر، يصبح شاحباً مثل رماد متبق في الموقد منذ الليلة الماضية. بدأت تتساءل لماذا يذكّرها ماتان بأبشير دائماً، مع أن أحدهما لا يشبه الآخر من الناحية الجسدية. لم تر قط جدّهما، لكنها فكرت أن لقبه يدل على انحناءة، وبما أن لقبه توير، الذي يعني الرجل ذا الحدبة. قالت

لنفسها إن بعض الخصائص الجسدية تجري في بعض الأسر، تقفز من جيل إلى جيل.

قال لها: «حدثيني قليلاً عن بوساسو».

«إننا نفكّر بالزواج».

«هل ثمة عائق يقف في طريقكما؟» سألها أبشير، وكأنه يتمنّى أن يزيل أي عوائق مهما كانت. وفكّرا كلاهما بشيري، مع أن أحداً منهما لم يذكر اسمه.

«لقد طلب يدي، وطلبت منه أن يمنحني بعض الوقت للتفكير بالأمر».

«أما زلتِ تفكرين؟ أم انك حسمت أمركِ؟».

«لا زلت أقلّب الأمر في رأسي، مرة يكون الجواب نعم، ومرة لا، مع أن الجواب هو نعم في معظم الأحيان. إني مغرمة به، أحبّه في الحقيقة بطريقتي»، وأضافت، «إنه يستحقّ أفضل مما يمكن أن أقدمه له. إنه يثق بي كثيراً، ولا توجد لديه طاقة للشجار؛ وأدرك أنني أريد ذلك قليلاً».

«أرجو أنه مدرك جيداً لما هو مقدم عليه»، قال أبشير مبتسماً.

«إني واثقة من أنه يدرك ذلك تماماً».

«إنه يكنّ لي احتراماً شديداً. فعندما كنا في سيارته، اقترح عليّ أن أقود السيارة. قد يبدو بوساسو مثل شاب يقف أمام والد زوجته المتوقع». أطفأ أبشير سيجارته، ليشعل أخرى، ثم تابع كلامه: «للحبّ رائحة محددة نادراً ما تُشمّ، بل إنها تُرى فقط. فقد شممتها عندما وصلت ورأيتها ثانية عندما صافحته في وقت مبكر من بعد ظهر اليوم».

قالت دنيا: «إن السبب الذي لم يجعلني أقول نعم عندما كنت أستطيع أن أفعل ذلك هو أنني لا أريد أن أمنح الألسنة الشيطانية الفرصة لأن تهتزّ مثل ذيل كلب التي تقول بأنني سأتزوجه من أجل ماله ومن أجل بطاقة الإقامة الأمريكية».

«لهذا السبب تكلّمت مع ماتان في وجوده، لكي أطمئن بوساسو بأن أطفالك لن يكونوا عبئاً مالياً عليه. سأوضح له ذلك تماماً في أقرب فرصة. إن تعليمهم، هنا أو في الخارج، ومن الأفضل أن يدرسوا في جامعة في الخارج، على مسؤوليتي. لقد أمضى الرجل المسكين ربع حياته وهو يربي نسل أشخاص آخرين».

أطلقت دنيا ضحكة خافتة، ضحكة بين التذمّر والقلق، ثم قالت: «شكراً لك».

وقال: «ليكن مفهوماً أن هذا لن يضع أي ضغط على اتخاذك قرارك بأي شكل تشائين. افعلي ما يدخل السرور إلى نفسك. إن شئت أن تتزوجي فتزوجي، وإن لم ترغبي فلا. إن مصيرك بيديك. أما رسوم دراسة الأطفال فهي من مسؤوليتي، ومسؤوليتي وحدي».

خنقت دموعها من البهجة ولم تستطع أن تقول شيئاً لبرهة طويلة. وأخيراً قالت: «كنت أتساءل دائماً ما الذي يجعلني أقبل جميع الهدايا التي أعطيتني إياها، عندما أشعر بالاضطراب إذا أراد الآخرون أن يقدموا لي شيئاً. هل تستطيع أن تخبرني لماذا؟».

فأجابها: «لأنه عندما كان عمرك أقل من ساعة واحدة رفضت أن ترضعي من ثدي أمّنا التي لم تكن في صحة جيدة آنذاك، وكنت أنا من أطعمك أول نقطة حليب، هدية لم تقبليها من أي شخص آخر، بمن فيهم أبونا، والقابلة أو نساء أخريات في الحيّ»، ثم توقف، ووضع سيجارة بين شفتيه، ربما لكي لا يبتسم.

«كانت أول لحظة واعية لي عندما تلقيت أول نقطة من الحياة في فمي بعد خمسة وثلاثين سنة»، قالت، «وقد أصبحت أمّاً ثلاث مرات، وتزوّجت مرّتين، ووقعت في الحبّ مرّة، أو أنني أعتقد أنني وقعت في الحبّ. ما الذي لديك ولا يوجد لدى الآخرين؟ لا بد أن هناك شيئاً».

«وماذا عن قاسم: ألم توافقي على الإقامة في شقّته بلا إيجار تقريباً؟» سألها أبشير.

«لقد استند اتفاقنا على فهم، تهدم في اللحظة التي حدث فيها سوء تفاهم بيني وبين زوجته مرايو. لقد انتهى ذلك الآن وها أنا ذا أنتقل من بيته ومن حياته أيضًا».

«وماذا عن علاقتك مع بوساسو؟».

«غالباً ما يكون متلقياً أكثر من كونه مانحاً»، قالت.

في وسط المدينة، بدأ أبشير يؤقلم نفسه، ويتذكّر المشاهد التي لم يرها منذ ربع قرن؛ وكانت دنيا تحدّق في بعض هذه المشاهد لأنها اتخذت أهمية معينة، ذكّرتها ببوساسو. قال أبشير إنه لم تتغير أشياء كثيرة منذ أن سار في هذه الشوارع في آخر مرة، فبناية أعلى هنا، وأرض نصف مشيدة هناك، لكن شبكة ونمط تخطيط مقديشو ظلا على حالهما، ولم يطرأ أي تغيير عليهما، وخاصة في وسط المدينة، فلا يزال لها سحرها وجاذبيتها.

قال: «البحر، حبيبي».

فكّرت ببوساسو، لكنها لم تقل شيئاً.

«أستطيع أن أشمّه»، قال أبشير.

ثم تشكلت على وجهه شبكة من الخطوط مشكّلة ابتسامة. هل الحبّ يقبع في رائحة أحد؟ على حد تعبير أبشير. متذكرة الفيلم الإيطالي «عطر امرأة»، تمكنت دنيا من استعراض حياتها في ومضة عين. ثم سألت نفسها عما إذا كنا نضع العطور لكي نكمل أو نكبت روائح الجسم الطبيعية التي تضلل عواطفنا.

ركن أبشير سيارته في منطقة كانت ذات يوم سوقاً لبيع السمك. وتذكّر أن مكتب البريد القديم كان يقع في مكان قريب من هنا. سارا بضع خطوات، ثم انعطفا يساراً، ثم باتجاه شارع مرصوف بأحجار بارزة منذ قرابة ثمانين سنة،

باتجاه المحيط. لامس أحدهما الآخر، وأمسك أحدهما يد الآخر وهما يمشيان معاً، صامتين.

وقفا بالقرب من سور الدرابزين، الذي اصطدم به سائقون طائشون مرات كثيرة، لكنه لم يتحطم. وذكّرت نفسها بأنها امرأة حذرة وشديدة الحرص: فالحياة مقعد قيادة والحوادث منحنيات عمياء، تنصب كميناً للمرء. أحست بالبهجة، وقالت لنفسها إن وقت العشاء أضحى قريباً وسيلتقي هناك الجميع بمن فيهم بوساسو.

قال لها أبشير: «لكنك لم تقولي لي كيف حالك؟» وأشعل سيجارة.

«كانت رحلة طويلة صاعدة إلى الأعلى والأعلى، هنا»، قالت دنيا، «هنا، ها هنا أنا، ذلك»، وتوقفت قليلاً وكأنها تريد أن تشدد على نقطة، «وهناك، في الأسفل، الطريق إلى الأسفل، وقد فصل المحطتين خليج عريض، وأشعر بالدوار كلما وصلت، بفضلك يا أبشير».

«هيا، هيا»، قال محرجاً، وجفف وجهه بمنديل. صامتاً، راح ينتظر. تابعت، شجعها صمته على ذلك، «لكي تعرف كيف حالي وكيف تسير الأمور، يجب أن تفهم لماذا أقاوم جميع أنواع الهيمنة، بما في ذلك إذا أعطيت شيئاً». وعلى شاهدة قبري أريد أن يكتب عليها ما يلي: «هنا ترقد دنيا التي لم تكن تثق بالمانحين».

«سأقول شيئاً، إذا سمحت»، قال أبشير.

هزت دنيا رأسها.

«إنك امرأة تصغرني سناً»، قال أبشير، «وأظن أن هذه الحقائق مركزية بالنسبة لهدية علاقتنا، أنا وأنت».

«وهل تعطي لأنك تشعر بأنك مذنب؟».

داور في الإجابة، «لو كنتِ صبياً، لما زُوِّجتِ إلى رجل في عمر جدّك في

المقام الأول، وفي المقام الثاني، كان من الممكن أن تحصلي على منحة دراسية إلى جامعة تختارينها أنتِ، لأنك ذكية وطموحة. لقد وقع في حقك ظلم كبير. كنت أنوي أن أصحح الخطأ بأفضل ما يمكنني. أنا آسف».

أشار لها بأنه مستعدّ لأن يعود، وأمضيا وقتاً قصيراً ليتفقا على أن يوصلها إلى بيتها أولاً. ثم يعود إلى شقّة المدينة ويستحّم ويبدّل ثيابه، ثم يأتي ليقلّهم هو بنفسه في سيارة بوساسو ويذهبون معاً إلى كروس دول سود لتناول العشاء.

ثم أتيح لهما الوقت للتحدّث عن جيسيلا، زوجة أبشير، وابنتيه، مادالينا وأناليسا. ولم يكن سراً أن الفتاتين كانتا تكرهان الصوماليين، وكانتا وقحتين معهم على الهاتف، وكانتا تغلقان أحياناً الباب في وجه الزائر. لكنهما كانتا ترحبان بدنيا، عندما كانت تزورهما، وكانتا على وفاق معها. وقال لها أبشير إن أسرته تشك كثيراً في أنه يخطّط لشراء بيت؛ وعندما عرفتا بأنه سحب بضعة آلاف من الدولارات من حسابه المصرفي، «وكأنه سيشتري البلد كله بضربة واحدة،» بكت ابنتاه ساعات طوال ولم يهدأ بالهما إلا عندما وعدهما بأنه سيعود إلى روما بعد أن يزور دنيا وأبناء أعمامهما.

«هل ستشتري بيتاً إذًا؟» سألته.

فقال: «شقّة صغيرة، كبداية لكي تسكني فيها، وأنت حرّة في أن تقيمي فيها إلى أن ترتبي أوضاعك. شقّة صغيرة تكفي الأطفال إذا لم يرغبوا في الإقامة معك أنت وبوساسو إذا تزوجتما. ولكي أقيم فيها إذا أتيت في زيارة».

قالت: الكثير من «إذا».

قال أبشير: «إنك كومة من إذا وربما، إذا سمحت لي».

قالت: «طبعاً».

ثم أجابت عن سؤال عام عن بوساسو وعنها، حكت له دنيا منذ اللحظة الأولى، ولم تحذف أي تفصيل صغير. وبعد أن أنهت حكاية قصتها له، كانا قد وصلا إلى بيتها.

قال: «لا توجد عودة إلى الوراء، بل إلى الأمام فقط».

فقالت: «لنأمل ذلك».

بإجماع عام، جلس ماير على رأس المائدة التي تتسع لسبعة أشخاص. وكان للمائدة طرف واحد، لأن الطرف الآخر كان قد ألصق بالجدار. وهكذا جلس ثلاثة أشخاص من كل جانب، وكان ماير الوحيد على رأسها. كان بوساسو قد حجز الطاولة ووصل قبل الآخرين، لأنه من النوع القلق، من ذلك النوع الذي يصل إلى المطار قبل نصف ساعة أكثر مما يظن العاملون في شركة الطيران أنه ضروري. وقد رتّب الندل المائدة تحت إشرافه. وخلال انتظاره وصول الضيوف الآخرين، احتسى كأسين طويلين من مزيج عصير الفاكهة لم تكن فيها قطرة واحدة من الكحول.

ثم وصلت دنيا وحاشيتها، الخمسة جميعهم. وقبل أن تخفت ضوضاء تبادلهم التحيات، دخل ماير. سكتوا جميعهم، ليتركوا ماير وأبشير يحييان بعضهما، بشكل لائق وبراحة تامة. ورأت دنيا عينا ماير تحترقان مثل ستارة مشتعلة وهو يصافح أبشير بحرارة ثم ضمه إليه وعانقه.

وصل نادلان ليرشدوهم إلى طاولتهم. التفتت رؤوس رواد المطعم وراحوا يراقبونهم وهم يمرون من جانبهم. كانت نسيبة قد ألبست دنيا ثوباً بسيطاً لكنه جذّاب، خاطته لها خيّاطتها لمناسبة كهذه. ووفق اقتراح نسيبة، كانت حاسرة الرأس، وقد جعلت شعرها في شكل كعكة، فبدت طويلة بطول ماير تقريباً، الذي كان يبدو طويلاً عندما يقف بين مجموعة من النساء. أما نسيبة، فكانت ترتدي ثوباً فضفاضاً، على الموضة، ومثل ياري، كانت ترتدي شيئاً أحضره لهما أبشير من إيطاليا. أما الرجال، فلم يرتدي أربعتهم ثياباً رسمية، وكانوا بدون سترات للعشاء، وبدون ربطات عنق، باختصار، لم يكونوا يرتدون ثياباً ملفتة كما هو حال النساء. ولم يكن ثوب دنيا ضيقاً عند الخصر أو عند الإبطين.

كانوا جميعًا سعداء في لقائهم معاً وراح يتحدث أحدهم إلى الآخر.

وكانت دنيا وبوساسو محور اللقاء، لا أبشير. وكان بوسع الجميع أن يروا ذلك.

ولم يغادر الندل الطاولة حتى تأكدوا من أن الجميع، صغاراً وكباراً، ذكوراً وإناثاً، قد أخذوا أماكنهم. والتفتت عينا بوساسو إلى دنيا لتوجهه. وجلست ياري بين دنيا والخال أبشير، بينما أُجلس بوساسو في الكرسي المواجه لكرسي دنيا وجلست نسيبة إلى جانبه، وجلس ماتان مقابل الخال أبشير.

وللتخلي عن رسميات قوائم الطعام، سأل ماير النادل عن أفضل الوجبات لديهم. وراحوا ينصتون إلى الندل وهم يتلون أسماء الأطباق التي سيتناولونها، ويقدمون تفسيرات على الأسئلة التي طرحتها ياري ونسيبة أو على سؤال لطيف «ما هذا يا خالو؟» من ماتان. وبما أن الندل أنفسهم كانوا نصف أميين، فقد كانوا يأخذون الطلبات شفوياً.

ثم جاء نادل أكبر سناً، كان يعمل في مطعم كروس دول سود عندما كان الإيطاليون لا يزالون الجنس المهيمن في مقديشو، لا ليخدمهم أو ليأخذ طلباتهم، بل ليقدم تحياته إلى الدكتور ماير الذي كان طبيب زوجته. وكان النادل من «أهل النهر»، ترتسم على وجهه ابتسامة عريضة رائعة، وله بشرة في غاية النعومة، ولم تكن على ذقنه أو أعلى شفته شعرة واحدة. وانحنى نصف انحناءة باحترام نحو دنيا فيما كانت عيناه تطوفان فوق الطاولة بسرعة وقرّر أن يقوم هو على خدمتهم. وصرف الندل الأصغر بحركة وديّة، وراح يدور حول الطاولة ليتأكد من أن جميع الشوك والسكاكين في أماكنها الصحيحة. واعتذر مرات كثيرة، ساحراً دنيا، التي وضعت نفسها تحت تصرف يديه الخبيرتين، التي كانت مستعدة لتناول الطعام منهما.

عندما تركهم، فرض موضوع الحديث نفسه عليهم. هل جعل هذا النادل المسن الجميع يشعرون براحة أكبر لأنه تدرب على يد الإيطاليين وأصبح أكثر

براعة في مهنته من الندل الأصغر سناً الذين لم يتلقوا تدريباً صارماً مثله؟ هل كان هذا أحد أعراض حالة مؤسفة بأن الصوماليين نادراً ما يتمكنون من إدارة مطعم بمهارة وبشكل مربح أيضاً؟ وتنقلت الكرة بين الجميع، وأحرز الآن ماير هدفاً، والآن بوساسو، والآن أبشير. وكانت نسيبة وياري وماتان ينصتون باحترام. ولاحظت دنيا كيف أن نسيبة لبثت صامتة منذ أن وصل أبشير.

وعندما انهمك الآخرون في حديث مهذب، قالت دنيا لنفسها إن أشياء صغيرة تتكشف للمرء مباشرة. إذ يأتي البوح من خارج سحب الشكوك، في الكهوف، في الظلام، من فم طفل، أو من خلال كلام شخص عجوز حكيم أو مجنون. وقرّرت أن لحظة التجلي قد ظهرت لها، في صباح يوم، اختارت فيه قصّة أن تحكي نفسها لها، ومن خلالها، قصّة تجلى وضوحها في القول المبدع، «ليكن هناك رجل»، وكانت هناك قصّة.

لم تكن شديدة الانتباه لما يقوله ضيوفها على المائدة، نظرت دنيا إلى أبشير، الممسك بسيجارة غير مشتعلة بيد، وباليد الأخرى قداحة. وكان يقول لماير: «كلوديا تبعث لك بحبّها، وقد أعطتني طرداً ورسالة لأوصلهما إليك. الآن ها هي الرسالة»، وأعطاها له، «أما الطرد فهو في سيارة بوساسو، لكني لم أحضره إلى المطعم لأنه كبير جداً».

«شكراً»، قال ماير، ووضع الرسالة في جيبه.

عند ذكر اسم كلوديا، تغضنت قسمات وجه ماير، ولم يكن مستعداً لإظهار عواطفه بوجود الآخرين. وفي الحقيقة، بدا أنه غير مهتم ليسأل أبشير عن كلوديا، وبدلاً من ذلك سأله: «متى ستأتي لتناول العشاء في بيتي؟».

«أمهلني يوماً أو يومين وعندها سأعرف ما هي خططي»، أجاب أبشير.

«خذ وقتك».

أومأ أبشير.

قال ماير لأبشير: «إلى متى ستبقى هنا، بالمناسبة؟».

«عشرة أيام كحد أقصى».

تحولت مراكز دنيا. فقد انكمش الجلد في وجهها، مثل امرأة لم تكمل إزالة مكياجها وراحت تستقبل زائراً. كانت تفكّر أن بداية القصّة سهلة، مثل انتزاع سن حليبي. لكن كيف عليها أن تنهيها؟

هنا، توقّفت قليلاً، بسبب قدوم الندل، الذين جلبوا أطباق الطعام. وعندما نظرت إلى شريحة اللحم بالفلفل، قالت لنفسها إنها لم تطلبها، بل طلبتها دنيا أخرى. لكن أين هي دنيا الأخرى تلك؟

تطلعت حولها، وبدا أن الجميع كان سعيداً بما قدم له، وبدأ بعضهم يأكل على الفور، وسمعت عبارة «شهية طيبة» عدة مرات. وتغلغل الثوم، المنتشر كالحبّ، إلى الأحاسيس، وفاحت رائحته من الجميع، حتى الذين لم يتناولوا أطباقاً تحتوي عليه.

سألت نفسها إن كانت راضية لأن ضيوفها يستطيعون مواصلة رواية حكاياتهم بدونها. ودنيا الأخرى بحكايتها؟ ثم سمعت أحداً يذكر اسمها، يقرنه باسم بوساسو، وكان أبشير يرفع كأساً نخب ذلك. ووقف الجميع، وظلت دنيا فقط جالسة. وجاء أطفالها يعانقونها، وقالوا أشياء جميلة في أذنها متمنين لها كلّ الخير. وترك ماير مكانه على رأس المائدة، وجاء ليهنئها، وردّ أبشير برفع كأسه، مقرناً اسمها باسم بوساسو، لكن الكلمة كانت قصيرة، أعرب فيها عن حبّ وبركات أخٍ أكبر بزواج أخته الأصغر. وكسرت نسيبة كأساً بعد أن أفرغتها، وقال ماتان إن الزفاف الوحيد الذي يكسر فيه شيء يعتبر زفافاً محظوظاً. واعتبر الجميع بوساسو ودنيا زوجاً وزوجة.

مِن من تزوج بوساسو؟ أيّ دنيا؟

دنيا هذه أم دنيا الأخرى؟

كانت تتمنى أنها تعرف.

دنيا، الراوية، لم تعد واثقة كيف ستواصل حكايتها، ولم يعد بإمكانها أن

تتوقف لفترة أطول لكي تتطلع إلى الوراء على الأحداث كما حدثت كي تتمكن من وصفها بدقّة.

في نقطة ما، قالت نسيبة لأحدهم: «ألا تنتهي جميع القصص بالزواج أو بحلّ مثل هذا الاتحاد».

كان أبشير يدخّن بشكل متواصل وهو يتكلم؛ وكان يقول من بين أشياء أخرى، إن جميع القصص هي قصّة واحدة، موضوعها الرئيسي الحبّ. وإذا بدت القصص مختلفة، فهي مختلفة فقط لأن الرحلة التي يقوم بها الأشخاص تأخذ طرقاً مختلفة للوصول إلى مقصدها النهائي.

احُتسي مزيد من الأنخاب، وقُدمت الشمبانيا لمن يرغب.

وخلص أبشير إلى أن «جميع القصص تحتفل، بشكل رثائي، بمصادر الطاقة الإنسانية غير المستغلّة، للنساء والرجال». ثم شمّت دنيا رائحة بوساسو، لأنه جاء إلى المكان الذي تجلس فيه، وأخذ أحدهما يقبّل الآخر، فيما راح الآخرون يشربون نخبيهما مراراً وتكراراً. كان العالم مستعداً لسماع قصّة دنيا من البداية.

هذا الكتاب

لم يكن قد مضى وقت طويل على استيقاظ دنيا عندما أدركت أن بزوغ الفجر قد أضحى وشيكاً. وتذكّرت أنها حلمت بفراشة ترفرف بجناحيها، وبقطّة تنتظر متحفزة لتنقضّ على الحشرة المشاكسة. وبعد قليل، أضاء الغرفة المعتمة بريق حشرة سراج الليل، وسُمع صوت لهاث ناعم وهادئ كالرغوة. فراحت دنيا، التي كادت تغيب عن الوعي بسبب الحرارة الخانقة، تراقب ما يجري وهي لا تزال مستلقية. كانت الفراشة تحوم في أرجاء الغرفة، وتقوم بحركات فاتنة في شكل دائرة من ألوان قوس قزح. وكما لو كانت منوّمة مغناطيسياً، أغمضت القطّة عينيها ببطء، على نحو مثير، وغطت في النوم.



